

الأسفار المقدسة

فى الأديان السابقة للإسلام

تأليف

الدكتور على عبد الواحد وافى







تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي



اسم الكتاب: الأسفار المقدسة

اسم المؤلف: الدكتور على عبد الواحد وافى

تاريخ الطبع يونيو ١٩٩٦

رقم الإيداع: ٢٢٥٩ / ١٩٨٤

الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 08 - 0037 -6

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة

مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١

فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ .

فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥

ص.ب: ٩٦ الفجالة

ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ .

فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦

ص.ب: ٢٠ امبابة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ترجع أهم الديانات السابقة للإسلام التى وصلت الينا أسفارها المقدسة كاملة أو غير كاملة الى أربع ديانات ، وهى اليهودية والنصرانية والزرادشتية الفارسية والبرهمية الهندية .

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة اليهودية اسم « العهد القديم » *Ancien Testament* . ومن أهم أسفار هذا العهد مجموعة تسمى كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو التوراة .

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة النصرانية اسم « العهد الجديد » Nouveau *Testament* . ومن اهم أسفار هذا العهد مجموعة تسمى الأناجيل .

ويراد بكلمة « العهد » فى هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق ، أى إن كلتا الطائفتين من الأسفار تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس : فأولاهما تمثل ميثاقا قديما يرجع الى عصر موسى ؛ والأخرى تمثل ميثاقا جديدا بدأ بظهور عيسى .

وجرت العادة أن يجمع أسفار العهدين معا فى كتاب يطلق عليه اسم « الكتاب المقدس » *La Bible* .

وقد تألف من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم فى شئون عقائدهم وشرائعهم وتاريخهم مجموعة أسفار أطلق عليها اسم « التلمود » (أى التعاليم) واعتبرت شارحة ومبينة ومفصلة لما ورد فى أسفار « العهد القديم » وأنزلها معظم فرق اليهود منزلة لا تقل كثيرا عن منزلة « العهد القديم » نفسه .

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية الفارسية اسم « الأبستاق » وهو تعريب الكلمة « الأفستا » Avesta (ومعناها الأصل أو الأساس) .

وأما الأسفار المقدسة للديانة البرهمية الهندية فيطلق عليها اسم « الڤيدا » (Veda ومعناها المعرفة أو العلم) .

ومن أسفار « الڤيدا » استمدت « قوانين مانو » *Lois de Manou* التي تنسب لمشرع هندي قديم اسمه « مانو » أو « ما ناڤا » وهي تفصيل وشرح وبيان لما اشتملت عليه أسفار « الڤيدا » من عقائد وعبادات ومعاملات ونظم اجتماعية وتاريخ . وينزل البرهميون هذه القوانين منزلة التقديس كذلك ، حتى لقد اعتقدوا أن مؤلفها أحد الآلهة المنبثقين عن الإلاه الخالق وهو براهما .

فلدينا اذن ست مجموعات من أسفار هذه الديانات الأربع : منها مجموعتان للديانة اليهودية وهما أسفار « العهد القديم » وأسفار « التلمود » ؛ ومجموعتان كذلك للديانة البرهمية وهما أسفار « الڤيدا » و « قوانين مانو » ؛ ومجموعة للديانة المسيحية وهي أسفار « العهد الجديد » ؛ ومجموعة للديانة الزرادشتية وهي أسفار « الأبستاق » .

وسنقف على أسفار كل ديانة من هذه الديانات الأربع فصلا مستقلا نعرض في بعض فقراته لبيان الأسفار وفي بعضها الآخر لتحقيقات تتعلق بتصنيفها وجمعها واللغات التي ألفت بها والتي ترجمت اليها وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وقصص والشعوب التي اختصت بها وموقف الاسلام منها وما يتصل بهذه الأمور .

والله نسأل أن يكتب لنا التوفيق والسداد ويهيئ لنا من أمرنا رشدا .

دكتور علي عبد الواحد وافي

الفصل الأول

أسفار الديانة اليهودية

سنمهد لموضوع هذا الفصل بفقرتين : نلقى فى أولاهما نظرة مجملة على تاريخ بنى إسرائيل ، لأنهم هم الذين تنسب اليهم هذه الديانة وهم الذين اختصوا بأسفارها ؛ ونذكر فى الفقرة الأخرى كلمة موجزة عن اللغات العبرية والآرامية واليونانية ، لأنها اللغات التى استخدمت فى تأليف هذه الأسفار وشرحها وترجمتها . وستفيدنا الفقرة الأخيرة كذلك عند الكلام على أسفار العهد الجديد (أسفار الديانة المسيحية) فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، لأن اللغتين الأخيرتين من هذه اللغات هما اللتان استخدمتا فى أسفار هذا العهد .

ثم نقف الفقرات التالية على التعريف بأسفار العهد القديم وأسفار التلمود وهما المجموعتان اللتان تتألف منهما أسفار الديانة اليهودية ، مع تحقيقات تتعلق بتأليف هذه الأسفار ، وتاريخ تأليفها ، واللغات التى ألفت بها والتى ترجمت اليها ، وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وقصص ، والأسفار الأخرى غير المعتمدة عند اليهود ، والأسفار التى تعمد أحبارهم اخفاءها ، والفرق اليهودية وما بينها من خلاف فى العقائد والشرائع وصلة ذلك بالأسفار ، وموقف الاسلام من هذه الأمور .

—١—

نظرة مجملة فى تاريخ بنى اسرائيل

هاجر يعقوب (الملقب باسرائيل) هو وأولاده وحفدته من بلاد كنعان (فلسطين وما اليها) إلى مصر على أثر ما حاق بموطنهم القديم من مجاعة وما أصاب مراعيها من جفاف . وكان عددهم سبعين نفساً بحسب ما تذكره كتبهم المقدسة[١] وكان الوزير الأول بمصر هو يوسف عليه السلام أحد أبناء يعقوب نفسه . فأكرم مثوى أبيه وأخوته ، وعطّف عليهم قلب فرعون ملك مصر ، وأقطعهم بأمره أرضا فى أخصب البقاع[٢] . وظلت سلالات بنى اسرائيل بمصر حينا من الدهر تنعم بكرم المصريين ورعايتهم وتقديرهم لجهودهم وكفاياتهم ، حتى لقد وصل كثير منهم الى أعلى الدرجات والمناصب[٣] . ثم تغير موقف المصريين منهم فيما بعد إلى نقيض ما كان عليه ، لخشيتهم من تكاثر عددهم الذى زاد على عدد المصريين أنفسهم ومن استفحال نفوذهم فى البلاد[٤] ، فأصبحوا موضع مقتهم واضطهادهم ، يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، ويتخذون منهم خدما وعبيدا ، ويسخرونهم فى أشق الأعمال[٥] . وبقى بنو اسرائيل أمدًا طويلا يرزحون تحت نير هذا الاستعباد ، وتنوشهم معاول هذه الابادة ، حتى أرسل الله اليهم والى فرعون وقومه رسولين اسرائيليين من نسل لاوى (ليڤى Lévi) أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام ، يبلغانهم رسالة التوحيد ، ويدعوانهم الى عبادة الله وحده ،وترك ما هم عليه من عبادة الأوثان والكواكب وأرواح الموتى

---

(١) سفر التكوين ، اصحاح ٤٧ فقرة ٤ .

(٢) سفر التكوين ، اصحاح ٤٧ فقرة ١١ .

(٣) انظر فى هجرة يعقوب وأولاده إلى مصر سورة يوسف من القرآن الكريم وسفر التكوين من اصحاح ٤٦ إلى آخر السفر .

(٤) سفر الخروج ، الاصحاح الأول . فقرة ٩ .

(٥) انظر فى ذلك القرآن الكريم . سورة البقرة آية ٤٩ ، والاصحاح الأول من سفر الخروج .

والملوك والحيوان والنبات ، ويقدمان لهم شريعة سماوية سمحة ، هى الديانة اليهودية ، تفصل ما ينبغى أن يكونوا عليه فى شئون دينهم ودنياهم ، فآمن بهما بنو اسرائيل ، وكذب بهما فرعون وقومه إلا قليلا منهم . وظل موسى وهرون وقومهما بنو إسرائيل بعد ذلك فى مشادات مع فرعون وقومه حتى أتيح لهم الخروج من مصر إلى صحراء سيناء فى قصة مشهورة ذكرت وقائعها فى كثير من سور القرآن الكريم ، وتحدث عنها بتفصيل « سفر الخروج » وهو أحد أسفار العهد القديم .

وقد استحال بنو إسرائيل فى أثناء الفترة التالية لخروجهم من مصر حتى استقرارهم فى أرض كنعان ، وتبلغ حوالى أربعين سنة ، الى قبائل من البدو الرحل ، يضربون فى صحراء سينا والمناطق المتاخمة لها ، متنقلين فى أرجائها ، « تائهين » حسب تعبير القرآن الكريم فى دروبها وفيافيها[٦] . وكان موسى قد طلب اليهم دخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، وهى أرض فلسطين ، وقتال أهلها ، ووعدهم بالنصر ، فتقاعسوا عن ذلك جبنا وخورا ، فكتب الله عليهم هذا التيه ، حتى يفنى هذا الجيل الجبان ، وينشأ جيل آخر ربى على التخشن وتمرس بشئون القتال[٧] .

وفى أثناء هذه الفترة توفى هارون ثم موسى عليهما السلام ، ولكن بعد أن أكمل الله لبنى اسرائيل دينهم وأتم عليهم نعمته ، وبعد أن تلقى موسى من ربه التوراة « فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء »[٨] . وقد استوعبت جميع تفاصيل هذه الديانة عقائدها وشرائعها وأخلاقها وقصصها : « وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ »[٩] .

وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو اسرائيل بقيادة يوشع Josue خليفة موسى بعد وفاته على بلاد كنعان (فلسطين وما اليها وهى الأرض المقدسة التى

---

(٦) انظر آية ٢٦ من سورة المائدة : « قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض » .

(٧) انظر التصوير الرائع للحوار الذى جرى بين موسى وقومه اذ يستحثهم على دخول الأرض المقدسة ، وهى أرض فلسطين ، وهم يتقاعسون عنها خوفا من أهلها ، فى آيات ٢٠ – ٢٦ من سورة المائدة .

(٨) آية ٤٤ من سورة المائدة : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . . . » الآية .

(٩) آية ١٤٥ من سورة الأعراف .

وعدهم الله بها) واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات ، بعد أن أبادوا معظم أهلها واستعبدوا من أبقوا عليه منهم . فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل ، وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار ، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التي ورثوها عن الكنعانيين . وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت اشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم ، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب وهم رهط موسى وهارون . أما رؤساؤهم السياسيون فكانوا فى صدر هذه المدة من القضاة Juges ، ثم لما اتسع نفوذ بنى اسرائيل أصبح رؤساؤهم السياسيون ملوكا ذوى سلطان كبير ، ومنهم داود وسليمان عليهما السلام .

وفى سنتى ٥٩٦ و ٥٨٧ قبل الميلاد أغار بختنصر Nabuchonosor ملك بابل على فلسطين ، فأزال ملك بنى اسرائيل ، وأسر منهم عددا كبيرا أجلاهم الى بابل (ومن ثم اشتهر ذلك فى التاريخ باسم نفى بابل) حيث ظلوا فى الأسر زهاء خمسين سنة حتى تغلب كورش Cyrush ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ قبل الميلاد ، فأطلق سراح اليهود ، ورجع كثير منهم الى فلسطين ، واستعادوا بعض أوضاع حياتهم الأولى ، ولكنهم فقدوا استقلالهم ، ولم ينعموا به بعد ذلك إلا فترات قصيرة . فوقعوا أولا تحت سيطرة الفرس ، ظلوا كذلك زهاء قرنين كاملين ، ثم وقعوا تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الاسكندر الأكبر ، ثم تحت سيطرة الرومان .

وفى سنة ١٣٥ بعد الميلاد أخمد الرومان فى عهد الامبراطور هادريان Hadrien ثورة قام بها اليهود (من ١٣٠ الى ١٣٥) واستخدموا فى اخمادها أعنف وسائل البطش ، فدمروا بلادهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، فأصبحوا مشتتين هائمين على وجوههم فى مختلف بقاع الأرض حتى يومنا هذا ، على الرغم من إنشاء دولتهم ومن هجرة شرذمة منهم الى بلادها

والى اجلاء بني اسرائيل من بلادهم فى هاتين المرتين يشير القرآن الكريم اذ يقول : « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال

الديار وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فاذا وعد الآخرة (أى وعد المرة الآخرة وهو الجلاء الثانى) ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مره وليتبروا ما علوا تتبيرا »[10] .

وقد تنكب بنو اسرائيل الصراط المستقيم ، وخرجوا على تعاليم دينهم وعقائده عدة مرات فى عهد موسى نفسه ومن بعده ، حتى لقد عبدوا العجل وهرون بين ظهرانيهم وموسى يتلقى الألواح من ربه . وبعث الله فيهم من بعد موسى وهرون عدة رسل وأنبياء يهدونهم سواء السبيل ، ويحاولون انقاذهم مما انحدروا اليه من كفر وضلال ، فما كانوا يلاقون منهم الا الاعراض والتكذيب ، بل كانوا يلاقون منهم أحيانا التعذيب والتقتيل . وفى هذا يخاطبهم القرآن الكريم اذ يقول : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟ ! » ، ويقول مبينا تكذيبهم للقرآن ولأسفارهم نفسها وتمردهم على موسى والأنبياء من بعده : « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . واذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ، قل بئس ما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »[11] ، ويقول : « . . . وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »[12] .

---

(١٠) آيات ٢ — ٥ من سورة الاسراء .

(١١) آيات ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ من سورة البقرة .

(١٢) آية ٦١ من سورة البقرة .

-٢-

نظرة مجملة فى اللغات العبرية والآرامية واليونانية

استخدم فى تأليف أسفار الديانة اليهودية وفى شرحها وترجمتها الأولى ثلاث لغات ، وهى العبرية والآرامية واليونانية . ولذلك رأينا التمهيد لدراسة هذه الأسفار بكلمة مجملة عن هذه اللغات الثلاث . وسنفيد من هذا التمهيد فى دراسة العهد الجديد الذى سنتحدث عنه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب لأن أسفار هذا العهد كذلك قد استخدم فى تأليفها وترجمتها الأولى لغتان من هذه اللغات الثلاث وهما الآرامية واليونانية .

اللغة العبرية :

تطلق اللغة العبرية على لغة فرع واحد من العبريين ، وهو فرع بنى اسرائيل . وذلك أن الأمم العبرية تتألف من بنى اسرائيل وشعوب أخرى كآل آدوم وآل مؤاب وآل عمون . ولكن لا يطلق اسم اللغة العبرية الا على لغة بنى اسرائيل وحدهم .

وقد اجتازت هذه اللغة مراحل كثيرة تأثرت فى كل مرحلة منها ، فى مفرداتها وقواعدها وأساليبها ، بعدة مؤثرات أهمها الشئون السياسية وما طرأ على وحده بنى اسرائيل واستقلالهم وعلاقتهم بالشعوب الأخرى واحتكاك لغتهم وثقافاتهم بلغاتهم وثقافاتهم. فاللغة مرآة ينعكس فيها ما يكتنف الناطقين بها فى حياتهم الاجتماعية والعقلية من ظروف ومؤثرات . وترجع أهم مراحل هذه اللغة الى عصرين رئيسين :

العصر الأول من نشأة هذه اللغة (حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد) الى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، أى طوال المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لغة حية يتكلم بها بنو اسرائيل . وفى المرحلة الأولى من هذا العصر ، وهى المرحلة السابقة لنفى بابل (أى السابقة لسنة ٥٨٧ قبل الميلاد) كانت العبرية فصيحة خالصة من الشوائب ، بينما أخذت بوادر التأثر باللغة الآرامية تنفذ اليها فى أثناء المرحلة الأخيرة ، وهى اللاحقة لهذا النفى . وتسمى العبرية فى هذا العصر بمرحلتيه « العبرية القديمة » أو

« عبرية العهد القديم » لأن أهم ما وصل الينا من آثارها فى هذا العصر بمرحلتيه هى أسفار « العهد القديم » .

والعصر الثانى يبدأ من العهد الذى انقرضت فيه اللغة العبرية من التخاطب لدى بنى اسرائيل ، وحلت محلها فى ألسنتهم اللغة الآرامية ، واقتصر استخدام العبرية على الكتابة وشئون الدين ، أى من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . وتمتاز العبرية فى هذا العصر بشدة تأثرها باللغة الآرامية وببعض اللغات الهندية الأوروبية التى احتك اليهود بأهلها احتكاكا سياسيا أو ثقافيا وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية . وتسمى العبرية فى أثناء المرحلة الأولى من هذا العصر ، وهى المرحلة التى تنتهى بالقرن السادس الميلادى ، « العبرية الربانية » أو « التلمودية » ، لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها فى هذه المرحلة يتمثل فى بحوث « الربانيين » فى أسفار « المشناة » من « التلمود » كما سيأتى بيان ذلك[١٣] .

اللغة الآرامية :

أصبحت اللغة الآرامية بعد تغلبها على اللغة العبرية فى فلسطين وما إليها وعلى اللغة الأكادية (أو البابلية الأشورية) فى مناطق العراق ، أى منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد اللغة السائدة فى التخاطب والكتابة فى جميع بلاد العراق من جهة وفى سوريا وفلسطين وما إليهما من جهة أخرى .

وباللغة الآرامية كتب من أول الأمر بعض فصول وفقرات فى بعض أسفار العهد القديم (بعض فصول من سفرى عزرا ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء) ، وكتب بها من أول الأمر كذلك انجيل متى فى العهد الجديد .

وباللغة الآرامية شرحت أسفار « المشناة » اليهودية ، وسمى شرحها هذا « الجمارا » (وتألف من المتن العبرى وهو « المشناة » والشرح الآرامى وهو « الجمارا » ما يسمى « التلمود ») .

والى اللغة الآرامية ترجمت أسفار العهد القديم من أصلها العبرى أحيانا ومن

---

(١٣) انظر فى تفاصيل اللغة العبرية وأدوارها وخصائصها ورسمها كتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثامنة ، صفحات ٤١ – ٥١ .

ترجمتها اليونانية أحيانا ، وترجم اليها كذلك أسفار العهد الجديد من أصلها اليونانى [١٤] .

اللغة اليونانية :

كانت اللغة اليونانية لغة الحديث والكتابة فى جميع البلاد اليونانية الأصل وفى جميع مستعمرات اليونان بآسيا وأفريقيا ، كما كانت لغة الآداب والثقافة والعلوم فى كثير من البلدان غير اليونانية اللسان ، وخاصة فى بلاد العراق والشام وفلسطين وشمال أفريقيا ، بل فى مصر نفسها ؛ فقد كان المصريون من عهد البطالسة الى الفتح العربى يستخدمون المصرية القديمة فى تخاطبهم وحديثهم العادى ، بينما كانوا يستخدمون اليونانية فى شئون الكتابة والثقافة والآداب والعلوم .

وباللغة اليونانية ألفت جميع أسفار العهد الجديد ما عدا انجيل متى ، فالراجح أنه ألف بالآرامية ثم ترجم الى اليونانية ، وان كان الأصل الآرامى لم يصل الينا .

والى اللغة اليونانية تمت أقدم ترجمة لأسفار العهد القديم من أصلها العبرى وهى الترجمة السبعينية(وهى التى تمت فى سنتى ٢٨٢ر٢٨٣ ق م على يد اثنين وسبعين حبرا من يهود مصر بأمر بطليموس فيلادلف ، ومراعاة لعدد من قام بها سميت الترجمة السبعينية Version de Septante) . وإلى اللغة اليونانية تمت كذلك أقدم ترجمة لانجيل متى فى العهد الجديد من أصله الآرامى .

ومن اللغة اليونانية ترجمت أسفار العهدين القديم والجديد الى اللغة اللاتينية . وعن اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار الى معظم لغات العالم قديمها وحديثها [١٥] .

---

(١٤) انظر فى تفاصيل اللغة لآرامية وأدوارها وفروعها كتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثامنة ، صفحات ٥٢ — ٦٧ .

(١٥) انظر فى تفاصيل اللغة اليونانية وفروعها وآدابها كتابنا « علم اللغة » الطبعة السادسة ص ١٨١ ، وكتابنا « الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعى » .

—٣—

العهد القديم

اعتمد اليهود فى أسفارهم تسعة وثلاثين سفرا أطلق عليها فى العصور المسيحية اسم « العهد القديم » Ancien Testament للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التى أطلقوا عليها اسم « العهد الجديد » Nouveau Testament — واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين أسفارا مقدسة أى موحى بها .

ويراد بكلمة « العهد » فى هاتين التسميتين —كما ذكرنا ذلك فى مقدمة هذا الكتاب —ما يرادف معنى الميثاق ، أى أن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس وارتبطوا به معه alliance : فأولاهما تمثل ميثاقا قديما من عهد موسى ؛ والأخرى ميثاقا جديدا من عهد عيسى .

وتنقسم أسفار العهد القديم أربعة أقسام :

(القسم الأول) كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو « البانتاتيك » .

(Pentateuque : du grec "Penta" = cinq , et "teukhos" = livres)

وهى سفر التكوين وسفر الخروج وسفر التثنية وسفر اللاويين وسفر العدد.— وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة فى نظر اليهود .

أما سفر التكوين» (Génèse) فيقص تاريخ العالم من تكوين السماوات والأرض (ومن ثم سمى سفر « التكوين ») الى استقرار أولاد يعقوب أو اسرائيل (وهو اسم آخر أو لقب ليعقوب) فى أرض مصر ، مع تفصيل فى قصص آدم وحواء ونوح والطوفان ونسل سام (أحد أبناء نوح ، وهو الذى انحدر منه شعب بنى اسرائيل) وخاصة ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف والأسباط ، واجمال فيما عدا ذلك .

وأما سفر الخروج (Exode) فيعرض تاريخ بنى اسرائيل فى مصر وقصة موسى ورسالته وخروجه مع بنى اسرائيل (ومن ثم سمى سفر « الخروج ») وتاريخهم فى أثناء

مرحلة « التيه » التي قضوها في صحراء سينا واستغرقت أربعين عاما ، وهي التي يشير اليها القرآن الكريم اذ يقول : « قال فانها محرمة عليهم » (أي أرض الميعاد ، وهي بلاد كنعان التي وعدهم الله بها) « أربعين سنة يتيهون في أرض[١٦] » . وبجانب هذه القصص يشتمل سفر الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات . . . وما الى ذلك .

وأما سفر التثنية فقد شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات . . . وهلم جرا . وسمي « التثنية » لأنه « يعيد » ذكر التعاليم التي تلقاها موسى من ربه وأمر بتبليغها الى بني اسرائيل .

(Deutéronome , du grec " deutérônomion = seconde loi)

وأما سفر اللاويين (Lévitiques) فقد شغل معظمه بشئون العبادات وخاصة ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور . واللاويون هم نسل « لاوى » أو « ليڤي » Lévi أحد أبناء يعقوب ، ومنهم موسى وهرون . وكان اللاويون سدنة الهيكل والمشرفين على شئون المذبح والأضحية والقرابين والقوامين على الشريعة اليهودية . ومن ثم نسب اليهم هذا الكتاب الذى شغل معظمه بما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات .

وأما سفر العدد (Nombres) فقد شغل معظمه باحصائيات عن قبائل بني اسرائيل وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن احصاؤه من شئونهم (ومن ثم سمي سفر « العدد ») وبأحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات .

(والقسم الثاني) يسمى بالأسفار التاريخية ، وهي اثنا عشر سفرا تعرض لتاريخ بني اسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين وبعد استقرارهم في فلسطين ، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة في شئونهم . وهي أسفار

---

(١٦) آية ٢٦ من سورة المائدة

يوشع[١٧] Josué والقضاة[١٨] Juges وراعوث[١٩] Ruth وصموئيل[٢٠] (سفران) والملوك[٢١] (سفران) وأخبار الأيام Croniques (سفران)[٢٢] وعزرا[٢٣] Esdras ونحميا[٢٤] Néhemie واستير[٢٥] Esther .

(والقسم الثالث) يسمى أسفار لأناشيد أو الأسفار الشعرية ، وهى أناشيد ومواعظ معظمها دينى مؤلفة تأليفا شعريا فى أساليب بليغة ، وعددها خمسة أسفار ، وهى سفر أيوب[٢٦] Job ومزامير داود Psaumes وامثال سليمان

---

(١٧) هو فتى موسى وخليفته وهو الذى قاد جيش بنى اسرائيل فى دخول بلاد كنعان واغارته على أهلها .

(١٨) هم الذين تولوا شئون الحكم بعد استيلاء بنى اسرائيل على بلاد كنعان .

(١٩) هى جدة داود من جهة أبيه .

(٢٠) هو أحد أنبيائهم وآخر قضاتهم وهو الذى عين لهم أول ملوكهم ، وقد وردت قصته فى القرآن الكريم فى آيات ٢٤٦ – ٢٤٨ من سورة البقرة ، وودرت بعد ذلك قصة أول ملك من ملوكهم فى آيات ٢٤٩ – ٢٥١ .

(٢١) هم الذين تولوا الحكم بعد القضاة وأولهم طالوت . ثم داود وسليمان . ولكن السفر الأول من سفر الملوك يبدأ بتاريخ سليمان .

(٢٢) تعرض الاصحاحات التسعة الأولى من السفر الأول لشجرة النسب من آدم الى بنى اسرائل . وما بقى من هذا السفر يعرض لتاريخ داود . وتعرض الاصحاحات التسعة الأولى من السفر الثانى لتاريخ سليمان . وما بقى من اصحاحات هذا السفر يعرض للتاريخ السياسى لبنى اسرائيل بعد سليمان .

(٢٣) يرجع اليه الفضل فى اعادة طائفة من بنى اسرائيل فى القرن الخامس ق م من منفاهم فى بابل الى أوطانهم ، وقد حرر الديانة اليهودية وأعاد إليها بعض معالمها وجدد بناء بيت المقدس . واليه ينسب تحرير كثير من أسفار العهد القديم . ونال منزلة كبيرة فى نفوس بنى اسرائيل حتى لقد اعتقدت بعض فرقهم انه ابن الله ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم اذ يقول : « وقالت اليهود عزير ابن الله » (آية ٣٠ من سورة التوبة) .

(٢٤) ساعد عزرا فى اعادة تشييد فلسطين وحصل من ملك الفرس على موافقته على ذلك .

(٢٥) يهودية كانت زوجة لأحد ملوك الفرس وهو اخشرشيش Assuérus ، وأحبطت مؤامرة دبرها أحد وزراء هذا الملك ضد اليهود ، واسمه هامان (وهو غير هامان وزير فرعون الذى ورد ذكره فى آية ٣٨ من سورة القصص وفى آيتى ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر) . وعملت على القضاء عليه وعلى أعوانه فى المؤامرة ، وكان ذلك بمساعدة يهودى اسمه مردخاى . ولذلك تسمى القصة قصة استير ومردخاى .

(٢٦) يبدو من عبارات هذا السفر أن أيوب صاحبه من بنى عيسو (أخو يعقوب التوأم) وليس من بنى اسرائيل ، وهو أيوب المذكور فى القرآن .

والجامعة من كلام سليمان Proverbes Ecclésiaste ونشيد الأناشيد لسليمان Cantique des Cantiques

(والقسم الرابع) يسمى أسفار الأنبياء وعددها سبعة عشر سفرا ، وهى أسفار أشعياء Esaïe وأرمياء Jérémie ومراثى أرمياء Lamentations de Jérémie وحذقيال Ezechiel ودانيال Daniel وهوشع Osée ويوئيل Joël وعاموس Amos وعوبديا Abdias ويونس أو يونان Jonas وميخا Michée وناحوم Nahum وحَبقوق Habakuk وصُفنْيا Sophonie وحَجّى Aggee وزكريا Zacharie (وهو غير زكريا أبى يحيى الذى ورد ذكره فى القرآن والأناجيل) وملاحى أو ملاخيا Malachie

وجميع هؤلاء من الأنبياء اسرائيليون وأرسلوا الى بنى اسرائيل ما عدا يونس فانه يظهر من عبارات كتابه أنه مرسل الى نينوى ، وهو النبى يونس المذكور فى القرآن .

هذا وقد ذكر كثير من مؤرخى العرب بين أسفار العهد القديم كتبا ليست منه ؛ كما ذكروا كتبا لا وجود لها بين الكتب المعتمدة ولا بين الكتب الخفية عند اليهود ، وأغفلوا ذكر طائفة من الأسفار المعتمدة ، وحرفوا كثيرا من أسماء ما ذكروه منها [٢٧] .

---

(٢٧) انظر مثلا ابن خلدون فى المقدمة ، وانظر تعليقاتى فى هذا الصدد على مقدمة ابن خلدون بصفحات ٦٥٣ - ٦٥٧ الجزء الثانى ، طبعة نهضة مصر ، الطبعة الثالثة . هذا ، ومعظم الأسفار التى ذكرها ابن خلدون من زيادات الترجمة اللاتينية التى اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية ، والتى سيأتى بيانها فى الفقرة السادسة من هذا الفصل .

-٤-

التوراة أو أسفار موسى أو الأسفار الخمسة
وتاريخ كل سفر منها

هذا ، وأهم أسفار العهد القديم هى أسفار القسم الأول التى ينسبها اليهود الى موسى ويعتقدون أنها بوحى من الله وانها تتضمن التوراة . ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التى كتبت بها هذه الأسفار ، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التى تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت فى عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) ، وأن معظم سفرى التكوين والخروج قد ألف حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، وأن سفر التثنية قد ألف فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أى بعد النفى البابلى الذى سبقت الإشارة إليه فى الفقرة الأولى من هذا الفصل (وهو اجلاء بنى اسرائيل الى بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد) ، وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود ، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التى كانت سائدة لديهم فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل ، كما سنذكر ذلك عند كلامنا على العقيدة والشريعة فى أسفار اليهود . فهى إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التى يذكر القرآن أنها كتاب سماوى مقدس أنزله الله على موسى . والى هذا يشير القرآن الكريم اذ يقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؛ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »(٢٨) واذ يقول : « . . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ؛ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه »(٢٩) ، واذ يقول : « فبما نقضهم ميثاقهم » (يعنى اليهود) « لعناهم

(٢٨) آية ٧٩ من سورة البقرة .

(٢٩) اية ٤٦ من سورة النساء .

وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا خطا مما ذكروا به »[٣٠أ] وقد رأى عليه الصلاة والسلام ورقة من التوراة فى يد عمر فأمره بالقائها وألا يضيع وقته فى قراءة ما بها من كذب وتحريف ، ثم قال : « ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ ! والله لو أن موسى كان حيا ما وسعه الا اتباعى » ؛ أى ان هذه التوراة المزعومة ملطخة بسواد التحريف والتغيير ؛ وقد أنزل الله على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن ملخصا لما كانت تشتمل عليه التوراة من عقيدة وشريعة وقصص ، فأحياها فى صورتها الصحيحة نقية بيضاء ، وأن موسى لو بعث الآن لتبرأ من توراتهم واتبع قرآن محمد .

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة بشأن التواريخ التى ألفت فيها هذه الكتب الخمسة ، وضعنا سفر التثنية فى ترتيبنا قبل سفرى اللاويين والعدد لأنه قد ألف فى عصر سابق للعصر الذى ألف فيه هذان السفران ، وإن كان الترتيب التقليدى للعهد القديم يضعه فى آخر الأسفار الخمسة .

—٥—

بقية أسفار العهد لقديم وتاريخ كل سفر منها

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة نفسها يرجح الباحثون أن قسما من الأسفار الأخرى للعهد القديم قد ألف فى الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد ، ويشمل هذا القسم أسفار يوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد ومعظم أسفار الأنبياء ، وأن قسما آخر قد ألف فى الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد ؛ ويشمل هذا القسم أسفار يونس وزكريا وقسما من سفر دانيال .

(٣٠أ) آية ١٣ من سورة المائدة .

اللغات التى ألفت بها أسفار العهد القديم والتى ترجمت اليها

دونت جميع أسفار العهد القديم بلغة واحدة وهى اللغة العبرية . وان كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم على العصور التى ألف فيها كل سفر منها . ولا يستثنى من ذلك الا بعض أجزاء يسيرة ألفت من أول الأمر باللغة الآرامية وهى بعض أجزاء من سفرى عزرا Esdras ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء Jérémie وكلمتان اثنتان فى سفر التكوين وردتا باللغة الآرامية عن قصد . ويرجح الباحثون أن ما ألف بالآرامية مباشرة من سفر عزرا يرجع تاريخ تدوينه الى حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وأن ما ألف بها من سفر دانيال يرجع تاريخ تدوينه الى سنة لاحقة لهذا التاريخ .

وقد أخطأ بعض مؤرخى العرب اذ قرروا أن جميع أسفار العهد القديم قد ألفت باللغة العبرانية .

وأقدم ترجمة للعهد القديم هى الترجمة اليونانية التى اشتهرت باسم « الترجمة السبعينية » Version de Septante وهى التى تمت فى سنتى ٢٨٢و٢٨٣ قبل الميلاد على يد اثنين وسبعين حبرًا من يهود مصر ، ستة فقهاء من كل سبط من الأسباط الاثنى عشر ، بأمر بطليموس فيلادلف ، وكان ذلك لفائدة اليهود الذين كانوا يسكنون مصر حينئذ ويتكلمون اليونانية .

وتشتمل الترجمة السبعينية على أربعة عشر سفرًا لا توجد فى الأصل العبرى الذى وصل الينا . وهذه الأسفار هى : سفر طوبيا Tobi ؛ وسفر الحكمة لسليمان Sagesse de Salomon ؛ وأسفار المكابيين وعددها أربعة أسفار 4 livres des Maccabées ؛ وسفر يهوديت Judith ؛ وسفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ L'Ecclésiastique, ou Sagesse de Jésus fils de Sirach ؛ ونشيد

الأطفال الثلاثة Cantique des Trois Enfants ؛ وسفر سوزان Suzane ؛ وسفر بل والتنين Bel et le Dragon ؛ وثلاثة أسفار منسوبة لعزرا زيادة على السفر المثبت فى الأصل العبرى ؛ وبعض زيادات فى سفر دانيال[٣٠ ب]

وعن الترجمة السبعينية ترجمت أسفار العهد القديم الى اللغة اللاتينية La Vulgate Latine ومع أن هــذه الترجمة اللاتينية كانت ترجمة للسبعينية اليونانية ، فانها لم تأت مطابقة لها كل المطابقة ، فقد اشتملت على سفرين اثنين فقط للمكابين (أسفار المكابيين فى السبعينية أربعة أسفار) ، وحذف منها أسفار عزرا الثلاثة التى زيدت فى السبعينية على الأصل العبرى وزادت سفر باروخ[٣١] كما اشتملت على بعض زيادات فى سفر «استير» وهى سبع إضافات لتكلمة قصة استير وهامان ومردخاى. وفيما عدا ذلك لا يوجد بين الترجمتين خلاف ذو بال .

وفضلا عن الأسفار والاجزاء التى تزيد بها الترجمتان اليونانية واللاتينية عن الأصل العبرى ، فانهما فى بعض المواضع لا تنطبقان على هذا الأصل تمام الانطباق . ولم يعرف الى الآن على وجه اليقين الأسباب التى أدت الى هذه الزيادات وهذا الاختلاف .

(٣٠ ب) سفر طوبيا هو وصف لسيرة يهودى اسمه طوبيا وسيرة ابنه . وكانا أسيرين فى نينوى فى القرن السابع ق م . وسفر الحكمة يشتمل على أمثلة حكمية وعظات بلغية لسليمان ، وقد كتب لمقاومة الوثنية . والمكابيون هم الذين حكموا فلسطين حكما وطنيا فى عهد الرومان فى القرن الثانى ق م .وقد جاء اسمهم هذا من الشعار الذى كانوا يتخذونه ويكبرون به فى الحروب . وهو « ميكاموخا بجيّم يهوڤا ؟ » اى من مثلك بين الأمم يا إلاهنا ؟ أو ليس كمثلك شئ يارب ، أو كما نقول نحن « الله أكبر » فأخذ من كل كلمة الحرف الأول منها (م كاب ى) وجعل مجموع هذه الحروف « مكابى » اسما أو وصفا لكل منهم ، ومن ثم اشتهروا باسم المكابيين.ويهوديت هى أرملة يهودية غنية تقية . ويتضمن هذا السفر انتصار اليهود على قائد الجيش الأشورى بمساعدتها . وسفر الكهنوت هو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان . وتسبيحة الفتيه الثلاثة هى الكلمات التى يقال إنه قد سبح بها أصدقاء دانيال الثلاثة وهم فى أتون النار . وسفر سوزان أو قصة سوسنة العفيفة ، يشتمل على تمجيد النبى دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.وسفر «بل والتنين» عبارة عن قصة ألحقت بسفر دانيال ، وتبين كيف اقتنع الملك كورش ببطلان عبادة الأصنام .

(٣١) باروخ Baruch (euk) هو تلميذ أرمياء Jérémie وقد أملى عليه أرمياء تنبؤاته . وسفره هذا يمكن أن يعد من أسفار الانبياء ويلحق بسفر أرمياء ومراثى أرمياء . ويتضمن هذا السفر صلوات وأدعية دينية لليهود ألفت بأسلوب رائع . ويرجع تاريخ باروخ الى حوالى القرن السادس ق م .

وقد أقرت الكنيسة الكاثوليكية المسيحية جميع الأسفار والأجزاء التى تزيد بها الترجمة اللاتينية عن الأصل العبرى واعتبرتها كلها أسفارا وأجزاء مقدسة واعتبرتها من أسفار العهد القديم وأجزائه . ولكن معظم البروتستانت من المسيحيين لا يعتبرون هذه الزيادات مقدسة ولا يعتبرونها من العهد القديم . وأما اليهود أنفسهم فإنهم يدخلون فى القسم الذى يسمونه « الأسفار الخفية » Apocryphe ، والذى سيأتى الكلام عليه فى الفقرة التالية ، جميع ماتزيد به الترجمتان عن الأصل العبرى من أسفار وأجزاء . و « الأسفار الخفية » عندهم لا يدخل شىء منها فى العهد القديم ولكن بعضها يمكن أن يكون مقدسا فى نظرهم[٣٢] .

وفضلا عن الترجمتين اليونانية واللاتينية فان العهد القديم قد ترجم إلى لغات أخرى كثيرة .

فقد ترجمه أحبار اليهود من مدرسة بيت المقدس من العبرية إلى « اللهجة الآرامية الحديثة » وهى احدى لهجات اللغة الآرامية وكانت مستخدمة فى منطقة فلسطين وما اليها . وساروا فى ترجمتهم هذه على منهج خاص يختلف عن مناهج التراجم المعتادة . فكانوا يدونون الفقرة بنصها العبرى ثم يتبعونها بترجمتها إلى اللغة الآرامية . وقد أطلق على كتبهم هذه اسم « الترجوم » ومن أشهرها ترجوم أنقلوس Onclos وهو ترجمة لأسفار التوراة وحدها (الأسفار الخمسة أو أسفار موسى التى يتألف منها القسم الأول من العهد القديم وتتضمن التوراة فى نظرهم) ، وترجوم يوناثان وهو ترجمة لبقية أسفار العهد القديم . وقد ألفت ترجماتهم هذه فى الفترة الواقعة بين أوائل القرن الثانى وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد ، وتم معظمها فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين .

وفى هذه الفترة نفسها (بين أوائل الثانى وأواخر الخامس بعد الميلاد) ترجمت

---

(٣٢) من فرق اليهود المنقرضة فرقة كانت تسمى فرقة السامرية . وهذه الفرقة كانت لا تؤمن الا بسبعة أسفار من العهد القديم ، وهى أسفار موسى الخمسة وسفر يوشع وسفر القضاة ، وتتنكر ما عدا ذلك ، كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة ١٣ من هذا الفصل .

مدرسة الكنيسة المسيحية السريانية العهدين القديم والجديد الى اللغة السريانية ، وهى احدى شعب اللغة الآرامية ، ولم يترجموه مباشرة كما فعل أحبار اليهود من مدرسة بيت المقدس وإنما ترجموه عن الترجمة السبعينية اليونانية . والترجمة السريانية لا تكاد تبين عن روح اللغة العبرية التى ألفت بها هذه الأسفار .

وترجم المسيحيون بفلسطين العهدين القديم والجديد الى اللغة الآرامية الفلسطينية الحديثة ، وهى احدى اللهجات الآرامية التى كانت مستخدمة فى فلسطين وما اليها ، وذلك بعد أن استقلوا فى ثقافتهم وشئونهم الدينية عن الكنيسة السريانية . وقد تم لهم هذا الاستقلال فى أواخر القرن الخامس الميلادى . ولم يترجموه عن العبرية مباشرة كما فعل مواطنوهم اليهود من مدرسة بيت المقدس ، وانما ترجموه عن الترجمة السبعينية اليونانية كما فعل السريان . وجاءت ترجمتهم هذه ترجمة حرفية كالترجمة السريانية ، بل تزيد فى حرفيتها عن الترجمة السريانية ، وتقل عنها فى مبلغ اباتنها عن روح اللغة العبرية وأساليبها . وقد استغرقت ترجمتهم للعهدين القديم والجديد مدة طويلة تمتد من القرن الثامن الى الحادى عشر بعد الميلاد .

وعن الترجمتين اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار الى معظم لغات العالم قديمها وحديثها[٣٣] .

---

(٣٣) ظهرت حديثا سنة ١٩٧٠ ترجمة انجليزية للكتاب المقدس كله (العهدين القديم والجديد) قام بها جماعة من اليهود المنتمين الى هيئات دينية يهودية مركزة فى انجلترا . وتختلف هذه الترجمة عن الترجمات الانجليزية السابقة فى أنها صيغت بأساليب اللغة العادية لا بالأساليب الدينية التقليدية القديمة ، وفى اتسامها بالتحرر الكامل من قيود والتزامات جميع الترجمات السابقة ، وفى تصرفها فى معنى ومغزى بعض النصوص بالانحراف بها الى غير اتجاهها الأصلى أو باضافة أمور أخرى اليها ، وفى اشتمالها على اثنى عشر سفرا من الأسفار المعروفة بالأسفار الخفية (انظر الفقرة التالية ، وانظر فى هذه الترجمة مقالا للاستاذ شوقى عبد الحكيم فى عدد ١٩٧٠/٩/٥ من أخبار اليوم) .

—٧—

الأسفار « الخفية » عند اليهود

وبجانب هذه الأسفار التى يتألف منها العهد القديم توجد أسفار يهودية قديمة أخرى لم يدخلها اليهود فى أسفار هذا العهد . ويطلقون عليا اسم « الأسفار الخفية » . (Apocryphe du grec: "apokruphos", de "apokruptien= cacher).

وبعض هذه الأسفار الخفية غير مقدس ولا معتمد فى نظر اليهود ، بينما بعضها الآخر مقدس أى معترف بأنه موحى به ومعتمد فى نظرهم ، ولكن رأى أحبارهم وجوب اخفائه ، وقرروا أنه لا يجوز أن يقف عليه الجمهور ولا أن يدرج فى أسفار العهد القديم . والى هذا يشير القرآن الكريم اذ يقول فى صدد اليهود : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل اليه على بشر من شىء ؛ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا[٣٤] » ، واذ يقول : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب[٣٥] » ، واذ يقول : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون[٣٦] » ، واذ يقول « ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »[٣٧] .

ومن هذا يظهر أن السفر قد يكون خفيا ومقدسا فى آن واحد عند اليهود . وفى هذا يختلف الاصطلاح اليهودى بعض الاختلاف فى مدلول كلمة « الخفى » عن الاصطلاح المسيحى . فالمسيحيون يطلقون كلمة « الخفى » apocryphe على كل

---

(٣٤) آية ٩١ من سورة الأنعام .

(٣٥) آية ١٥ من سورة المائدة .

(٣٦) آية ٥٩ من سورة البقرة .

(٣٧) آية ١٧٤ من سورة البقرة .

سفر يرون أنه غير مقدس أى غير موحى به ، سواء أكان فى نظرهم صحيحا فى حقائقه وفى نسبته الى مؤلفه ، أم كان فى نظرهم غير صحيح فى حقائقة أو فى نسبته الى مؤلفه أو فى كلتيهما ، كإنجيل برنابا وكتاب أعمال الرسل لبرنابا ؛ فان المسيحيين لا يعترفون بصحة ما جاء فيهما ولا بصحة نسبتهما الى برنابا كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرتين السابعة والثامنة من الفصل الثانى من هذا الكتاب .

—٨—

أسفار « التلمود » وتاريخ تأليفها

تألف من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم المنتمين الى فرقة الفريسيين (أشهر فرق اليهود كما سيأتى الكلام على ذلك فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل) فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما الى ذلك ثلاثة وستون سفرا ألفت فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، وأطلق عليهم اسم « المشناة » بمعنى المثنى أو المكرر أى أنها تكرار وتسجيل للشريعة (Michna=repetition des lois, ou second loi)

ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد وأطلق على هذه الشروح اسم « الجمارا » أى الشرح أو التعليق Gémara= commentaires وألفت هذه الشروح فى فترة طويلة تمتد من القرن الثانى الى أواخر القرن السادس بعد الميلاد . وتألف من المتن والشرح (أى من المشناة والجمارا) ما أطلق عليه اسم « التلمود » بمعنى التعاليم Talmud = enseignements

—٩—

اللغات التى ألفت بها أسفار التلمود والتى ترجمت اليها

ألفت أسفار « المشناة » باللغة العبرية ، وألفت شروحها المسماة « الجمارا » باللغة الآرامية ، فكان يدون المتن بلغته العبرية ثم يشرح بالآرامية .

وتسمى اللغة العبرية التى ألفت بها أسفار المشناة باللغة الربانية ، كما سبقت الاشارة الى ذلك فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وهى تختلف اختلافا غير يسير عن اللغة العبرية التى ألفت بها أسفار العهد القديم . وذلك أن تأليف أسفار المشناة

قد حدث بعد أن انقرضت العبرية من لغة التخاطب لدى بنى اسرائيل وحلت محلها فى ألسنتهم اللغة الآرامية ، واقتصر استخدام العبرية لديهم على ميادين الكتابة وخاصة فى شئون الدين . ومن ثم تمتاز اللغة العبرية التى ألفت بها المشناة بشدة تأثرها باللغة الآرامية ، كما يبدو فيها كثير من مظاهر التأثر ببعض اللغات الارية -الهندية -الأوربية التى احتك اليهود بأهلها احتكاكا سياسيا أو ثقافيا وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية . فمع أن المشناة قد دونت باللغة العبرية فان كثيرا من المفردات التى وردت فيها مقتبس من الآرامية ، وتشتمل كذلك على عدد غير يسير من الكلمات اليونانية واللاتينية والفارسية . ولكن هذا لا ينقص شيئا من قيمتها اللغوية والتاريخية ؛ وذلك لأن ما بها من مفردات أجنبية لا يعد شيئا مذكورا بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية التى لا يوجد بعضها فى العهد القديم نفسه .

وأما شروح المشناة وهى المسماة « الجمارا » وهى التى ألفت باللغة الآرامية ، فقد قامت بها مدرستان :

(احداهما) مدرسة يهود فلسطين . وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة وهى اللهجة نفسها التى استخدمها هؤلاء فى ترجمة العهد القديم كما سبقت الاشارة الى ذلك فى الفقرة السادسة من هذا الفصل . واستغرق لديهم تأليف هذه الشروح فترة طويلة تمتد من القرن الثانى الى أواخر الخامس بعد الميلاد . وإن كان معظمها قد تم فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . وتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه (أى مع أسفار المشناة) ما يعرف بتلمود بيت المقدس .

(والأخرى) مدرسة يهود بابل . وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة الآرامية الجنوبية الشرقية (وهى احدى لهجات اللغة الآرامية) ، وشرعوا فيها منذ أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ولم يفرغوا منها الا فى القرن السادس الميلادى . وتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه ما يعرف بتلمود بابل .

وعن اللغتين العبرية والآرامية ترجم التلمود الى كثير من لغات العالم قديمها وحديثها .

-١٠-

العقيدة فى أسفار اليهود وتطورها

كانت الديانة اليهودية فى أصلها ، كما ينبئنا بذلك القرآن الكريم ، ديانة توحيد تتصف فيها الذات العلية بصفات الوحدة والكمال ، والتجرد من جميع مظاهر النقص ، والمخالفة للحوادث فى كل شيء ، كما هو الشأن فى الدين الإسلامى .

ولكن يظهر من استقراء تاريخ اليهود ، وما ورد بشأنهم فى القرآن الكريم ، وما ورد فى أسفارهم نفسها ، أن فهمهم للذات العلية لم يكن فى أى عصر من عصورهم مطابقا كل المطابقة لهذا الوضع ، وأن فكرة الألوهية لديهم قد اجتازت المراحل الثلاث الآتية :

١ – فالقرآن الكريم يحدثنا أن بنى أسرائيل لم تقو عقولهم فى مبدأ الأمر على فهم الذات العلية الفهم الصحيح ، وظنوا انه من الممكن رؤيتها ، بل علقوا ايمانهم بموسى ورسالته على رؤيتهم لله تعالى . وفى هذا يقول القرآن الكريم : « واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون »[٣٨]

وينبئنا كذلك القرآن الكريم أنهم لم تطمئن نفوسهم إلى عبادة إلاه لا يستطيعون رؤيته ، وطلبوا إلى موسى حينما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ، أن يجعل لهم إلاها يحسونه كما يحس هؤلاء آلهتهم . وفى هذا يقول القرآن الكريم : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلاها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون . ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعلمون . قال أغير الله أبغيكم الاها ، وهو فضلكم على العالمين » .[٣٩]

---

(٣٨) آيتى ٥٥ ، ٥٦ من سورة البقرة .

(٣٩) آيات ١٣٨ – ١٤٠ من سورة الأعراف

وينبئنا كذلك القرآن الكريم ، وتنبئنا أسفارهم نفسها ، أنهم فى أقدم عصورهم قد ارتدوا عن عبادة الاههم أكثر من مرة ، فعبدوا العجل تارة والأصنام تارة أخرى . ومن الغريب أن سفر الخروج (وهو من أقدم أسفار توراتهم المزعومة) قد نسب الى هارون نفسه عليه السلام أنه قد يسر لبنى اسرائيل سبيل الشرك ودفعهم الى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام ، فصنع لهم بيده عجلا من ذهب ليعبدوه من دون الله(٤٠) كما سيأتى بيانه بتفصيل فى الفقرة الثانية عشرة من هذا الفصل .

ويظهر من التأمل فى أقدم سفرين من أسفار توراتهم المزعومة ، وهما سفر التكوين وسفر الخروج ، أن فكرة الألوهية ظلت مضطربة فى عقولهم الى نهاية المرحلة التى تم فيها تدوين هذين السفرين ، أى الى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد (بعد موسى بنحو خمسة قرون) . فتصوروا الله تعالى فى صورة مجسمة ، ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل وأشركوا معه آلهة آخرين ، وارتدوا أحيانا إلى عبادة الأصنام والحيوان . وظهر تصورهم هذا فى كثير مما ورد فى هذين السفرين .

فمن ذلك ما يرويه سفر التكوين فى قصة آدم وحواء واخراجهما من الجنة ، اذ يذكر أن الله تعالى قد نهاهما عن الأكل من شجرة المعرفة ، وخوفهما مضللا ومخفيا عنهما حقيقة هذه الشجرة ، فذكر لهما أن الأكل منها يفضى الى الموت ، مع أن الأكل منها يفضى إلى رقى التفكير وانحسار أغطية الجهل وانبثاق نور المعرفة . ولكن الاله كان يريد ابقاءهما جاهلين حتى لا يشاركاه فى صفة من أخص صفاته . ولما أغرى الشيطان حواء بالأكل من هذه الشجرة وانساق معها زوجها ، أدركا ما كانا يجهلانه من قبل ، فعرفا أنهما مكشوفا السوءتين وأنه لا يليق أن يقابلا ربهما على هذه الصورة . ولما قدم الإله نحوهما مخترقا طرق الجنة ، وسمعا صوته وحركته فى أثناء سيره ، اختبآ حتى لا يراهما عريانين ، وأخذا يخصفان على عورتيهما من ورق الجنة . فناداهما ربهما وأخذ يستجوبهما ، واستنتج من فعلتهما ومن استجوابهما أنه لابد أن يكونا قد أكلا من شجرة المعرفة ، وأن ذلك قد جعلهما يعرفان حقيقة أمرهما ، وأن

---

(٤٠) اصحاح ٣٢ من سفر الخروج .

الانسان قد أصبح بذلك « أحد الآلهة لتمييزه بين الحسن والقبيح » ، وأنه قد أصبح لزاما أن يطرد الانسان من الجنة حتى لا تمتد يده الى شجرة أخرى هى « شجرة الخلد » فيكفل لنفسه أرقى صفات الاله وهو البقاء[٤١] .

وقد عرض القرآن الكريم فى أكثر من سورة لعدة مواقف من قصة آدم وحواء وأكلهما من الشجرة وخروجهما من الجنة ، بدون أن يبدو فى أى موقف من هذه المواقف ما يتعارض مع كمال علم الله وقدرته ومخالفته للحوادث .

ومن ذلك أيضا ما يذكره سفر التكوين من أن لله تعالى أولادا من الذكور ، وأن هولاء الذكور قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللائى كان عددهن قد كثر فى الأرض ، فاتخذوهن خليلات ، وولد لهم منهن نسل امتاز ببسطة كبيرة فى الجسم ، وهم الجبابرة الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان[٤٢] .

ومن ذلك أيضا ما يروية سفر التكوين فى قصة اهلاك قوم لوط وتدمير قريتى « سدوم » و « عمورة » اذ يذكر أن ثلاثة رجال وهم الله وملكان معه قدموا على إبراهيم وهو جالس أمام خيمته ، وأن ابراهيم قد عرف الله من بينهم ورجاه أن يستريحوا عنده قليلا من وعثاء سفرهم ، وقدم اليهم ماء لشربهم وغسل أرجلهم ، وفطائر وعجلا حنيذا لطعامهم ، فانتحى ثلاثتهم تحت ظل شجرة وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم ، وإبراهيم جالس على مقربة منهم . ثم تفقد الالاه زوجه سارة ، وسأله عنها ، وأخذ يبشرها ويبشر ابراهيم بأنه سيمر بهما فى هذا الموعد نفسه من السنة القادمة فيجدهما قد رزقا غلاما زكيا . ثم اشتبك معه ابراهيم فى نقاش وجدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد اهلاكهما بغية أن يثنيه عن ذلك ، لأن بعض أهلها أتقياء ، ولا يصح أن يؤخذ المحسن بذنب المسيء[٤٣] .

وقد ذكر القرآن هذه القصة على حقيقتها ، فبين أن الذين وفدوا على ابراهيم كانوا ملائكة مشكلين فى صورة آدميين ، فظنهم بشرا ، فقدم اليهم طعاما ، فلم تصل

---

(٤١) الاصحاح الثالث من سفر التكوين .

(٤٢) الاصحاح السادس من سفر التكوين فقرات ١ –٥ .

(٤٣) الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين .

أيديهم اليه ، لأن الملائكة لا يأكلون . وفى هذا يقول القرآن الكريم : « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط . . . »[٤٤] .

ومن ذلك أيضا ما يقرره سفر التكوين من أن الله تعالى بعد أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام استراح فى اليوم السابع ، وكان يوم سبت ، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك ، فحرم فيه العمل[٤٥] ، أى أنه كالبشر ، فى حاجة إلى الراحة بعد بذل المجهود فى عمل ما .

وعلى زعمهم هذا يرد الله تعالى فى القرآن الكريم اذ يقول : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »[٤٦] ، أى لم يمسنا تعب حتى نحتاج الى الراحة .

ومن ذلك أيضا ما يذكره سفر التكوين عن يعقوب وأنه لقى الله ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر ، بدون أن يستطيع الله سبيلا الى التغلب على يعقوب . وحينئذ ضرب حق فخذ يعقوب فانخلع . ولما بلغ الوهن من الله مبلغه طلب الى يعقوب أن يخلى سبيله لأنه قد طال أمد المصارعة وطلع الفجر . ولكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه إلا إذا باركه . فقبل الله تعالى شرطه وباركه . وسأله عن اسمه ، فقال يعقوب ، فقال الله لن تسمى بعد الآن يعقوب ، بل تسمى « اسرائيل » لانك كنت قويا على الله[٤٧] (هذا هو أحد معانى كلمة اسرائيل فى العبرية) .

ومن ذلك أيضا ما يقرره سفر الخروج من أن إلاههم يفيد من الضحايا التى تقدم إليه وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها .[٤٨] بل إن بعض فقرات من

---

(٤٤) آيات ٦٩ – ٧٦ من سورة هود .

(٤٥) الفقرات الأولى من الاصحاح الثانى من سفر التكوين .

(٤٦) آية ٣٨ من سورة ق .

(٤٧) فقرات ٢٤ – ٣٢ من اصحاح ٣٢ من سفر التكوين .

(٤٨) انظر مثلا فقرات ٣٨ – ٤٣ من الاصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج ، وخاصة فقرة ٤١ .

هذا السفر لتدل على أن إلاههم كان يطلب اليهم أن يقدموا أولادهم ضحايا محرقة لارضائه والتقرب اليه . فقد ورد فى هذا السفر أن فرعون لم يسمح لبنى اسرائيل بالخروج من مصر ، فأنزل الله نقمته على المصريين ، فكان يهلك أول مولود لكل أبوين من المصريين وأول مولود لكل أنثى من الحيوان فى سائر بلاد مصر . ولما رأى فرعون وقومه ما حل بهم من العذاب استجابوا لرغبة بنى إسرائيل ، وأذنوا لهم بالخروج من مصر . وكان هذا الخروج أكبر حدث فى تاريخهم ، وإليه يرجع الفضل فى تحررهم من الاستعباد وفيما أصابوه من عز وسلطان فيما بعد . ولكى يظل بنو اسرائيل ذاكرين فضل الله عليهم فى هذا الحدث ، فرض عليهم أن يخصصوا للرب أول ماتلده كل أنثى من الانسان والحيوان ، أى أن يقدموه ضحية له . ولكن خفف عنهم فيما يتعلق بأول مولود من الآدميين ، فشرع لهم فداءه بذبح من الضأن . وشرع لهم كذلك هذا الفداء فيما يتعلق بالحيوانات غير مأكولة اللحم[٤٩] .

ويستدل من أقدم أسفارهم كذلك على أنهم كانوا يعتقدون تعدد الآلهة . فكانوا يرون أن ثم الاها خاصا بشعب اسرائيل يختلف عن آلهة الشعوب الأخرى .

٢ – ثم أخذ تصورهم للذات العلية يرقى شيئا فشيئا ، ويتخلص نوعا ما من شوائب النقص والتجسيم ، كما يبدو ذلك فى أحدث أسفار توراتهم المزعومة كأسفار التثنية والعدد واللاويين .

غير أنه قد بقى لديهم الاعتقاد بأن لهم إلاها خاصا بهم ، وهو الاه اسرائيل ، وأنهم هم أولاده وأحباؤه ، وأن لغيرهم من الأمم آلهة أخرى ، وأن الاههم فى صراع مع هذه الآلهة . ولم يتخلص الاههم هذا كل التخلص من صفات الحوادث ، بل ظل عالقا به فى نظرهم بعض هذه الصفات . فمن ذلك أن أحدث أسفار توراتهم المزعومة ، وهو سفر اللاويين يذكر فى أكثر من موضع أن الضحايا المحرقة (وهى التى تحرق أجزاؤها فى المذبح تحت اشراف أحد اللاويين) يرتاح لها الاله ويفيد منها ، وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها ، وأنه يغضب كل الغضب اذا لم

---

(٤٩) فقرات ٢ ، ١١ – ١٥ من اصحاح ١٣ من سفر الخروج .

تقدم اليه أو اذا قدمت اليه فى صورة غير الصورة المقررة فى شريعتهم ، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين أو غير المراعين لمراسم التقديم فيرسل عليهم نارا تحرقهم ، كما فعل مع ولدين من أبناء هرون لم يحسنا تقديم الأضحية (٥٠) . ومن ثم كانت طريقة حرق الأضحية وتصاعد دخانها هى الطريقة المقررة لديهم فى معظم أنواع الأضحية والقرابين ، حتى فى قرابين النبات وما يصنع منه كالفطائر وما اليها (٥١) .

ويرد الله تعالى فى القرآن الكريم على مزاعمهم هذه ، فيقرر أن الله لاينالە شىء من لحوم الأضاحى ولا من دمائها ، وأنه قد شرع الأضحية لتكون مظهرا من مظاهر تقوى الله وامتثال أوامره وشكره على نعمائه التى أسبغها على عباده ، وخاصة على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وفرصة للاحسان والتوسعة والبر بالفقراء والمساكين . وفى هذا يقول الله تعالى : « لن ينال اللة لحومُها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (٥٢) . ويقول فيما يقدم فى الحج من الهدى : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » (٥٣) .

٣ — ويظهر أنه بعد أن قربت عقيدتهم من التوحيد وتنزيه الاله من النقص ، ارتكست مرة أخرى ارتكاسا كبيرا فى العهد الذى ألف فيه التلمود (القرون الستة الأولى بعد الميلاد) .

فأسفار التلمود تظهر اله اسرائيل متصفا بكثير من صفات الحوادث وصفات

---

(٥٠) انظر اصحاحات سفر اللاويين . وقد ورد حادث ابنى هرون فى الاصحاح العاشر من هذا السفر .

(٥١) انظر سفر اللاويين ، وبخاصة الاصحاحات الأول والثانى والسادس والسابع والعاشر . وقد خصصت معظم اصحاحات هذا السفر لبيان وظائف اللاويين ، وهم كهنة بنى اسرائيل وفقهاؤهم . وكانوا يتألفون من نسل لاوى أو ليفى أحد أبناء يعقوب ، وقد تخصص منهم بذلك نسل هارون عليه السلام ، وكان أهم وظائفهم الاشراف على المذابح وتقديم الضحايا والقرابين .

(٥٢) آية ٣٧ من سورة الحج .

(٥٣) آية ٣٨ من سورة الحج .

النقص . ويبدو ذلك على الأخص فيما يذكره التلمود عن جسم الاله وضخامة أعضائه ، وما يرويه عن نشاطه وأعماله فى الليل والنهار ، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بنى اسرائيل ، وما يقرره بصدد تخصيص أيام من كل عام لعبادة اله آخر صغير ، وبصدد حرص الاله على أن تقدم له أضحية من الآدميين.

فقد ذكر العلامة ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » أن سفرا من أسفار التلمود يسمى « سفر توما » قد وصف جبهة خالقهم وعظم مساحتها فقال انها من أعلاها الى أنفه خمسة آلاف ذراع ، وأنه قد جاء فى سفر آخر من أسفار هذا الكتاب يقال له « سادرناشيم » أن فى رأس خالقهم تاجا فيه ألف قنطار من ذهب وفى اصبعه خاتم تضئ منه الشمس والكواكب ، وأن الملك الذى يخدم ذلك التاج اسمه « صندلفون »(٥٤) .

وورد فى بعض أسفار التلمود أن الله يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار فى مذاكرة الشريعة ، والساعات الثلاث الثانية فى شئون الحكم بين الناس ، والساعات الثلاث الثالثة فى تدبير العيش للخلق ، وأما الساعات الثلاث الأخيرة فيقضيها فى اللعب مع الحوت ملك الأسماك ، وهو حيوان كبير جدا يتسع حلقه لسمكة طولها ثلثمائة فرسخ بدون أن تضايقه . وقد رأى الله أن يحرمه من أنثاه حتى لا يتناسلا فيملآ الدنيا وحوشا تهلك من فيها وتأتى على الحرث والنسل . ولهذا حبس الذكر بقوته الالاهية وقتل الأنثى وملحها وحفظها لطعام المؤمنين فى الفردوس . وأما ساعات الليل فيقضيها الالاه فى مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذى يصعد الى السماء كل ليلة ثم يهبط منها الى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية . وقد تغير هذا النظام بعد أن قدر الله هدم الهيكل وتشريد بنى اسرائيل . فقد اعترف الإلاه بخطئه فى هذا الصدد وندم على ما فعله ، وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم . وكان إذا بكى سقطت من عينيه دمعتان فى البحر فيسمع دويهما من فى الآفاق ، وتضطرب المياه وترتجف الأرض ، فتنجم عن ذلك الزلازل . ويزعم التلمود أن الله يردد فى أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على ندمه مما فعل ، فيقول :

---

(٥٤) ابن حزم : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » . صفحتى ١٦٣ ، ١٦٤ من الجزء الأول .

تبا لى أمرت بخراب بيتى واحراق الهيكل وتشريد أولادى . ويقول حينما يسمع الناس يمجدونه : طوبى لمن يمجده الناس وهو مستحق لذلك ، وويل للأب الذى يمجده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك لأنه قد قضى عليهم بالتشريد والشقاء . وذكر العلامة ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » أنه قد جاء فى بعض أسفار التلمود « أن رجلا اسمه اسماعيل كان أثر خراب بيت المقدس سمع الله تعالى يئن كما تئن الحمامة ويبكى وهو يقول : الويل لمن أخرب بيته . وضعضع ركنه ، وهدم قصره وموضع سكينته . ويلى على ما أخربت من بيتى ، ويلى على ما فرقت من بنى وبناتى ، قامتى منكسة حتى أبنى بيتى وأرد إليه بنى وبناتى . فلما شعر الله بوجود إسماعيل بجواره أخذ بثيابه وقال له : أسمعتنى يا ابنى يا اسماعيل ؟ قال لا يارب . فقال له الرب : يا ابنى يا اسماعيل بارك على . فبارك عليه ومضى »[٥٥] .

ويقرر التلمود كذلك أن الله قد تستولى عليه نزوة غضب ، فيقسم ليأتين أعمالا شريرة أو غير عادلة ، ثم يثوب إلى رشده فيتحلل من يمينه ، كما حدث يوم أن غضب على بنى إسرائيل فى الصحراء وأقسم أن يبيدهم ثم رجع عن عزمه وتحلل من يمينه بعد أن انقشعت نزوة غضبه .

ويستدل من أسفار تلمودهم كذلك أنهم كانوا يخصصون عشرة أيام من أول أكتوبر يعبدون فيها ربا آخر غير الاههم ، ويطلقون عليه اسم الرب الصغير . وهذا الرب الصغير هو صندلفون الملك خادم التاج الذى فى رأس معبودهم[٥٦]

وفى هذه المرحلة اعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن لله ، واتخذت بعض فرقهم أحبارهم أربابا من دون الله ، كما يخبر بذلك القرآن الكريم عنهم وعن النصارى ، اذ يقول : « وقالت اليهود عزير ابن الله » (وهو عزرا Esdras)[٥٧] « وقالت

---

(٥٥) المرجع السابق ص١٦٤ من الجزء الأول . عبارة ابن حزم : « قال هذا الكلب والجيفة المنتنة : فباركت عليه ومضيت » .

(٥٦) المرجع السابق ص ١٦٥ من الجزء الأول .

(٥٧) يذكر ابن حزم فى المرجع السابق أن الصدوقية « وهم ينسبون الى رجل يقال له صدوق ، قد انفردوا ، من بين فرق اليهود ، باعتقادهم أن العزيز ابن الله تعالى الله عن ذلك . وكانوا بجهة اليمن » .

النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم » (أى واتخذ النصارى المسيح بن مريم الاها كذلك) « وما أمروا الا ليعبدوا الاها واحدا ، لا إلاه إلا هو ، سبحانه عما يشركون »[٥٨] .

وفى هذه المرحلة كذلك زادت عقائدهم انحرافا ووحشية فيما يتعلق بشئون الأضحية والقرابين . فأسفار تلمودهم تحثهم على ذبح الآدميين من غير بنى اسرائيل وتقديمهم قربانا لالاههم ، ومزج دمائهم بعجين الفطائر المقدسة التى يتناولونها فى أعيادهم وأفراحهم الدينية ، وبخاصة عيد الفصح وعيد استير ومراسم ختان الأطفال ، واستخدام هذه الدماء فى طقوس سحرهم وشعوذتهم . وتزعم هذه الأسفار أن ذلك من أفضل ما يتقرب به اليهودى إلى ربه وما تقر به عين إلاههم .

أما عيد الفصح (فصح اى الفسح أو الخروج أو المرور) فيقيمه اليهود فى اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية وهو شهر نيسان (ويقع ذلك فى شهر أبريل) ويمتد احتفالتهم به سبعة أيام بعد يوم العيد نفسه ، فينتهى احتفالهم به فى اليوم الحادى والعشرين من شهر نيسان ، وهو اليوم الذى تذكر توراتهم أن الله أغرق فيه فرعون وجنده ونجى موسى وبنى إسرائيل ويسرلهم الخروج من مصر . ويحتفلون فيه بنجاة موسى وبنى اسرائيل من فرعون وقومه وخروجهم من مصر[٥٩] .

وأما عيد استير أو البوريم فيقع فى شهر فبراير أو شهر مارس من كل سنة . ويحتفل فيه اليهود بذكرى نجاتهم من مذبحة تذكر أسفار العهد القديم أنها كانت تهددهم وأنهم قد نجوا منها بفضل امرأة اسرائيلية تسمى استير . فتروى هذه الأسفار أن استير كانت زوجة لأحد ملوك الفرس . وكان لهذا الملك وزير يسمى هامان . وقد أخذ هذا الوزير يعمل على استصدار أمر من الملك بقتل اليهود . فأحبطت استير كيده ودبرت مؤامرة قضت عليه وعلى أنصاره ومكنت اليهود من ذبح عشرات ألوف من

---

(٥٨) آيتى ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

(٥٩) انظر فقرات ٥ — ٩ من اصحاح ٢٣ من سفر اللاويين .

بنى قومه كان منهم كثير من الأطفال والنساء . وقد خصص لهذه القصة سفر من أسفار العهد القديم سمى باسم هذه المرأة[٦٠] . وكان ذلك بمساعدة يهودى اسمه مردخاى . ولذلك يسمى هذا السفر « سفر إستير ومردخاى » .

وأما مراسم ختان الأطفال فهى مراسم معقدة يقيمها اليهود بمناسبة ختان أبنائهم . والختان من أهم شعائر دينهم ، بل انهم ليعتبرونه أكبر مميز بين اليهودى وغير اليهودى[٦١] .

وأما طقوس السحر والشعوذة لدى اليهود ، فقد أفرد لها التلمود أبوابا كثيرة ، بل لقد اعترفت أسفار العهد القديم نفسها بمزاولة اليهود لها[٦٢] .

وتختار الذبائح فى عيد الفصح من الأطفال الذين لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزيد عنها قليلا . ويمزج دم الضحية بعجين الفطائر قبل تجفيفه أو بعد تجفيفه . وتختار ذبائح عيد البوريم أو استير من الشباب البالغين أو من الكبار . ويؤخذ دم الضحية ويجفف على صورة حبوب تمزج بعجين الفطائر . وأما ضحايا أفراح الختان فيظهر أنها كانت تختار فى الغالب من الأطفال وكذلك ضحايا السحر والشعوذة ، بدليل ما ورد فى صددها فى سفر أشعياء اذ يقول فى اصحاحه السابع والخمسين مخاطبا بنى اسرائيل : « أقبلوا يا بنى الساحرة . . ألستم أنتم الذين يذبحون الأطفال فى الوديان وتحت شقوق الصخور ؟ » أى لاتمام عمليات السحر التى ورثتموها عن آبائكم وأمهاتكم .

ويستنزف اليهود دم ضحاياهم هذه بطرائق كثيرة : فأحيانا يتم ذلك عن طريق مايسمى « البرميل الابرى » وهو برميل مثبت على جوانبه من الداخل ابر حادة توضع فيه الضحية حية فتغرز هذه الابر فى جسمها ، وتسيل الدماء ببطء من مختلف أعضائها ، وتظل كذلك فى عذاب أليم حتى تفيض روحها ، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل فى أكبر نشوة بما يبعثه هذا المنظر فى نفوسهم من لذة

---

(٦٠) انظر فقرة ٣ من هذا الفصل .

(٦١) انظر مثلا الاصحاح الخامس من سفر التثنية .

(٦٢) انظر مثلا اصحاح ٥٧ من سفر أشعياء .

وسرور . وينحدر الدم إلى قاع البرميل ، ثم يصب فى اناء معد لجمعه . وأحيانا تقطع شرايين الضحية فى عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها ، وأحيانا تذبح الضحية كما تذبح الشاة ويؤخذ دمها .

وبعد أن يتجمع الدم بطريقة من الطرق السابقة أو غيرها تسلم الى الحاخام أو الكاهن أو الساحر الذى يقوم باستخدامها فى اعداد الفطائر المقدسة أو فى عمليات السحر .

وتدل شواهد كثيرة على أنهم لم ينفكوا منذ عهد بعيد ، ولا ينفكون فى الوقت الحاضر ، يزاولون هذه الجرائم فى كثير من بلاد العالم باسم دينهم ووصايا تلمودهم .

وقد عنى الأستاذ أرنولد ليز بجمع أهم ما ثبت اقتراف اليهود له من هذه الجرائم فى مختلف بلاد أوربا وآسيا منذ منتصف القرن الثانى عشر الى نهاية العقد الثالث من القرن العشرين ، ودونها فى كتاب نشره سنة ١٩٣٨ تحت عنوان « طقوس الاغتيال اليهودية » Arnold Leese: Jewish Ritual Murder

فذكر نحو ستين حادثا ثبتت الجريمة فى كثير منها بأدلة قاطعة وباعتراف المتهمين أنفسهم أمام القضاء ، وحكم فى بعضها على المجرمين بالاعدام ونفذ فيهم الحكم .

وقد نقل صديقنا المرحوم الأستاذ عبد الله التل فى كتابه القيم « خطر اليهودية على الاسلام والمسيحية » عن الأستاذ ليز هذه الحوادث بتفاصيلها وعلق عليها بأن هذه الجرائم التى عرفت فى التاريخ ووصلت إلى المحاكم وجرى فيها تحقيق ليست شيئا مذكورا اذا قيست بالجرائم التى ارتكبها اليهود من هذا القبيل ولم يصل علمها إلى أحد ولم تصل إلى المحاكم « وأن آلاف الأطفال وغير الأطفال الذين يختفون فى معظم أنحاء العالم هم فى الغالب ضحايا الطقوس الدينية اليهودية ، ولابد أن تكون دماؤهم قد استقرت فى بطون اليهود مع الفطائر القذرة التى يتناولونها فى أعيادهم » .

ومن أشنع هذه الحوادث حادثة دمشق سنة ١٨٤٠ التى راح ضحيتها الأب توما وخادمه ابراهيم عمار . وقد قص قصتها الأستاذ عبد الله التل فى كتابه السابق ذكره اذ يقول : « الأب فرنسوا أنطون توما قسيس ايطالى انتقل الى دمشق للخدمة فى أديرتها . وعمل طوال ثلاثة وثلاثين سنة باخلاص وغيرة وحنان خادما لجميع

الطوائف ، لا يفرق بين دين ودين ، يعالج المرضى مجانا ، ويطعِّم الناس ضد الأوبئة . وعرف فى دمشق مثالا للنبل والخلق الكريم . وفى يوم الأربعاء ٢ من ذى الحجة ١٢٥٥ (هـ) الموافق ٥ من فبراير ١٨٤٠م طلب الأب توما لحارة اليهود لتطعيم طفل ضد الجدرى . وفى عودته مر بصديقه اليهودى داود هرارى . فاستدعاه إلى داره فلبى الدعوة . وكان فى الدار شقيقان لداود هررارى وعمه واثنان من حاخامات اليهود . ثم انقض هؤلاء جميعا على الأب توما وقيدوه من قدميه ويديه ووضعوا منديلا على فمه ، وبعد غروب الشمس استدعوا حلاقا يهوديا اسمه سليمان وأمروه بذبح القسيس فخاف وتردد . فما كان من داود هرارى صديق الأب توما إلا أن تناول السكين بنفسه ونحر الضحية . ثم جاء أخوه هارون هرارى وأتم عملية الذبح . وجمعوا الدم فى وعاء ثم نقلوه إلى قارورة كبيرة وسلموه الى حاخام باشا يعقوب العنتابى الذى تمت العملية بناء على أوامره ، نظرا لحاجته إلى الدم لاستعماله فى فطائر عيد البوريم (استير) الذى كان يقع فى ذلك العام فى الرابع عشر من فبراير . وقطعوا جثة الضحية اربا اربا ، ووضعوها فى أكياس قذفوا بها فى مصرف قريب من دارهم . ولم يكتفوا بالقسيس ، بل انتظروا مجىء خادمه ابراهيم عمار للبحث عنه ، فأدخلوه الى منزل اليهودى يحيى ماهر فارحى وذبحوه وأخذوا دمه الى الحاخام باشا » .

« وفى أثناء التحقيق قدم جميع المتهمين فى تلك المذبحة اعترافات كاملة مذهلة . وعثرت السلطات على جثتى القسيس وخادمه » .

« وقد نشرت التحقيقات والمحاكمة فى عدة كتب أوربية . ومازالت محفوظة فى سجلات وزارة العدل بدمشق . ونشرت بالتفصيل فى كتاب للدكتور روهلنج(ترجمه الى العربية الدكتور يوسف نصر الله سنة ١٨٩٩ ميلادية تحت عنوان : « الكنز المرصود فى قواعد التلمود »).

بل لقد شهد شاهد من أهلهم ، ومؤرخ من أقدم مؤرخيهم وأشهرهم وهو المؤرخ اليهودى يوسيفوس (فلافيوس يوسيفوس المولود سنة ٣٧ ميلادية والمتوفى سنة ٩٥) بأنهم ما كانوا يقتصرون على شرب دماء ضحاياهم ومزجها بعجين فطائرهم ،

بل كانوا يأكلون كذلك قطعا من لحومهم . فقد ذكر هذا المؤرخ أن ملك اليونان أنطونيوس الرابع الذى تبوأ العرش سنة ١٧٤ قبل الميلاد وفتح مدينة أورشليم ، حينما دخل هذه المدينة وجد فى بعض أنحاء الهيكل رجلا يونانيا كان اليهود قد حبسوه فى هذا المكان ، وكانوا يقدمون له أحسن الأطعمة ليسمن ويزكو لحمه ، حتى يأتى يوم يخرجون به الى احدى الغابات ، فيذبحونه ويشربون دمه ويأكلون شيئا من لحمه ، ويحرقون باقيه ، وينثرون رماده فى الصحراء ، وان ذلك كان تطبيقا لوصية دينية لا تسعهم مخالفتها ، وأنهم كانوا يكررون فعلتهم هذه كل عام مع واحد من اليونان ، وأن هذا السجين قد استرحم الملك أن ينقذه فأنقذه .

* * *

هذا ، وقد كانت الديانة اليهودية فى أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما ينبئ بذلك القرآن الكريم . ولكن أسفار العهد القديم التى بين أيدينا الآن قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه .

ومن ثم لا نجد من بين فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر على الوجه الذى يقرره الإسلام . ففرقة الصادوقيين[٦٣] تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاة واثابة المتقين إنما يحصلان فى حياتهم . وفرقة الفريسيين[٦٤] تعتقد أن الصالحين من الأموات سينشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى فى آخر الزمن ، لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعا فى ديانة موسى ، أى أن بعث هؤلاء سيحصل فى الحياة الدنيا . فمهما يكن من خلاف بين الفرقتين فانهما تتفقان فى انكار اليوم الآخر على النحو الذى يقرره الاسلام .

وقد ورد فى بعض فقرات التلمود ذكر للجنة والنار ، ولكن فى صورة مضطربة أدنى الى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة . فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوى اليها الأرواح الزكية وأنه لا يدخلها الا اليهود ، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة التى تقدم ذكرها[٦٥] ، كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم ولحم

---

(٦٣) انظر تعليق ٥٧ . والفقرة ١٣ من هذا الفصل .

(٦٤) انظر الفقرة ١٣ من هذا الفصل .

(٦٥) انظر رقم ٣ من فقرة ١٠ من هذا الفصل .

أوز سمين ، وأن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله فى اليوم الثانى من الأيام التى خلق فيها العالم ، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين ومن اليهم . — ويظهر أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب فى عقيدتها الى ظاهر ما يقرره التلمود فى هذه الفقرات ، فكانت تفسرها بمدلولها الحقيقى لا بمدلولها المجازى . ويظهر أن القرآن الكريم يشير الى هذه الفرق ويرد عليها اذ يقول : « وقالوا لن يدخل الجنة لا من كان هودا أو نصارى » (أى وقالت بعض فرق اليهود لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا وقالت بعض فرق النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا) « تلك أمانيهم ! قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .(٦٦)

وفى هذه الأمور جميعا دليل آخر على ان أسفارهم هذه كلها من صنع أيديهم وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التى أنزلها الله تعالى على موسى نورا وهدىً للناس .

* * *

هذا وينبئنا القرآن الكريم أنه كان من بينهم فى كل عصر ، حتى فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ، بعض أفراد عصمهم الله من زيغ العقيدة فآمنوا بما جاء فى التوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى ، وأتيح لهم الاحتفاظ بجميع أسفارها أو ببعضها نقية طاهرة خالية من التحريف . وفى هذا يقول الله تعالى : « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، ان الله سريع الحساب »(٦٧) ، ويقول : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسررون » ،(٦٨) ويقول : « ليسوا سواءً من أهل

---

(٦٦) آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٦٧) آية ١٩٩ من سورة آل عمران .

(٦٨) آية ١٢١ من سورة البقرة .

الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين»
(آيتى ١١٣، ١١٤ من آل عمران)

—١١—

الشريعة فى أسفار اليهود
وقيامها على التفرقة العنصرية وعدم وحدتها واضطرابها

تضمنت أسفار العهد القديم والتلمود تنظيما كاملا لشئون الدين والدنيا معا . فلم تغادر أى ناحية من نواحى العبادات وشئون المعاملات والسياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء والتربية والأخلاق والحرب والعلاقات الدولية وواجبات الفرد نحو نفسه وأسرته ووطنه . . . وما الى ذلك ، لم تغادر أية ناحية من هذه النواحى وغيرها الا وضعت لها حدودا وقواعد وبينت ما ينبغى أن تكون عليه ، وما يجب اتخاذه فى حالة الخروج عليها ، حتى شئون الأكل والشرب ، والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجه ، والحيض والنفاس والزراعة والحصاد واستخدام الأنعام فى الحرث . غير أنه يلاحظ فى هذه الشريعة كثيرا من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل :

(أولا) أما انحرافها فمن أهم مظاهره أنها تقوم على التفرقة العنصرية . وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وتنظر الى ما عداه من الشعوب نظرتها الى شعوب وضيعة فى سلم الانسانية ، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس ، فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفى كثير من شئون الاجتماع . فمن ذلك مثلا أن الإسرائليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضا وأن يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ؛ على حين أنه مباح للاسرائيليين ، بل واجب عليهم ، غزو الشعوب الأخرى ، وخاصة شعب كنعان ، وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما أن « يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف » فلا يبقوا على أحد منهم ، ويسترقّوا جميع نسائها وأطفالها ، ويستولوا على جميع ما فيها من مال وعقار ومتاع ، أو ينهبوه نهبا حسب تعبير أسفارهم[٦٩] . — ومن ذلك أن الاسرائيلى اذا

(٦٩) فقرتى ١٣ ، ١٤ من اصحاح ٢٠ من سفر التثنية .

باع نفسه بيعا اختياريا لأخيه الاسرائيلى فى حاله عوزه وحاجته الى المال ، فان رقه يكون موقوتا بأجل يرجع بعده الى حريته ؛ على حين أن الرق المضروب على غير الاسرائيلى يظل أبد الآبدين[٧٠] . — ومن ذلك أنه ما دان يجوز للإسرائيلى أن يتعامل بالربا مع أخيه الاسرائيلى ولا أن يأخذ منه رهنا بدينه ، واذا أخذ منه فى الصباح رهنا من المتاع الذى لا يستغنى عنه فى حياته اليومية كالرحا وما اليها وجب أن يرده اليه فى المساء ؛ أما غير الاسرائيلى فمباح للاسرائيلى أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش[٧١] .

بل ان أسفارهم تقرر أن شعب كنعان قد كتب عليه فى الأزل أن يكون رقيقا لبنى اسرائيل وأنه لا ينبغى أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما فى الحياة غير هذه الوظيفة ، فان تمردوا عليها أو طمحوا الى الحرية وجب على بنى اسرائيل أن يردوهم إليها بحد السيف . وتقرر أسفارهم أن هذا الوضع قد فرض عليهم لدعوة دعاها نوح على كنعان ونسله . وذلك أن نوحا — حسب ما يزعمه سفر التكوين — قد شرب مرة نبيذ العنب الذى غرس كرمه بيده بعد الطوفان بدون أن يعلم خاصته المسكرة ، ففقد وعيه وانكشفت سوأته ، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه ، وحمل الخبر الى أخويه سام ويافث . ولكن هذين كانا أكثر أدبا منه ، فحملا رداء وسارا به مستظهرين أباهما حتى لا يقع نظرهما على عورته ، وسترا به ما انكشف من جسمه . فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من موقف أولاده حياله ، لعن كنعان بن حام ودعا على نسله أن يكونوا عبيدًا لعبيد أولاد سام ويافث[٧٢] .

ومن مظاهر انحرافها كذلك أن بعض أسفارهم تقر كثيرا من أقبح أنواع الفحشاء . فقد ورد فى تلمودهم أن الولد اذا زنا بأمه الأرملة لا يقام عليه الحد ولا يلام ، بل ينبغى له أن يستمر معها على هذا الوضع ، حتى بعد زواجه ، رعاية لما

---

(٧٠) فقرات ١٠ ، ٣٩ — ٤٧ ، اصحاح ٢٥ من سفر اللاويين ؛ فقرة ١٢ اصحاح ١٥ من التثنية ، فقرات ٢ ، ٧ — ١١ اصحاح ٢١ من الخروج .

(٧١) فقرة ٣ اصحاح ١٥ وفقرة ٢٠ اصحاح ٢٣ من التثنية .

(٧٢) فقرات ٢٠ — ٢٩ من اصحاح ٩ من سفر التكوين .

وجب لها عليه من حق ؛ وأن الوالد الذى زنا بابنته بعد وفاة زوجها لا يقام عليه الحد كذلك ولا يعاقب ولا يلام ، لأن لعمله هذا ما يبرره وهو أنه يجنبه تبذير ماله مع العاهرات الأجنبيات[٧٣] .

(ثانيا) وأما عدم وحدتها فذلك أن أحكام أسفارها يتضارب بعضها مع بعض فى كثير من الشئون . فقد يقرر سفر فى حادث ما حكما ويجئ سفر آخر فيقرر فى الحادث نفسه حكما آخر . فمن ذلك مثلا أن سفرى الخروج والتثنية يقرران أن الاسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعا اختياريا لأخيه الاسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته الى المال لا يدوم رقه الا ست سنين[٧٤] ، على حين أن سفر اللاويين يقرر أن رقه لا ينتهى الا بحلول اليوبيل الاسرائيلى (وهو العيد الذى يجىء كل خمسين سنة) أيا كانت المدة التى قضاها فى الرق قبل ذلك[٧٥] ؛ فيمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة الا يوما أو أياما اذا استرق عقب العيد الخمسينى مباشرة . — ومن ذلك أيضا أن توراتهم المزعومة تبيح للإسرائيلى ، رجلا كان أو امرأة ، أن يبيع نفسه لأخيه الاسرائيلى فى الحالة السابق ذكرها ؛ وفى ذلك يقول سفر التثنية : « اذا باعك نفسه أحد من اخوانك ، سواء أكان رجلا أم امرأة ، فانه يخدمك ست سنين . . . »[٧٦] ، على حين أن أسفار التلمود لا تجيز ذلك الا للرجل وحده[٧٧] .

وفى هذين المظهرين اللذين تتسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم ، وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التى كانوا يسيرون عليها فى العصر الذى ألف فيه ، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى ؛ فإن كتابا من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض : « أفلا يتدبرون القرآن ؛ ولو كان من عند غير الله لوجدوا

---

(٧٣) من مقال لعمر مفتى زاده فى عدد فبراير ١٩٦٥ من مجلة الاعتصام .

(٧٤) فقرة ٢ اصحاح ٢١ من الخروج ، وفقرة ٢ اصحاح ١٥ من التثنية .

(٧٥) فقرة ٤٠ اصحاح ٢٥ من اللاويين .

(٧٦) فقرة ١٢ اصحاح ١٥ من سفر التثنية .

(٧٧) V. Mekhilta sur Exod XXI, 7; Maimonide I. C. I, 2; ~~Zadok Kahn: l'Esclavage dans la Bible et le Talmud~~

فيه اختلافا كثيرا »[٧٨] ؛ وان شريعة من عند الله لا تقر التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم ، أن الله عليم خبير »[٧٩] ؛ « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا أبيض على أحمر ، إلا بالتقوى »[٨٠] .

(ثالثا) وبجانب هذين المظهرين يلاحظ أن بعض شرائع العهد القديم تحمل فى طيها دليلا على اضطراب الحقائق فى أذهان محرريها ، واختلاطها بعضها ببعض ، ونسيانهم حظا كبيرا منها ، وغفلتهم عن أصولها . فمن ذلك مثلا ما يذكره سفر التثنية فى صدد القسامة اذ يقول : « اذا وجد فى بلد من البلاد التى منحكم ربكم السيطرة عليها رجل قتيل ملقاة جثته فى وسط حقل ، ولم يمكن الاهتداء إلى معرفة قاتله ، فإن كبراءكم وقضاتكم يذهبون فيقيسون المسافات بين الجثة والبلاد القريبة منها ، وعندما يصلون إلى تعيين أقرب هذه البلاد مسافة إلى الجثة يستدعون كبراءهم ويطلبون إليهم أن يحضروا عجلة (بقرة صغيرة) لم تستخدم بعد فى عمل ما ولم تحمل بعد سكة المحراث (أى بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ؛ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث » ، ويذهبوا بها إلى جدول لا تجف مياهه وفى منطقة غير ذات زرع ولا بذور ملقاة فى الأرض ، وينحروها من قفاها (مؤخرة عنقها) فى هذا الجدول . . . وحينئذ يتقدم المشرفون على الضحايا من اللاويين (قبيلة اللاويين هم أبناء لاوى أو ليفى أحد أبناء يعقوب كما تقدمت الاشارة الى ذلك) وهم الذين اختارهم الرب لخدمته ولنشر البركة والرحمة باسمه ، وهم وحدهم الذين يحكمون فى قضايا الجنايات والجروح ، فيطلبون إلى كبراء هذه المدينة أن يغسلوا أيديهم فوق العجلة التى نحرت من قفاها فى الجدول ويقسمون أن أيديهم لم ترق دم القتيل وأن

---

(٧٨) أية ٨٢ من سورة النساء .

(٧٩) أية ١٣ من سورة الحجرات .

(٨٠) حديث شريف من خطبته عليه السلام فى حجة الوداع .

أعينهم لم تره وهو يراق (أى يحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا) . . . وبذلك لا يحتمل بنو إسرائيل تبعة هذا الدم . . . »[٨١] .

ويلاحظ أن الشريعة الاسلامية تقرر كذلك أنه إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله أجريت القسامة على أهل البلدة التي وجدت فى طرقها أو بالقرب منها ، وأنه إذا وجدت جثته بين بلدين أجريت القسامة على أقربهما مسافة من مكانة جثته . والقسامة فى الاسلام أن يستحلف ولى الدم خمسين رجلا يتخيرهم من أهل البلدة فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا ، فحينئذ يسقط القصاص ، ولكن تجب الدية على أهل البلدة جميعا ، يدفعونها متضامنين لأسرته[٨٢] .

فإذا استعرضنا فى ضوء هذه الحقائق ، ما ذكره سفر التثنية عن اجراءات القسامة ووازنا بينه وبين ما تقرره الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد ، يظهر لنا ما يلى :

١ – يتفق سفر التثنية مع الشريعة الاسلامية فى اجراء القسامة على أقرب بلدة إلى جثة القتيل وفى اختيار طائفة من أهل البلد ليحلفوا أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا حتى يسقط عنهم القصاص . – واتفاق سفر التثنية مع الشريعة الاسلامية فى هذه الأمور يجعلنا نرجح أن محررى هذا السفر قد استمدوا هذه الأحكام فى جملتها من توراتهم الصحيحة ، وأن الله تعالى قد شرع للمسلمين فى صددها ما سبق أن شرع مثله أو قريبا منه لليهود ، أى أنها من الأمور المشتركة بين الشريعتين والتى ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم إذ يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ...»[٨٣] .

٢ – ولكننا نجد فى سفر التثنية بجانب الأمور السابق ذكرها اجراء غريبا قد أُقحم أقحاما على اجراءات القسامة ، وهو الخاص بالعجلة التى يحضرها كبراء البلد

(٨١) فقرات ١ – ٩ من اصحاح ٢١ من التثنية .

(٨٢) انظر تفاصيل أحكام القسامة فى كتب الفقه الاسلامى وفى كتابنا عن ا المسئولية والجزاء » الطبعة الثالثة ، صفحتى ٧٢ ، ٧٣ وما ذكرناه هو مذهب أبى حنيفة .

(٨٣) آية ١٣ من سورة الشورى .

وينحرونها من قفاها فى جدول ، ويغسلون أيديهم فوقها مقسمين أنهم لم يقتلوا القتيل ولم يعلموا له قاتلا . ويزيد من غرابة هذا الاجراء أنه لا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التى يريد أهل البلد أن يقرروها وهى براءتهم من دم القتيل ، لأن غسل أيديهم فى جدول ملوث بدماء العجلة التى نحروها بأيديهم وصب الماء فوق هذه العجلة كل ذلك لا يصلح أن يكون رمزا لبراءتهم من جريمة القتل ، بل إنه لخليق أن يكون رمزا لاقترافهم إياها .

٣ — وقد ورد لهذه البقرة ذكر فى القرآن ، ولكن فى صورة أخرى وفى حادثة قتل خاصة فى عهد موسى لم يعلم فاعلها ، وكانت البقرة عنصرا من معجزة أظهرها الله على يديه . وبيان ذلك ما ذكره الله تعالى فى سورة البقرة إذ يقول : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ؛ قالوا اتتخذنا هزوا ؟! قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؛ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ؛ فافعلوا ما تؤمرون .قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؛ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؛ إن البقر تشابه علينا ؛ وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها ؛ قالوا الآن جئت بالحق ؛ فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفسا فادرأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها ؛ كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » (آيات ٦٧ — ٧٣ من سورة البقرة) .

وأشهر تفسير من تفاسير هذه الأيات وأصحها جميعا أنه قد وقعت فى عهد موسى عليه السلام حادثة قتل لم يعلم فاعلها ، فطلب بنو اسرائيل إلى موسى أن يدعو ربه أن ينبئهم بمن ارتكب هذا الجرم . فقال لهم موسى أن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . فعجبوا لذلك اذ لم تظهر لهم علاقة بين ذبح البقرة والكشف عن القاتل ، وظنوا أن موسى يهزأ بهم . ولكن موسى بين لهم أن هذا هو ما أمر الله به لاظهار الحق فى هذا الحادث . فأخذوا يستفسرون منه عن سن البقرة التى ينبغى أن يذبحوها وعن لونها وعن عملها . فلما شرح لهم ذلك كله بوحى من الله بحثوا حتى وجدوا بقرة تتوافر

فيها هذه الصفات جميعا فذبحوها . وأوحى الله إلى موسى أن يضربوا جثة القتيل بجزء من هذه البقرة ، فضربوها به ، فأحياه الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله ، ثم مات ثانيا . فكان فى ذلك معجزة لموسى من جهة ، وبيان حسى من جهة أخرى لقدرة الله تعالى على احياء الموتى وهو الأمر الذى كان يرتاب فيه بنو اسرائيل . ولذلك يختم الله تعالى هذه القصة بقوله : «كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون» . وفيه كذلك إشارة إلى أن بعث الله تعالى الحياة فى ميت لا يتوقف على سبب من الأسباب التى تدركها عقولهم ، وإنما أمر الله إذا أراد ذلك أن يقول له كن فيكون ، فيحدث بدون سبب ما أو يجيء إعقب أمر لا يتصور العقل أن يكون سببا له ؛ وذلك أن العقل لا يتصور أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة ميت آخر يمكن أن يكون سببا لبعث الحياة فيه .

٤ – ويلاحظ أن أوصاف البقرة التى ذكرها الله فى هذه المعجزة تتفق فى جملتها مع أوصاف العجلة التى ذكرها سفر التثنية فى اجراءات القسامة ؛ وأن ذبح البقرة التى يذكرها القرآن كان فى حادث قتل معين لم يعلم مقترفه ، وذبح العجلة التى يذكرها سفر التثنية يجب اجراؤه ، بحسب نصوصه ، كلما وجد قتيل لم يعرف قاتله .

٥ – فيظهر أن الأمر قد اختلط على محررى سفر التثنية فخلطوا بين ما جاء فى التوراة الصحيحة أو فى أثر آخر من آثارهم خاصا بالمعجزة التى حدثت على يد موسى ، وما جاء فيها خاصا باجراءات القسامة العادية ، وجعلوا ذبح العجلة جزءاً من هذه الاجراءات ، مع أنه غريب عنها كل الغرابة ، ولا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التى يراد تقريرها ؛ بل إنه لخليق أن يكون رمزا لنقيضها كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق [٨٤] .

---

(٨٤) فطن من قبلنا المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» إلى وجود الشبه بين قصة البقرة فى القرآن وأحكام القسامة فى سفر التثنية ، ولكنه حاول التوفيق بينهما فى صورة غريبة ، فجعل الآيات الواردة فى القرآن مشتملة على قصتين : قصة ذبح البقرة فى حالة وجود قتيل فى بلد غير اسرائيلى ، وجعلها اشارة الى أحكام القسامة فى سفر التثنية ؛ والأخرى قصة قتيل فى بلد اسرائيلى اتهم فيه القوم بعضهم بعضا ، فأمرهم الله أن يضربوا المتهم بعضو من أعضاء القتيل («اضربوه ببعضها» أى ببعض الجثة) . – وهذا تفسير غريب لا يتفق مع سياق القرآن ولا مع ما فهمه الصحابة من الآيات ولا مع ما قاله المفسرون فى صددها . – هذا إلى أنه

وصدق الله العظيم إذ يقول فى صدد اليهود « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به »[٨٥] .

= يحاول أن يطوع آيات القرآن حتى يجعلها متفقة مع ما جاء فى سفر التثنية ناظرا إلى ما جاء فى هذا السفر على أنه صحيح وأنه الأصل فى الموضوع ، مع أنه ظاهر فيه الخلط والتخبط والاضطراب .

ولعل هذا وأشباهه من الأمور الواردة فى هذا الكتاب هى التى دعت اللجنة التى ألفها المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين الأسبق لفحص هذا الكتاب بعد أن وصلت اليه شكاوى كثيرة واعتراضات فى صدد ما ورد فيه الى أن تذكر فى تقريرها : « انها لا ترى تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم لاسباب أهمها أن مؤلفه تعسف فى التأويل وخرج الآيات القرآنية تخريجا بعيدا ، ان لم يكن باطلا ، فخالف بذلك اجماع المفسرين ، ولم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحا . وهو مع ذلك يتصرف فيما ينقل من أقوال ، وينكر بعض الأحاديث الصحيحة ليحكم عقله ، ويجعل التوراة والانجيل مهيمنين على القرآن » .

هذا وقد ورد كذلك فى سفر العدد (فقرات ١ – ١١ من اصحاح ١٩ من سفر العدد) ذكر لبقرة صهباء صحيحة لاشية فيها ولم يعل عليها نير ووجوب ذبحها وحرقها ووضع رمادها فى ماء ليكون ماء استغفار . – ولكن لا علاقة بين هذه البقرة وشئون القسامة .

(٨٥) آية ١٣ من سورة المائدة .

- ١٢ -

القصص فى أسفار اليهود
والفرق بينه وبين قصص القرآن الكريم

عرضت أسفار اليهود لتاريخ العالم من يوم نشأته إلى قبيل بعثة المسيح ، فتكلمت باجمال على خلق السماوات والأرض وخلق آدم وحواء وتاريخهما فى الجنة وبعد هبوطهما منها وما حدث لنسلهما بعد ذلك ، وقصة نوح والطوفان وقصة أولاده الثلاثة سام وحام ويافث ، وعرضت بشىء من التفصيل لتاريخ نسل سام ، وهم الذين ينتمى اليهم بنــو إسرائيل ، وخاصة تاريخ ابراهيم واسحاق ويعقوب أو اسرائيل ثم تناولت بتفصيل كبير تاريخ بنى إسرائيل فى مختلف مراحل حياتهم فى مصر وسيناء وبعد استقرارهم فى الأرض المقدسة ، وتاريخ من تولى شئونهم الدينية والسياسية من قضاة وملوك ولاويين وأحبار وربانيين ، ومن بعث فيهم من رسل وأنبياء ، وعلاقاتهم بالشعوب الأخرى ، وما جرى بينهم وبين هذه الشعوب من اشتباكات وحروب أو موادة ووفاق ... وهلم جرا . - وقد استغرق هذا القصص أكبر قسم من أسفار العهد القديم وقسما غير يسير من أسفار التلمود نفسها .

وقد عرض القرآن لكثير من القصص التى ورد ذكرها فى هذه الأسفار غير أن أسفار اليهود قد تناولت كل قصة من هذه القصص فى صورة مسلسلة كاملة الأجزاء مترابطة الحوادث كما تفعل كتب التاريخ ، وتناولتها لغرض تاريخى بحت ؛ على حين أن القرآن يكتفى بذكر مواقف من هذه القصص ، ولا يذكرها للتاريخ فى ذاته ، وإنما يذكرها على الأخص للعظة والذكرى ، ويذكرها بحسب المناسبات . فقد يذكر موقفا من قصة ما لمناسبة خاصة ثم يذكر موقفا آخر من القصة نفسها فى سورة أخرى لمناسبة أخرى ، وموقفا ثالثا من القصة نفسها فى سورة ثالثة ... وهكذا . وقد يعرض لعدة مواقف من قصة واحدة فى سورة واحدة ويفصل بين كل موقف وآخر بفواصل طويلة أو قصيرة . وقد يكرر الموقف نفسه فى عدة سور لتكرر المناسبة ؛

ولكن فى لوحات بيانية مختلفة فى صياغتها وألوان مناظرها ومتسقة مع ما يكتنفها من قبلها ومن بعدها من آى الذكر الحكيم .

هذا ، وقد انتاب القصص فى أسفار اليهود تحريف كبير عن الوضع الصحيح الذى ورد فى القرآن . ويبدو تحريفها هذا فى مواطن كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلى :

١ – أن الذات العلية تبدو فى أسفار توراتهم المزعومة ، وبخاصة فى القديم منها كسفر التكوين ، وفى بعض أسفار التلمود فى صورة مجسمة متصفة بكثير من صفات الحوادث ، بل بكثير من صفات النقص ، وغير مختلفة اختلافا كبيرا عن الخلق فى طبيعتها ومسلكها ، على النحو الذى بيناه فى الفقرة العاشرة من هذا الفصل .

٢ – أن بعض من يذكر لنا القرآن أنهم رسل أو أنبياء تذكرهم أسفار اليهود على أنهم مجرد آباء قدامى Patriarches كابراهيم واسحاق ويعقوب أو على أنهم مجرد ملوك كداود وسليمان ، وإن كانت تجيز اتصال الله بهؤلاء وأولئك بطريق مباشر واتصالهم به .

٣ – أن أسفارهم تنسب لبعض الأنبياء ، أو لبعض من تسميهم آباء لبنى اسرائيل أو ملوكا لدولهم ، أعمالا قبيحة تتنافى مع وضعهم الدينى والاجتماعى ، بل تتعارض مع الخلق الكريم فى ذاته ، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس .

فمن ذلك مثلا ما تقصه توراتهم المزعومة عن إبراهيم حينما هاجر هو وزوجه سارة إلى مصر على أثر ما أصاب بلاده من جدب ومجاعة ، اذ تذكر أن ابراهيم قال لزوجته وهما فى طريقهما إلى مصر إنها امرأة جميلة وإن المصريين لابد أن يفتتنوا بها ، واذا علموا أنها متزوجة فسيقتلون زوجها لتخلص لهم بعد ذلك ،واتفق معها على أن يتظاهرا بأنها أخته حتى تسلم له حياته ، بل يناله حينئذ من المصريين خير كثير . ولما وصلا إلى مصر ، ووقع نظر طائفة من كبار رجال الحاشية الملكية على هذه المرأة الجميلة وعلموا من ابراهيم أنها ليست متزوجة وأنها أخته ، وأنهوا أوصافها إلى فرعون ، استدعاها إلى قصره واتخذها من نسائه ، وبالغ فى إكرام إبراهيم والحفاوة به والاحسان إليه من أجل ذلك ، ووهب له قطعانا « من الغنم والثيران والحمير » وعددا من العبيد والاماء . ولكن أصيب الملك وحاشيته عقب ذلك بوباء مما تصاب

به الجاعة عادة إذا ارتكبت فيهم فاحشة من هذا القبيل . فاستدعى الملك ابراهيم وأنبه تأنيبا شديدا لكذبه فى قرابة سارة منه وما ترتب على كذبه هذا من معاملته لها كاحدى نسائه مع أنها فى عصمة رجل آخر ، وما أصابه هو وقومه من جراء ذلك من وباء ، ثم أصدر أوامره بطرده هو وامرأته من بلاده . – ولكن تحقق لابراهيم ما كان يبغيه من عافية ومال : فقد سلمت له حياته ؛ وسمح له فرعون بأن يحمل معه جميع ما سبق أن وهبه له من أنعام وعبيد واماء[٨٦] . – وقد كرر ابراهيم فعلته هذه – حسب ما يزعمه سفر التكوين – حينما هاجر إلى منطقة جيرار ، وكاد أبو ملك Abimelec حاكم جيرار يرتكب الاثم مع سارة لولا أن أظهره الله فى المنام على حقيقتها وأنها امرأة ابراهيم لا أخته ، فأحضره وعاتبه على كذبه ، ونفحه كذلك بهبة من النعاج والثيران والعبيد والاماء[٨٧] . – فكأنما كان ابراهيم يتاجر بامرأته هذه متنقلا بها من بلد إلى بلد .

ومن ذلك أيضا ما تقصه توراتهم المزعومة عن لوط وابنتيه ، اذ تذكر أنه لم ينج من أهل قريتى سودوم وعمورة اللتين دمرهما الله تعالى لما كان يرتكبه أهلها من اتيان الذكران الا لوط وابنتاه ، وقد أقام ثلاثتهم عقب ذلك فى غار فى جبل مرتفع ، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما : « ان أبانا قد أصبح شيخا كبيرا وليس فى هذا المكان القفر رجال يتصلون بنا على النحو الذى يفعله ذكور الناس مع اناثهم . وإذا بقى الأمر على هذه الحال فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا . وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة هى أن نسقى أبانا خمرا حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتى منه بذرية تخلد نسله » وانفذتا ما اتفقتا عليه . وقضت معه الكبرى الليلة الأولى والصغرى الليلة التالية ، وواقع لوط كلتيهما ، وهو فى نشوة سكره ، فحملتا منه ، وجاءت الكبرى بغلام اسمته مؤاب ، وجاءت الصغرى بغلام أسمته عمون ، ومن هذين الغلامين تفرع شعبان كبيران هما شعب المؤابيين وشعب العمونيين[٨٨] .

---

(٨٦) فقرات ١٠ –٢٠ من الاصحاح ١٢ من سفر التكوين

(٨٧) اصحاح ٢٠ من سفر التكوين .

(٨٨) فقرات ٣٠ – ٣٩ من الاصحاح ١٩ من سفر التكوين .

ومن ذلك أيضا ما يقصه السفر الثانى من سفرى صموئيل عن داود عليه السلام اذ يذكر أن داود كان يمشى فى صباح يوم على سطح قصره الملكى ، فوقع بصره فى المنزل المجاور له على امرأة مفرطة الجمال وهى تستحم متجردة من جميع ثيابها ، فشغف بها حبا ، وسأل عنها ، فأخبر أنها زوجة أوريا الحثى Urie le Héthien احد الجنود المرسلين فى حملة حربية تحت قيادة يؤاب Joab، فبعث داود فى طلبها ، فجئ بها إليه . وبعد أن قضى منها وطره عادت إلى منزلها وقد حملت منه ، فعملت على أن يقف داود على خبر حملها منه . فاستدعى داود زوجها من الجيش وأخذ يسأله عن حالة الحملة وقائدها وأعمالها ، ونفحه ببعض الهدايا وطلب إليه أن يذهب إلى منزله ليستريح هذه الليلة . وكان داود يرمى من وراء ذلك أن يقرب الرجل زوجته ، فينسب الحمل إليه ؛ ولا تعلق بداود أية شبهة . ولكن الرجل أبت عليه شهامته ووطنيته أن ينعم بالراحةواللذة فى بيته بينما جيش بلاده مشتبك فى معركة مع الأعداء . فلم يذهب إلى بيته وإنما قضى ليلته نائما مع خدم القصر الملكى . ولما علم داود بذلك استدعاه مرة ثانية وسأله عن سبب احجامه عن الذهاب لبيته ، فأجابه بأن نفسه لم تطاوعه بأن ينام فى بيته وجيشه يحارب فى خارج بلاده . فطلب إليه أن يبقى يوما آخر ، ودعاه إلى الطعام والشراب ، وحرص على أن يسكره حتى يفقد وعيه ويذهب إلى زوجه . ولكن أوريا لم يفقد رشده . فقضى ليلته هذه كما قضى ليلته السابقة نائما مع خدم داود فى القصر الملكى . ولما ضاق داود به ذرعا ، ولم تفلح معه حيلته ، أمر برجوعه إلى الجبهة ، وأرسل إلى يؤاب قائد جيشه أن يضع أوريا فى أخطر منطقة فى ميدان القتال وأن يتخلى عنه حتى يقتل . فصدع يؤاب بالأمر ، وقتل أوريا فى الميدان . وحينئذ أتيح لداود أن يضم زوجته إلى نسائه بعد أن انقضى حدادها على زوجها ، ووضعت حملها وهى فى عصمة داود ، وخفى بذلك على جميع الناس ما ارتكبه داود من جرائم خسيسة ، اذ زنى بامرأة متزوجة وعمل على قتل زوجها الشجاع وهو يذود عن حياض بلاده ، مع أنه كانت له زوجات وجوار كثيرات . فأرسل الله إليه ناثان Nathan وقص عليه قصة رجلين يملك أحدهما قطعانا كبيرة العدد من الأبقار والنعاج ، بينما لا يملك الآخر إلا نعجة واحدة . وفى أحد الأيام قدم ضيف على الغنى ، فمد يده إلى نعجة الفقير واغتصبها منه وذبحها

لضيفه . فغضب داود من فعلة هذا الغنى ؛ وقال لناثان إن هذا الرجل يستحق الموت . فقال له ناثان إنك أنت نفسك هذا الرجل . وأخذ يؤنبه ويتوعده بما سيحيق به وبأهله من عذاب ونكال . فاعترف داود بذنبه ، واستغفر ربه ، وتاب إليه ، فغفر له ... إلى آخر ما ورد فى هذا السفر[89] .

والقصة على هذا الوضع محض افتراء ولا يتصور صدور وقائعها من رجل عادى ذى خلق ، فضلا عن نبى كريم .

ومن ثم أخطأ بعض المفسرين خطأ كبيرا ، إذ فسروا ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة ص[90] عن داود والخصمين اللذين اختصما إليه على النحو الذى ورد فى سفر صموئيل ، مع أن العبارات التى ذكرت بها القصة فى القرآن الكريم لا تدل صراحة على شئ من ذلك . ولذلك كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » ، يقصد بذلك أن من يتحدث هذا الحديث فإنه يرتكب جريمة القذف . وحد القذف العادى فى الاسلام ثمانون جلدة ؛ ولكن إذا تناول القذف نبيا كريما كان مرتكبه خليقا بأن يضاعف له هذا الحد ضعفين .

بل لقد أورد سفر الخروج ، وهو أحد أسفار توراتهم المزعومة ، قصة عبادة بنى اسرائيل للعجل الذهبى فى صورة غريبة تدل على أن محررى هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة ، ولا يرجون لهم وقارا ، ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم أية نقيصة ، حتى خيانة الرسالة نفسها التى بعثوا من أجلها ، ودفع قومهم إلى الشرك بالله . فقد نسب هذا السفر لهارون نفسه عليه السلام أنه يسر لبنى اسرائيل سبيل الشرك ، ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام ، فصنع لهم بيديه فى سيناء عجلا من ذهب ليعبدوه من دون الله . فذكر فى اصحاحه الثانى والثلاثين أن موسى لما غادر قومه لتلقى الألواح من ربه ، وطال أمد غيابه عنهم ، طلبوا إلى هارون أن يصنع لهم الأها تدركه أبصارهم ، لأنهم لا يعلمون ما انتهى إليه أمر موسى ، ولا

---

(٨٩) الاصحاحين ١١ ، ١٢ من السفر الثانى من سفرى صموئيل .

(٩٠) آيات ٢١ – ٢٥ من سورة ص .

يدركون الالاه الذى يحدثهم عنه . فطلب إليهم هارون أن يحضروا له جميع أقراط الذهب المدلاة من آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم ؛ فجمعوا هذا الحلى ، فصهرها بنفسه ، وصنع منها عجلا ذهبا ليتخذوه إلاها ، فخر بنو إسرائيل سجدًا له ، وقدموا له القرابين ، وقالوا هذا اله اسرائيل الذى أخرجهم من مصر وأنقذهم من شقائها[٩١] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى قصة هذا العجل إشارة مجملة فى عدة آيات منها قوله تعالى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا . وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ، قل بئس ما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »[٩٢] . وذكر القرآن تفاصيل هذه القصة فى سورتى الأعراف وطه مبينا كذب ما نسبه محررو سفر الخروج إلى هارون فقرر أن الذى قام بصنع هذا العجل وأغراهم بعبادته وفتنهم عن دينهم فى أثناء غياب موسى لتلقى الألواح رجل سامرى ، أى منسوب إلى طائفة يقال لها السامرة ، وهى جماعة من غير بنى اسرائيل اعتنقت اليهودية وامتزجت بالاسرائيليين ، وكان الاسرائيليون ينظرون إلى أفرادها على أنهم أحط منهم كثيرا قدرا ومنزلة ، أو يرجع أصله إلى أقليم السامرة ، وهو أحد أقاليم فلسطين ، وأن هارون لم يأل جهدا فى نهيهم عن ضلالهم والعمل على رجعهم إلى دينهم الحق ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ، وأن كل ما أخذه موسى على هارون أنه لم يتركهم ويلحق به ليبلغه ما انتهوا إليه ، أو لم يقاتلهم بمن عسى أن يكون معه ، وأن هارون قد برر موقفه بأنه خشى إذا فعل ذلك أن يفرق بين بنى اسرائيل ويضرب بعضهم ببعض ، وذلك إذ يقول فى سورة طه : « فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار » (أى من الحلى التى أشار إليها فى الآية السابقة ، وهى الحلى التى أهداها اليهم المصريون قبل خروجهم والتى اختلسوها منهم ، وقد صهرها السامرى على صورة عجل بداخل فمه تجاويف إذا مر فيها الهواء أحدث صوتا كصوت

---

(٩١) اصحاح ٣٢ من سفر الخروج .

(٩٢) آيتى ٩٢ ، ٩٣ من سورة البقرة .

الخوار) « فقالوا هذا الاهكم والاه موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هرون ما منعك إذا رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ ! » (أى أن تتركهم وتلحق بى لتنهى إلى أمرهم ، أو أن تقاتلهم بمن عسى أن يكون معك) « أفعصيت أمرى ؟ ! قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، أنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » .[٩٣] واذ يقول فى سورة الأعراف : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ؟ ! اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ! ؟ ، وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفرلى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين . ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين »[٩٤] .

وأما قصة طلبهم من نبيهم أن يجعل لهم الاها يحسونه ، والتى ذكرها سفر الخروج فى حادث العجل زاعما أنهم قد طلبوا ذلك إلى هرون ، وأن هارون قد أذعن لرغبتهم الآثمة ، فقد ذكرها القرآن الكريم على وجهها الصحيح ، فقرر أن الطلب كان موجها إلى موسى نفسه لا إلى هرون ، وأن موسى قد نهرهم وبين لهم ضلالهم وسخافة تفكيرهم وسوء فهمهم لذات الالاه ، وذلك اذ يقول : « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا الاها كما لهم

---

(٩٣) آيات ٨٣ – ٩٨ من سورة طه .

(٩٤) آيات ١٤٨ – ١٥٢ من سورة الأعراف .

آلهة ، قال انكم قوم تجهلون . ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم الاها ، وهو فضلكم على العالمين »[٩٥] .

ومن الشناعات التى ترويها كتبهم المقدسة المزعومة ما تذكره عن سليمان وأنه فى أواخر ملكه قد ترك عبادة الله وانحرف إلى عبادة الأوثان وبنى لها معبدا فسقط فى نظر الله[٩٦] . ويرد القرآن الكريم على هذا الإفك إذ يقول : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ...» (آية : ١٠٢من البقرة) .

٤ – أن التحريف قد يتناول قصة ما لتبرير وضع اجتماعى أو سياسى ظالم سار عليه بنو اسرائيل فى مرحلة ما من مراحل تاريخهم .

فمن ذلك أن قصة نوح مع ابنه التى حدثنا عنها القرآن اذ يقول : « ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل : يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج ، فكان من المغرقين »[٩٧] ، قد حرفها سفر التكوين تحريفا كبيرا إذ يذكر أن حام بن نوح قد رأى أباه وهو سكران مكشوف العورة ، فسخر منه ، فلما أفاق نوح من سكره ، وعلم ما كان من ابنه حام ، دعا على ذريته ، وهم الكنعانيون ، بأن يكونوا عبيدا لعبيد ابناء ولديه الآخرين سام ويافث[٩٨] . ويقصد الذين حرفوا هذه القصة إلى هذا الوضع الغريب ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق[٩٩] ، أن يبرروا الأوضاع الشاذة الظالمة التى كان يسير عليها بنو اسرائيل حيال الكنعانيين اذ يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وأطفالهم ويتخذون منهم عبيدا واماء ، زاعمين أنهم بذلك

---

(٩٥) آيات ١٣٨ – ١٤٠ من سورة الأعراف .

(٩٦) اصحاح ١١ ، من السفر الأول من سفرى الملوك .

(٩٧) آيتى ٤٢ ، ٤٣ من سورة هود .

(٩٨) فقرات ٢٠ – ٢٩ ، اصحاح ٩ من سفر التكوين . وقد ذكرنا هذه القصة بتفصيل فى فقرة ١١ من هذا الفصل لبيان أن شريعتهم تقوم على التفرقة العنصرية .

(٩٩) التعليق السابق نفسه .

يحققون دعوة نوح عليهم ويرجعونهم إلى الوضع الذى كتب عليهم فى الأزل أن يكونوا عليه .

٥ – وفى كثير من قصصهم الواردة فى عهدهم القديم بوجه عام ، وفى توراتهم المزعومة بوجه خاص ، من المتناقضات والمفارقات والغفلة عن حقائق سبق ايرادها والخطأ فى جمع الأرقام وفى الحساب ... ما يجل عن الحصر وما يضيف إلى الأدلة السابقة أدلة جديدة قاطعة بأن أسفارهم هذه من صنع أيديهم . وسنقتصر فيما يلى على ايراد بصعة أمثلة تنطوى على نماذج مختلفات من الكذب والتناقض فى أقاصيص أسفارهم (١٠٠) .

فمن ذلك أن سفر التكوين يذكر فى الفقرة الثانية من اصحاحه الرابع أن هابيل بن آدم كان راعى غنم ، ثم يذكر بعد ذلك فى الفقرتين التاسعة عشرة والعشرين من الاصحاح نفسه أن يابال Jabal وهو فى العقب السابع بعد هابيل (فهو يابال بن لامك بن متوشائيل بن محويائيل بن عيراد بن حنوك بن قابيل بن آدم)
Jabal, Lemec, Metuchaêl, Mehujael, Irad, Henoc, Cain, Adam
كان أول من رعى الغنم وسكن الخيام .

ومن ذلك أن سفر التكوين قد ذكر فى الفقرة الثالثة من اصحاحة السادس أن الله تعالى فى عصر نوح قد غضب على النوع الانسانى فجعل أعمار أفراده لا تتجاوز ١٢٠ مائة وعشرين سنة . ثم ذكر بعد ذلك فى الاصحاح الحادى عشر من السفر نفسه أن سام بن نوح عاش ٦٠٠ سنة ، وأرفكشاد بن سام ٤٣٨ سنة ، وشالح بن أرفكشاد ٤٣٣ سنة ، وعابر بن شالح ٤٦٤ سنة ، وفالج بن عابر ٢٣٩ سنة ، ورعو بن فالج ٢٣٩ سنة ، وسروج بن رعو ٢٣٠ سنة ، وناحور بن سروج ١٤٨ سنة ، وتارح بن ناحور ٢٥٠ سنة .

---

(١٠٠) أفرد العلامة ابن حزم فى الجزء الأول من كتابه القيم « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » فصلا خاصا شغل حيزا كبيرا (من صفحة ٩٣ الى صفحة ١٦٦ من أكبر قطع) لضرب أمثلة لهذه الأمور ، وجعل عنوانه : « فصل فى مناقضات ظاهرة وأكاذيب واضحة فى الكتاب الذى يسميه اليهود التوراة وفى سائر كتبهم يتعين بذلك تحريفها وانها غير الذى أنزله الله عز وجل » .

ومن ذلك أن سفر التكوين قد ذكر فى الفقرة الثانية والثلاثين من الاصحاح الخامس أن نوحا حينما بلغ خمسمائة سنة ولد له سام . وذكر فى الفقرة السادسة من الاصحاح السابع أن الطوفان قد حدث حينما بلغ سام سن المائة . ثم ذكر بعد ذلك فى الفقرة العاشرة من الاصحاح الحادى عشر من السفر نفسه أن سام حينما بلغ مائة سنة ولد له أرفخشاد وأن ذلك كان بعد سنتين من الطوفان . أى أن الطوفان قد حدث وسن سام ثمان وتسعين سنة لا مائة سنة كما ذكر من قبل .

ومن ذلك أيضا أن سفر التكوين قد ذكر فى الفقرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من الاصحاح التاسع عشر أن الملكين اللذين أرسلا لتدمير قريتى سدوم وعمورة قالا للوط أخرج بنيك وبناتك (المتزوجات وغير المتزوجات ، وكان منهم اثنتان غير متزوجتين) وأصهارك (أزواج بناته) وكل من لك فى المدينة لأننا سندمرها . ثم ذكر فى الفقرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الاصحاح نفسه أنه لما طلع الفجر كان الملكان يستعجلان لوطا قائلين له قم خذ امرأتك وبنتيك (غير المتزوجتين) واخرج بهن لأننا سنهلك المدينة . ولما توانى أمسك الملكان بيد امرأته وبنتيه (غير المتزوجتين) وأخرجوهن . ويتبين من ذلك أن الملكين قد تناقضا فى أمرهما المكلفين به من قبل الله تعالى . فقد طلبا أولا إلى لوط أن يخرج بنيه وأصهاره وجميع بناته المتزوجات منهن وغير المتزوجات وجميع أهله ، ولكنهما فى المرة الثانية لم يطلبا إليه أن يخرج إلا امرأته وبنتيه غير المتزوجتين . ويظهر من ذلك أيضا أن بنيه وبناته المتزوجات وأزواجهن قد هلكوا مع من هلك فى المدينة . وهذا يتناقض مع ما ذكره الملكان من قبل من أنها مكلفان الابقاء على هؤلاء .

ومن ذلك أن سفر التكوين قد ذكر فى فقراته المحصورة بين التاسعة عشرة والسابعة والعشرين (٢٠ — ٢٦) من اصحاحه الخامس والعشرين أن رفقة Rebecca زوجة اسحاق كانت عاقرا ، فدعا اسحاق ربه أن يهبه منها أولادا ، فاستجاب له ربه ، وحملت امرأته ، وتزاحم فى بطنها ولدان ، فمضت لتلتمس علما من الله عز وجل عما فى بطنها ، فقال لها الله فى بطنك أمتان تتفرعان عن توأمين أحدهما أكبر من الآخر (أى يولد قبل الآخر) وسيصبح كبيرهما مسخرا لصغيرهما .

فلما كملت أيام حملها خرج من بطنها توأمان : خرج أولهما (وهو الأكبر) أحمر مكسو بفروة شعر ، ولذلك سموه عيسو Esai ؛ ثم خرج أخوه (وهو الأصغر) ويده ممسكة بعقب عيسو ، ولذلك سمى يعقوب . — ثم جاء بعد ذلك فى الاصحاحين الثانى والثلاثين والثالث والثلاثين من السفر نفسه أن يعقوب (وهو الأصغر) هو الذى كان خاضعا لعيسو (الأكبر) وأنه سجد على الأرض سبع مرات اجلالا لعيسو ، ولم يخاطبه الا بالعبودية والتذلل المفرط ، وأن جميع أولاد يعقوب (ما عدا بنيامين الذى لم يكن قد ولد بعد) قد سجدوا لعمهم عيسو ، وأن يعقوب أهدى لعيسو تقربا إليه والتماسا لرضاه خمسمائة وثمانين رأسا من ضأن ومعز وبقر وابل وحمير ، وأن يعقوب رآها منه عظيمة اذ قبلها منه ، وأن بنى عيسو لم يخضعوا قط لبنى يعقوب بل ان بنى يعقوب هم الذين خضعوا لبنى عيسو فى أثناء مرحلة كبيرة من مراحل تاريخهم .

ومن ذلك أيضا أن سفر التكوين قد ذكر فى اصحاحه السابع والعشرين أن اسحاق (وكان قد كف بصره) قال لابنه عيسو يابنى قد شخت ولا أعلم يوم موتى ، فأخرج وصد لى صيدا ، واصنع لى منه طعاما كما أحب ، وائتنى به لآكله كى أباركك قبل أن أموت ، وأن رفقة امرأة اسحاق وأم عيسو ويعقوب قد أرادت أن يختص ابنها يعقوب بهذه البركة ، فدبرت حيلة لتحقيق غرضها ، فأمرت يعقوب أن يأخذ جديين وتصنع هى منهما طعاما لاسحق ، ويأتى بهما يعقوب إلى اسحق أبيه فيقدمهما إليه ليباركه ، وأن يعقوب قال لأمه اننى أخشى أن يكشف أبى هذه الخديعة حينما يتحسس جسمى فيجدنى أجرد ، مع أن جسم أخى عيسو مكسو بفروة شعر ، فأجلب على نفسى لعنة لا بركة ، فقالت له سأدبر حيلة لذلك ، فأخذت ثياب عيسو ابنها الأكبر وألبستها يعقوب ، ووضعت جلود الجديين على يديه وعلى حلقه ، حتى إذا تحسس اسحق جسمه ظن أنه جسم عيسو . وأعطت يعقوب الطعام ، فجاء به إلى أبيه ، وقال يا أبى ، فقال له اسحق من أنت ياولدى ؟ قال يعقوب أنا ابنك عيسو بكرك (أى أكبر ولديك) صنعت جميع ما قلت لى ، فاجلس وكل من صيدى وبارك على ! فقال اسحق تقدم لأتحسس جسمك ولأتبين هل أنت عيسو

أم لا . فتقدم يعقوب فجسه اسحق ، وقال الصوت صوت يعقوب واليدان يدا عيسو . وقال هل انت ابنى عيسو ؟ فقال نعم أنا ابنك عيسو . فبارك عليه وقال له فى بركته : تخدمك الأمم ، وتخضع لك الشعوب ، وتكون مولى اخوتك ، ويسجد لك بنو أمك .

وحدث بعد ذلك أن عيسو أتى بالطعام إلى اسحق ، فعرف اسحق الخديعة التى عملها ابنه يعقوب ، ولكن اعتذر لعيسو ، وقال له قد خدعنى أخوك يعقوب واختص ببركتى ، وصيرته سيدا لك ، وجعلت جميع اخوته عبيدا له ولأولاده ، فماذا عسى أن أعمله لك بعد ذلك ؟ ! فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة يا أبى ، باركنى أنا أيضا . ورفع عيسو صوته وبكى . فباركه اسحق قائلا : سيكون مسكنك فى بلد مجرد من دسم الأرض وغيث السماء ، وستعيش مما يفيئه عليك سيفك . تُستعبَد لاخوتك ، ولكنك ستجمح وتكسر نير الاستعباد عن عنقك .

وقد بين العلامة ابن حزم ، فى نقد لاذع وتحليل رائع ، ما فى هذا النص من أكاذيب وخرافات ومتناقضات اذ يقول[١٠١] .

« وفى هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات » .

« فأول ذلك اطلاقهم على نبى الله يعقوب عليه السلام أنه خدع أباه وغشه . وهذا مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء . فكيف من نبى مع أبيه وهو نبى أيضا ؟ ! هذه سوءات مضاعفات » .

« وثانية ، وهى اخبارهم أن بركة يعقوب إنما كانت مسروقة بغش وخديعة وتخابث . وحاش للأنبياء عليهم السلام من هذا . ولعمرى انها لطريقة اليهود ، فما تلقى منهم إلا الخبيث الخادع والا الشاذ » .

« وثالثة ، وهى اخبارهم أن الله تعالى أجرى حكمه وأعطى نعمته على طريق الغش والخديعة ، وحاش لله من هذا » .

---

(١٠١) انظر الجزء الأول من « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم صفحة ١٠٨ وتوابعها . وانظر كذلك أمثلة كثيرة من هذا القبيل فى كتاب « اظهار الحق » لرحمة الله الهندى ، فقد وقف على ذلك نحو ٣٥ صفحة (٥٦ - ٧٦ ، ١٢٣ - ١٢٨ طبعة مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء) .

« ورابعة ، وهى أنه لا يشك أحد فى أن اسحق عليه السلام اذ بارك يعقوب حينما خدعه ، كما زعم النذل الذى كتب لهم هذا الهوس ، إنما قصد بتلك البركة عيسو ، وأنه دعا لعيسو لا ليعقوب . فأى منفعة للخديعة ها هنا ، لو كان لهم عقل . وما أشبه هذه القضية بحمق الغالية من الرافضة القائلين ان الله تعالى بعث جبريل إلى على ، فأخطأ وأتى إلى محمد . (فأصبح محمد نبيا مع أن عليا كان هو المقصود عند الله) . وهكذا بارك اسحق على عيسو فأخطأت البركة ومضت إلى يعقوب . فعلى كلتا الطائفتين لعنة الله » .

« فهذه وجوه الخبث والغش فى هذه القضية »

« وأما وجوه الكذب فكثيرة جدا . من ذلك نسبتهم الكذب إلى يعقوب عليه السلام ، وهو نبى الله تعالى ورسوله ، فى أربعة مواضع » :

« أولها وثانيها قوله لأبيه اسحق أنا ابنك عيسو وبكرك . فهاتان كذبتان فى نسق ، لأنه لم يكن ابنه عيسو ولا كان بكره » .

« وثالثها ورابعها قوله لأبيه صنعت جميع ما قلت لى فاجلس وكل من صيدى . فهاتان كذبتان فى نسق ، لأنه لم يكن قال له شيئا ولا أطعمه من صيده » .

« وكذبات أخرى هى : بطلان بركة اسحق اذ قال ليعقوب تخدمك الأمة وتخضع لك الشعوب وتكون مولى اخوتك ، ويسجد لك بنو أمك . وبطلان قوله لعيسو تُستعبَد لأخيك » .

« فهذه كذبات متواليات . فوالله ما خدمت الأمم يعقوب ولا بنيه بعده ، ولا خضعت لهم الشعوب ، ولا كانوا موالى اخوتهم ، ولا سجد لهم ولا له بنو أمه . بل ان بنى اسرائيل هم الذين خدموا الأمم فى كل بلدة وخضعوا للشعوب قديما وحديثا فى أيام دولتهم وبعدها . فإن قالوا سيكون ذلك . قلنا لهم :

قد حصلتم على الصغار يقينا والأمانى بضائع استحقاء

لاسيما مع تقصى جميع الآماد التى كانوا ينبئون بأنها لا تنقضى حتى يرجع أمرهم » .

« واعلموا أن كل أمة أدبرت فإنهم ينتظرون العودة ويمنون أنفسهم بالمراجعة بمثل ما تمنى به اسرائيل نفسها ، ويذكرون فى ذلك مواعيد كمواعيدهم . فأمل كأمل ولا فرق . كانتظار مجوس الفرس بهرام هماوند راكب البقرة ، وانتظار الروافض للمهدى ...

تمن يلـذ المستهام بمثلـه وان كان لا يغنى فتيلا ولا يجدى
وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنه غيظ الأسير على القد »

« وأما قوله تكون مولى اخوتك ويسجد لك بنو أمك ، فلعمرى لقد صح ضد ذلك جهارا ، اذ فى توراتهم أن يعقوب كان راعيا لأنعام ابن عمه لابان بن ناحور بن لامك وخادمه عشرين سنة ، وأنه بعد ذلك سجد هو وجميع ولده – حاشا من لم يكن خلق منهم بعد – لأخيه عيسو مرارا كثيرة » .

« وما سجد عيسو فقط ليعقوب ، ولا ملك قط أحد من بنى يعقوب بنى عيسو . وقد تعبد يعقوب لعيسو فى جميع خطابه له ، وما تعبد قط عيسو ليعقوب . وقد سأل عيسو يعقوب عن أولاده فقال له يعقوب هم أصاغر منَّ الله بهم على عبدك . وقد طلب يعقوب رضاء عيسو وقال له : انى نظرت إلى وجهك كمن نظر إلى بهجة الله ، فارض عنى ، واقبل ما أهديت إليك . فما نرى عيسو وبنيه إلا موالى يعقوب وبنيه » .

« فما نرى تلك البركة كانت الا معكوسة . ونعوذ بالله من الخذلان . ولكن حق البركة المسروقة المأخوذة بالخبث فى زعمهم أن تخرج معكوسة منكوسة » .

* * *

ومن عجب أنه مع هذا الخلاف الجوهرى الكبير بين قصص القرآن وقصص أسفارهم وتوراتهم المزعومة ، وبين نور الحق فيما جاء به الكتاب الكريم وظلمات الباطل والزيف والتحريف فيما جاءت به أسفارهم ، لا ينفك كثير من المستشرقين ومن يدور فى فلكهم يزعمون أن محمدا قد نقل قصصه من قصص اليهود : « كبرت

كلمة تخرج من أفواههم ، أن يقولون إلا كذبا »(١٠٢) . — وصدق الله العظيم اذ يقول لرسوله : « وكلا نقص عليه من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءت فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »(١٠٣) ، واذ يقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١٠٤) .

— ١٣ —

فرق اليهود

نظرة مجملة فى فرق اليهود

انقسم اليهود فى مختلف مراحل تاريخهم إلى فرق دينية (١٠٥) تدعى كل فرقة منها أنها أمثل طريقة وأشد تمسكا بأصول الدين اليهودى وروحه من الفرق الأخرى . وأهم موضوع يدور حوله اختلاف هذه الفرق هو الاعتراف بأسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى Traditions orales وأسفار التلمود أو انكار بعض هذه الأصول ورفض الأخذ بما جاء فيها من أحكام وتعاليم . وقد انقرض معظم فرقهم ولم يبق منها فى الوقت الحاضر الا القليل . وترجع أهم فرقهم الباقية والمنقرضة إلى خمس فرق ، وهى فرقة الفريسيين ، وفرقة الصدوقيين ، وفرقة السامريين ، وفرقة الحسديين ، وفرقة القرائين .

وسنعقد فيما يلى لكل فرقة من هذه الفرق فقرة على حدة .

بالصلب فى زعمهم(١٠٨) .

---

(١٠٢) آخر آية ٥ من سورة الكهف .

(١٠٣) آية ١٢٠ من سورة هود .

(١٠٤) آية ١١١ من سورة يوسف .

(١٠٥) انقسم اليهود كذلك من الناحية السياسية الى عدة فرق ودويلات ، ومن الناحية القبلية الى عدة قبائل وعشائر وبطون ، ولكننا سنقصر حديثنا فى هذه الفقرة على فرقهم الدينية ، لأنها هى وحدها التى تتصل بموضوع كتابنا .

فرقة الفريسيين Pharisien

وهى أهم فرق اليهود وأكثرها عددا فى ماضى تاريخهم وحاضره . وترجع أهم مميزات هذه الفرقة من ناحية العقيدة إلى الأمرين الآتيين :

١ – أنها تعترف بجميع أسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى وأسفار التلمود . بل إن فقهاءهم (وهم الذين يطلق عليهم اسم الربانيين) هم الذين ألفوا أسفار التلمود كما سبق بيان ذلك[١٠٦] .

٢ – أنها تؤمن بالبعث ، فتعتقد أن الصالحين من الأموات سينتشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح المنتظر الذى يزعمون أنه سيأتى لينقذ الناس ويدخلهم فى ديانه موسى[١٠٧] .

وتذكر أناجيل المسيحيين أن الفريسيين كانوا من ألد أعداء المسيح عيسى بن مريم ، وأنهم هم الذين حاولوا أن يظهروه بمظهر الداعى إلى شق عصا الطاعة على قيصر ، وكانوا على رأس المتأمرين به ، ولم ينفكوا يدبرون له الكيد حتى حكم عليه بالصلب فى زعمهم[١٠٨] .

وتتضمن هذه الأناجيل فصولا طويلة يوجه فيها المسيح عليه السلام تقريعا شديدا إلى الفريسيين ويكشف عن كفرهم ونفاقهم والتوائهم وتحريفهم لتوراتهم وابتداعهم تعاليم وأحكامًا فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان[١٠٩] .

ولا نعلم على وجه اليقين متى تكونت هذه الفرقة . ومن أشهر ما قيل فى هذا

---

(١٠٦) انظر أول فقرة ٨ من هذا الفصل .

(١٠٧) انظر الصفحتين الأخيرتين من فقرة ١٠ من هذا الفصل .

(١٠٨) انظر مثلا انجيل متى ، الاصحاح الثانى والعشرين والاصحاحات التالية له ، الى آخر هذا الانجيل .

(١٠٩) انظر مثلا الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى .

الصدد ما ذكره المؤرخ اليهودى يوسفيس Flavius Josephus [(١١٠)] من أنها تكونت فى عهد يوناثان Jonathan الذى كان صديقا حميما لداود عليه السلام .

وكلمة الفريسيين تفيد فى أصلها معنى المعتزلة أو المنعزلين . ولا يعرف بالضبط متى أطلق عليهم هذا اللقب ، ومن الذى لقبهم به . ويظهر أن خصومهم الصدوقيين الذين سنتكلم عليهم فى الفقرة التالية هم الذين أطلقوه عليهم . أما الفريسيون أنفسهم فكانوا يطلقون على أفراد فرقتهم لقب الأخوان أو الرفقاء Compagnons ويطلق كذلك على هذه الفرقة لقب الربانيين لأنهم يؤمنون بما جاء فى أسفار التلمود التى ألفها الربانيون وهم أحبار هذه الفرقة .وفقهاؤها .

فرقة الصدوقين Saducéens [(١١١)]

وهى الفرقة التى كانت تالية فى الأهمية لفرقة الفريسيين طوال القرنين السابقين لميلاد المسيح وفى المرحلة الأولى اللاحقة للميلاد . وقد امتلأت صفحات التاريخ اليهودى فى هاتين المرحلتين بحوادث الخلاف والمشادات بين هذه الفرقة وفرقة الفريسيين .

ويرجع أهم ما تختلف فيه هذه الفرقة من ناحية العقيدة عن فرقة الفريسيين إلى الأمرين الآتيين :

١ – أنها لا تعترف إلا بالعهد القديم ، وترفض الأخذ بالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى (وأما أسفار التلمود فقد ألفها فيما بعد فقهاء الفريسيين كما تقدم بيان ذلك فى الفقرة السابقة) .

٢ – أنها لا تؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر ؛ وتعتقد أن عقاب العصاة واثابة المحسنين إنما يحصلان فى حياتهم .

---

(١١٠) فلافيوس يوسفيس ، ولد سنة ٣٧ بعد ميلاد المسيح أى عقب حادث الصلب الذى يزعمه النصارى ، وتوفى سنة ٩٥ ، وهو أقدم الباحثين فى تاريخ اليهود ومن أشهرهم وأوثقهم .

(١١١) يذكر العلامة ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » (الجزء الأول ص ٨٢) ، أن هذه الفرقة تنسب الى رجل يسمى صدوق Sadoc .

وتذكر أناجيل المسيحيين أن هذه الفرقة قد حاولت أن تستدرج المسيح حتى يوافقهم على انكار البعث واليوم الآخر وينضم اليهم فى ذلك ضد الفريسيين ؛ ولكنهم أخفقوا فى ذلك ، وبين لهم المسيح فساد ما يعتمدون عليه من أدلة فى هذا الموضوع .

فقد جاء فى الاصحاح الثانى والعشرين من انجيل متى « أن الصدوقيين الذين ينكرون القيامة جاءوا إلى المسيح قائلين له يا معلم لقد قال موسى اذا مات أحد وليس له أولاد ذكور يتزوج أخوه امرأته لتلد ولدا ينسب إلى أخيه ويخلد ذكره . فكان عندنا سبعة اخوة تزوج أولهم ومات بدون أن يولد له ولد ذكر ، فتزوج أخوه امرأته ولم ينجب ابنا ، وحدث مثل ذلك لجميع من بقى من الأخوة . فلأى أخ من هؤلاء الاخوة تكون هذه المرأة يوم القيامة . فقال لهم يسوع انكم لتضلون وتجهلون أسفاركم وتشكون فى قدرة الله . ألم تعلموا أن الناس فى الدار الآخرة لا يزوجون ولا يتزوجون ويعيشون كما تعيش ملائكة الله فى السماء ؟ ! والعجب لكم كيف تنكرون قيامة الأموات مع أنكم تقرءون فى كتبكم أن الله قد قال أنا الاه ابراهيم واسحق ويعقوب ؛ والله تعالى الاه للأحياء ولا يصح أن يكون الاها للأموات . فلما سمعوا منه ذلك بهتوا من حجته ، وسر الفريسيون لأنه أفحم الصدوقيين » .

ويذكر العلامة ابن حزم أن هذه الفرقة كانت تقول ان العزيز ابن الله[١١٢] وهو من تسميه أسفار اليهود عزرا Esdras . ولعل هذه الفرقة هى التى يعنيها القرآن الكريم اذ يقول « وقالت اليهود عزير ابن الله »[١١٣] .

وتمتاز كذلك هذه الفرقة بحرصها على اقامة علاقات ودية مع الشعوب الأخرى ، بينما كانت فرقة الفريسيين تنظر إلى غير الاسرائيلى نظرتها إلى عدو ، بل

---

(١١٢) المرجع السابق ص ٨٢ .

(١١٣) آية ٣٠ من سورة التوبة .

كانت تنظر هذه النظرة إلى غير أفراد نحلتها من اليهود أنفسهم[١١٤] .

ومع كثرة وجوه الخلاف بين هذه الفرقة وفرقة الفريسيين ، ومع اتجاهها الودى نحو الشعوب الأخرى ، فإنها كانت لا تقل عن فرقة الفريسيين فى مبلغ عداوتها للمسيح والكيد له وتعويق رسالته .

وكانت هذه الفرقة أقل كثيرا فى أتباعها من فرقة الفريسيين ، بل ان الأغلبية الساحقة من اليهود كانوا ينفرون من تعاليمها ويناجزونها العداء .

فرقة السامرية[١١٥]

تختلف هذه الفرقة عن الفرقتين السابقتين بأنها لا تؤمن إلا بالأسفار الخمسة التى تمثل القسم الأول من « العهد القديم » وسفر يوشع وسفر القضاة[١١٦] ، وتنكر بقية أسفار العهد القديم وأسفار التلمود . ونصوص الأسفار المعتمدة لديهم تختلف فى كثير من المواضع عن النصوص المشهورة لهذه الأسفار المعتمدة عند غيرهم . وهم مثل الصدوقيين لا يؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر .

وذكر ابن حزم أنهم « يبطلون كل نبوة كانت فى بنى اسرائيل بعد موسى ويوشع عليهما السلام ، فيكذبون نبوة شمعون وداود وسليمان وأشعياء واليسع والياس وعاموس وحبقوق وزكريا وأرمياء وغيرهم ، وأنهم يقولون ان مدينة القدس هى

---

(١١٤) ولعل هذه الفرقة هى التى يقول فيها القرآن الكريم : « ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك » . ولعل فرقة الفريسيين هى التى يقول فيها عقب ذلك : « ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آية ٧٥ من سورة آل عمران) . والأميون نسبة الى الأمم وهم فى اصطلاح اليهود غير بنى اسرائيل .

(١١٥) لعلهم سموا بذلك لأن نحلتهم قد ظهرت فى أقليم السامرة ، وهو أحد أقاليم فلسطين . وكانت كلمة السامريين تطلق كذلك على جماعة من غير بنى اسرائيل اعتنقت اليهودية وامتزجت بالاسرائيليين . وكان الاسرائيليون ينظرون الى أفرادها على أنهم أحط منهم قدرا ومنزلة .

(١١٦) انظر فقرات ٣ – ٦ من هذا الفصل والتعليق رقم ٣٢ .

نابلس ، وهى من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلا ، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه . وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها » . [١١٧]

فرقة الحسديين[١١٨]

ظهرت هذه الفرقة حوالى القرن الثانى قبل الميلاد . وتختلف عن بقية فرق اليهود اختلافا جوهريا فى عقائدها وعباداتها ونظمها وتقاليدها .

فمن أهم ما تمتاز به عن بقية فرق اليهود فيما يتعلق بالعبادات أنها تحرم الأضحية والقرابين ، مع أن الأضحية والقرابين كانت تعتبر عند الفرق الأخرى من أهم العبادات ، وقد خصص لها قسم كبير من سفر من أسفار توراتهم المزعومة وهو سفر اللاويين كما تقدم بيان ذلك[١١٩] . ومن مميزاتها فى العبادات كذلك أنه يكثر فى شعائرها مناسبات الغسل والوضوء .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالشرائع والنظم الإنسانية العامة أنها تنكر التفرقة العنصرية وتقرر مبدأ المساواة بين الناس فى القيمة الإنسانية المشتركة وتحرص على التعايش السلمى بين جميع الشعوب .

فمن مبادئها العمل على الغاء الحروب ، وأن يعيش العالم فى سلام دائم ، ومجانبة الاضرار بالخلق وعدم ايذاء أى انسان حتى لو كان ذلك لتربيته وتعويده الامتثال والطاعة ، ومراعاة الصدق والأمانة والوفاء بالعهد حيال جميع الناس سواء فى ذلك الاسرائيليون منهم وغير الاسرائيليين ، وتحريم طرائق الكسب غير السليم وابتزاز الناس واستغلال عوزهم وحاجتهم سواء فى التعامل مع اليهودى أو غير اليهودى . وهذا على

---

(١١٧) ص ٨٢ من الجزء الأول من كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم .

(١١٨) كلمة الحسديين مأخوذة من كلمة حسديم بمعنى المشفقين (الياء والميم علامة الجمع فى العبرية) . — وقد وصلت الينا أخبار هذه الفرقة بفضل ما كتبه عنها فيلون (فيلسوف يونانى من أصل يهودى ، ولذلك اشتهر باسم فيلون اليهودى ، ولد حوالى ٢٠ ق م) ، وماكتبه عنها المؤرخ اليهودى يوسيفيس (انظر تعليق ١١٠) . وقد أشار كذلك الى هذه الفرقة مشيدا ببعض نظرياتها العلامة مونتسكيو فى كتاب روح القوانين انظر :
Montesquieux: de l'Esprit des Lois, T. I, p. 106.

(١١٩) انظر آخر رقم ١ وأول رقم ٢ من فقرة ١٠ من هذا الفصل ص ٣٠

عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت نظمها تقوم على التفرقة العنصرية وتبيح لأفرادها فى علاقاتهم ومعاملاتهم مع غير اليهود ما لا تبيحه فى علاقاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض كما تقدم بيان ذلك(١٢٠) .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بمبادئ الحرية أنها تحرم نظام الرق ، وتحظر أن يملك الإنسان أخاه الإنسان ، وأن يحرم أى فرد من حريته . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت نظمها تقوم على الرق ، وقد خصص للرق وأحكامه حيز كبير فى أسفارهم(١٢١) .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بنظام الملكية أنها تحرم الملكية الفردية وتوجب أن تكون جميع الملكيات ملكيات جماعية . وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الاسرائيلى ، وعاشوا جماعات حول شاطئ البحر الميت . فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ، وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكا جماعيا شائعا يحفظ ما يزيد منه عن الحاجة العاجلة فى مخازن عامة ، ويشرف على شئون ادارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريقة الانتخاب العام المباشر ، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه ، وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكا جماعيا ، وتركوها فى كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل رفيق من جماعتهم ، سواء أكان من أهل القرية أم قادما من خارجها . ومن ثم يعتبر مذهب هذه الفرقة فى شئون الاقتصاد من أقدم المذاهب الشيوعية فى العالم ، ويعتبر أتباعها من أقدم المجتمعات الانسانية التى أخذت بهذا المذهب وطبقته فى حياتها بالفعل . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت تجيز الملكية الفردية الخاصة وتحيطها بسياج من الحماية ، وقد خصص لأحكام الملكية الفردية وطرق انتقالها وحقوقها وواجباتها حيز كبير فى أسفارهم(١٢٢) .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالشئون المهنية أنها تحرم الاشتغال بالتجارة لما تبعثه

---

(١٢٠) انظر أوائل فقرة ١١ من هذا الفصل .

(١٢١) انظر صفحات ٥٣ – ٦٠ من كتابنا « قصة الملكية فى العالم » .

(١٢٢) انظر صفحات ٤٨ – ٦٤ من كتابنا « قصة الملكية فى العالم » .

فى النفوس من جشع وحرص على جمع المال وجنوح إلى ابتزاز الناس ، كما تحرم صناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التى تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم ، وهو أن يعيش الناس فى سلام دائم . وتحرم كذلك استخدام الذهب والفضة والتعامل بهما لما يبعثانه فى النفوس من زهو وما يحملان عليه من جشع وشح . ولذلك اقتصرت أعمالهم على الزراعة وما تحتاج إليه ويتصل بها من صناعات . — وهى فى ذلك تختلف اختلافا جوهريا عن سائر فوق اليهود ، فقد كان من أهم مظاهر النشاط الاقتصادى لهذه الفرق شئون التجارة وصناعة السلاح والتعامل بالذهب والفضة ، بل لقد كانت هذه الفرق تنظر إلى هذين المعدنين نظرة تقرب من التقديس.

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بنظام الأسرة أنها تحرم الزواج وتوجب التبتل والبعد عن النساء . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت ترى أن الزواج واجب دينى لكل قادر عليه وأن من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه لا يقل جرمه عن القاتل ، لأن كليهما ، على حد تعبيرهم « يطفئ نور الله ، وينقص ظله فى أرضه ويبعد رحمته عن اسرائيل » . بل لقد رأى بعض فقهائهم أن من بلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج(١٢٣) .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالحياة الفردية أنها تحارب الترف والحياة الناعمة وتدعو إلى الزهد والتقشف والبعد عن جميع متع الجسم ، وتنظر إلى هذه المتع على أنها شرور ، وتحرم شرب الخمور وأكل اللحوم وتوجب الاقتصار على الأغذية النباتية(١٢٤) .

ومن هذا يظهر أن هذه الفرقة تخالف فى معظم ما تذهب إليه تعاليم العهد القديم والتلمود ، على الرغم من أنها تعتبر نفسها ويعتبرها المؤرخون من فرق اليهود .— والحقيقة أنه لا يربطها ببقية فرق اليهود إلا رابطة الجنس ، لأن أفرادها كانوا من بنى اسرائيل .

---

(١٢٣) انظر صفحات ٥ ، ٦ ، ٥٥ من كتابنا « قصة الزواج والعزوبة فى العالم » .

(١٢٤) V. L. G. Rylands: Evolution of Christianity, p. 55 et suiv

ولم تعمر هذه الفرقة طويلا ، فقد انقرضت فى أواخر القرن الأول الميلادى ، أى أنها لم تعش إلا نحو قرنين أو ثلاثة قرون .

وقد ذهب بعض المورخين إلى أن يوحنا المعمدان (وهو سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) كان من هذه الفرقة ؛ ولكن لم يقدم أصحاب هذا الرأى بين يديه دليلا يعتد به .

فرقة القرائين أو العنانيين والممهدون لها وما انشعب عنها من طوائف وما حدث بينها وبين الربانيين من خلاف وخصومات

هى أحدث الفرق اليهودية جميعها . فقد أنشأها عنان بن داود أحد علماء اليهود فى بغداد فى أواخر القرن الثامن بعد الميلاد ، فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور (كانت خلافته من سنة ٧٥٤ إلى سنة ٧٧٥ بعد الميلاد) ، أى بعد نشأة الديانة اليهودية بنحو عشرين قرنا . ويقوم مذهبها على التمسك بما جاء فى العهد القديم وحده ، وعدم الاعتراف بأحكام التلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات . ومن ثم أطلق على فرقتهم اسم « العنانيين » نسبة إلى منشئها عنان بن داود ، واسم « القرائين » نسبة إلى « مقرا » بمعنى الكتاب أو المكتوب L'Ecriture وهى الكلمة التى كانت تطلق عند اليهود على أسفار العهد القديم[١٢٥] ؛ فمعنى القرائين المتمسكون بالكتاب وحده أى أسفار العهد القديم وحدها . — ولا يزال لهذه الفرقة أتباع كثيرون من اليهود فى مختلف البلاد فى العصر الحاضر .

والتمسك بما جاء فى العهد القديم وحده أو بما جاء فى بعض أسفاره وحدها ورفض ما عدا ذلك ليس جديدا كل الجدة فى تاريخ الفرق اليهودية ، فقد أخذت

(١٢٥) وأما كلمة « العهد القديم » فهى تسمية أطلقت على كتب اليهود فى العصور المسيحية للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التى أطلقوا عليها اسم « العهد الجديد » (انظر أول فقرة ٣ من هذا الفصل) .

به من قبل ظهور القرائين بأمد طويل فرق يهودية قديمة منقرضة كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق[١٢٦] . — ومن ثم يعد مذهب القرائين فى كثير من عناصره مجرد احياء لمذاهب هذه الفرق .

وقد ألغى عنان جميع التشريعات التى قررها الربانيون مستندين فى تقريرها إلى أسفار التلمود ، وأدخل على كثير من تشريعاتهم التى استمدوها من فهمهم لنصوص العهد القديم تعديلات استمدها هو من اجتهاده الخاص ومن فهمه لنصوص هذا العهد . فقد انفرد فى استنباط الأحكام من هذه النصوص بآراء كثيرة ذكر طائفة منها فى كتابه الذى ألفه فى تفسير التوراة (كتب موسى وهى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم : أسفار التكوين والخروج والتثنية والعدد واللاويين) . — غير أنه قد تجاوز أحيانا هذا النطاق ، فقرر أحكاما تتعارض مع نصوص صريحة لأسفار العهد القديم .

ومن أهم التشريعات التى خالف فيها الأحكام المقررة عند الربانيين معتمدا على اجتهاده الخاص فى فهم النصوص أنه حرم زواج العم من ابنة أخيه وزواج الخال من ابنة أخته . ومن أهم التشريعات التى خالف فيها نصوصا صريحة من التوراة أنه سوى بين الابن والبنت فى الميراث وقرر أن الزوج لا حق له فى تركة امرأته[١٢٧] .

وقد مهد لظهور فرقة القرائين بعض حركات اصلاحية دينية حدثت قبيل ظهورها وإن كان أصحابها لم يكتب لهم النجاح فيما دعوا إليه . ومن أهم هذه الاصلاحات ما نادى به سيرينوس وما نادى به عبوديا بن عيسى .

أما سيرينوس فهو يهودى من أهل سوريا نادى باصلاحاته حوالى سنة ٧٢٠ ميلادية ، وجعل شعاره : « اتركوا تعاليم التلمود » وتبعه ناس كثيرون ، فعظم شأنه ، وامتلأ زهوا ، حتى لقد أعلن أنه المسيح المنتظر ، وكادت تحدث من جراء ذلك فتنة كبيرة فى العالمين اليهودى والاسلامى كليهما ، فقبض عليه وقدم إلى الخليفة

---

(١٢٦) انظر مثلا فرقة الصدوقيين وفرقة السامرية فى صفحتى ٦٤ ، ٦٦ .

(١٢٧) انظر القواعد التى كان يسير عليها الميراث عند اليهود فى صفحتى ٥٠ ، ٥١ من كتابنا « قصة الملكية فى العالم » .

الأموى يزيد بن عبد الملك (كانت خلافته من سنة ٧٢٠ إلى سنة ٧٢٤ ميلادية) فرأى الخليفة، حسما للفتنة، أن يسلمه إلى اليهود أنفسهم ليتولوا محاكمته. وانتهى بذلك أمره.

وأما عوبديا بن عيسى فهو يهودى من أصفهان نادى باصلاحاته حوالى سنة ٧٥٠ ميلادية، واتخذ الشعار نفسه الذى اتخذه سيرينوس، وهو عدم الاعتراف بالتلمود، وأدخل تعديلات كثيرة على الأحكام اليهودية المستمدة من التوراة نفسها، فألغى الطلاق، وجعل فرائض الصلاة أربعة بدلا من ثلاثة فى اليوم، وحرم أكل اللحوم وشرب الخمور. — وقد أشار العلامة ابن حزم إلى هذه النحلة، وذكر أن أصحابها يقرون بنبوة عيسى ونبوة محمد عليهما السلام. وذلك اذ يقول: «والعيسوية هم أصحاب أبى معيسى الأصفهانى رجل من اليهود كان بأصفهان. وبلغنى أن اسمه كان محمد بن عيسى. وهم يقولون بنبوة عيسى بن مريم ومحمد صلى الله عليه وسلم. ويقولون أن عيسى بعثه الله عز وجل إلى بنى اسرائيل على ما جاء فى الانجيل وأنه أحد أنبياء بنى اسرائيل. ويقولون أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبى أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بنى اسماعيل وإلى سائر العرب. كما كان أيوب نبيا فى بنى عيص وكما كان بلعام نبيا فى بنى مؤاب باقرار من جميع فرق اليهود»[١٢٨].

وقد حاول عبوديا هذا هو وأنصاره استخدام القوة فى فرض آرائهم على طوائف اليهود، فأخفقوا فى محاولاتهم، ومنوا بعدة هزائم منكرة وانتهى بذلك أمرهم.

* * *

وقد نجح عنان فيما أخفقت فيه هذه الطوائف من قبل. ولكنه فتح باب الاجتهاد فى فهم النصوص المقدسة، وسمح لكل قادر على ذلك أن ينشئ له مذهبا فرعيا خاصا فى نطاق الأصول العامة التى قام عليها مذهبه، فترتب على ذلك أن حدث الانقسام فى فرقة القرائين نفسها، وانشعبت منها طوائف كثيرة من أشهرها طائفة بنيامين بن موسى وطائفة الأكبرية.

---

(١٢٨) ص ٨٢ من الجزء الأول من كتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» لابن حزم.

أما بنيامين بن موسى فهو فارسي من نهاوند ، نادى بتعاليمه فى أوائل القرن التاسع الميلادى . وهى فى جملتها مستمدة من تعاليم عنان ، مع بعض آراء تأثر فيها بمذاهب المعتزلة وفلاسفة الاسلام ، وخاصة الفارابى وابن سينا . ومن أهم ما ذهب إليه فى شئون العقيدة أنه أنكر ما يوهمه ظاهر العهد القديم اذ يصور الذات العلية فى صورة مجسمة تشبه صور الحوادث(١٢٩) واذ يقرر أن الله تجلى لموسى فى سيناء وكلمه ، لما ينطوى عليه ذلك من حلول الله فى المكان وإخراجه للصوت ، وأنكر أن يكون الله قد تولى عملية الخلق فى صورة مباشرة ، لما ينطوى عليه ذلك من التغير والحركة ومن اتصال الله بالمادة ، وذهب إلى أن الله خلق الملائكة ، وهم كائنات روحية غير مادية ، وهذه الكائنات هى التى خلقت العالم المادى . وهنا يبدو التأثر بمذهب الفارابى فى نظرية « العقول » التى انبثقت عن الله تعالى كما ينبثق الضوء من الشمس ، وتولت الاشراف على خلق الكائنات السماوية والأرضية وعلى مختلف شئونها . (١٣٠) .

وقد انضم إلى نحلة بنيامين بن موسى عدد كبير من القرائين ، فعظمت مكانته وبلغ فى نفوس أتباعه منزلة تقرب من منزلة عنان بن داود المنشئ الأول لفرقة القرائين .

وأما فرقة الأكبرية فقد أنشأها عالمان يهوديان من مدينة « أكبر » بالقرب من بغداد ، حوالى سنة ٨٤٠م ، وهما موسى واسماعيل الأكبريان . وأهم ما تمتاز به هذه الفرقة عن بقية فرق القرائين أنها لا تؤمن إلا بأسفار موسى الخمسة (أسفار التكوين والخروج والتثنية واللاويين والعدد) ولا تعترف ببقية أسفار العهد القديم . ومذهبها هذا يعد فى جملته احياء لمذهب السامرية الذى تكلمنا عليه فيما سبق(١٣١) .

* * *

---

(١٢٩) انظر رقمى ١ ، ٢ من فقرة ١٠ من هذا الفصل صفحات ٢٦ – ٣٩

(١٣٠) انظر تفصيل هذه النظرية فى كتابنا « فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى » صفحات ٤٠ – ٤٢ الطبعة الثانية .

(١٣١) انظر فرقة السامرية فى فقرة ١٣ من هذا الفصل .

هذا ، وقد تفاقم الخلاف بين القرائين والربانيين ، وهما أهم الفرق اليهودية الباقية إلى العهد الحاضر ، وشنت كلتا الطائفتين حربا عنيفة على الطائفة الأخرى ، فحكمت كلتاهما على الأخرى بالكفر ، واستقلت كلتاهما بمعابد خاصة لا يسمح بدخولها لغير أتباعها .

ويروى لنا التاريخ كثيرا من الخصومات العنيفة التى حدثت بين هاتين الطائفتين فى كثير من البلاد التى كان يوجد فيها أتباع لكلتيهما . ومن أشهر هذه الخصومات ما حدث بينهما فى مصر فى أيام الملك الفاطمى الظاهر ابن الحاكم بأمر الله (تولى الخلافة الفاطمية من ٤١١ إلى ٤٢٧ هـ ١٠٢٠ إلى ١٠٣٥م) . وكان سبب هذه الخصومة أن المشرف اليهودى على قصابى اليهود كان من طائفة الربانيين . وللقرائين فى شئون الذبائح مذهب يختلف عن مذهب الربانيين . فمن ذلك أنهم يحرمون ذبح أنثى الحيوان فى أثناء حملها بينما يجيز ذلك الربانيون . فحدث من جراء ذلك احتكاكات عنيفة بين الطائفتين . وطلب القراءون أن يسمح لهم بحوانيت خاصة للحوم الأنعام والطيور تخضع لتفتيشهم هم ولا تخضع لتفتيش محتسب الربانيين . وأن يسمح لهم بفتح حوانيتهم فى أعياد الربانيين التى لا يعترفون هم بمواقيتها (فلكل فرقة تقويمها الخاص ، ومن ثم اختلفت مواقيت الأعياد عند كلتيهما) . وقد استجاب الخليفة الظاهر لمطالب القرائين وأصدر مرسوما فى ١١ من جمادى الأولى سنة ٤١٥ هـ ١٠٢٤ ميلادية هذا نصه :

« من تتبع عاداتكم ، واستمراركم فى تقاليدكم التى أخذتموها عن دياناتكم بدون عائق يقوم من طائفة ضد الأخرى أو قيام معاملة خشنة بينكما ، فهذا يدعو إلى السماح لكل طائفة بأن تعيش وتعبد كما تهوى ، مع تمكين كل طائفة فى بيع أو شراء ما تشتهى ، وأن تحتفل بعيدها كما تريد ومتى ترغب بكامل حريتها ومطلق ارادتها . وأحذر الطائفتين من التدخل فى شئون بعضهما أو إحداث شغب أو مضايقة بعضهما . إن الأمان مكفول لكم جميعا . وعليكم عدم تمكين شرير بينكم من الاتيان بشىء ممنوع . وعليكم تجنب المناقشات التى تؤدى إلى سوء العاقبة . وعليكم المحافظة على ذلك . والعقوبة ستحل بكل فرد يتجاوز حدوده ويأتى بأعمال محرمة . فمثل هذا

الشخص سيعاقب عقوبة شديدة وسيكون مثالا لغيره حتى لا يحتذيه أحد . كذلك يحرم التدخل فى شئون طائفة القرائين فى معابدهم الخاصة بهم وحدهم » .

«وهذا الأمر صادر من أمير المؤمنين . فعليكم العمل على تنفيذه واحترامه ، وعلى أمير الجيوش – ساعده الله – أن يساعد على تنفيذه ، وعلى رؤساء الأقاليم العناية العادلة بالطائفتين ، وعلى الحكام اصدار الأوامر الخاصة بوجوب العناية والمحافظة على أفراد الطائفتين والعمل على عدم اضطهادهم » .

« ليحترم هذا الأمر بواسطة الذين كتب لهم ان شاء الله »

« حرر فى يوم الأربعاء ١١ جمادى الأول عام ٤١٥ هجرية » .

* * *

ومن هذا يظهر مبلغ سماحة الاسلام وسماحة الحكومات الاسلامية فى معاملة أهل الديانات الأخرى وتذليل الفرص لا تباعها فى مزاولة عباداتهم وأداء شعائرهم . وهذه أظهر سمة من سمات الكمال لديننا الاسلامى القويم(١٣٢) .

---

(١٣٢) انظر كذلك فى تفاصيل فرق اليهود « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » للعلامة ابن حزم ص ٨٢ وتوابعها من الجزء الأول .

الفصل الثانى

أسفار الديانة المسيحية

سنمهد لموضوع هذا الفصل بفقرتين : نعرض فى أولاهما لمن يطلق عليهم اسم « الحواريين » أو « الرسل » Les Apôtres وهم الذين ينسب إليهم قسم كبير من أسفار « العهد الجديد » وهى الأسفار المقدسة عند المسيحيين ؛ وفى الثانية لمن يطلق عليهم اسم التلاميذ Les Disciples أو التابعين ، وهم الذين يلون الحواريين فى منزلتهم ، وإليهم ينسب كذلك بعض أسفار العهد الجديد .

ثم نقف الفقرات التالية على التعريف بهذه الأسفار ، مع تحقيقات تتعلق بتأليفها ، وتاريخه ، واللغات التى ألفت بها والتى ترجمت اليها ، وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وقصص ، ومبلغ الصحة فى نسبتها إلى أصحابها ، والأسفار الأخرى غير المعتمدة عند المسيحيين ، والفرق المسيحية وما بينها من خلاف وصلة ذلك بالأسفار ، وموقف الاسلام من جميع هذه الأمور .

— ١ —

الحواريون أو الرسل Les Apôtres
بحسب ما ترويه أسفار الديانة المسيحية

تروى أسفار الديانة المسيحية بشأن الحواريين ما يلى :

اختار المسيح من بين السابقين الأولين من أتباعه ومن أكثرهم ملازمة له اثنى عشر رجلا كلفهم تبليغ رسالته إلى الخلق ، ومن ثم أطلق عليهم اسم الرسل les Apôtres ، وهم : بطرس كبير الحواريين وأخوه أندراوس ويوحنا وأخوه يعقوب الكبير ابنا زبدى ويعقوب الصغير ابن حلفى وأخوه يهوذا ومتى وتوماس وفيليبس وبرثولماوس وسمعان النشيط أو الغيور ويهوذا الاسخريوطى .

Pierre et son frére André, Jean et son frére Jacques le majeur fils de Zébédée, Jacques le mileur fils d'Alphée et son frére Jude, Mathieu, Thomas, Phillipe, Barthélemy, Simon le zélé, Juda l'Iscariote.

وقد ظل هؤلاء مخلصين لرسالتهم ، صادقين ما عاهدوا المسيح عليه ، ما عدا يهوذا الاسخريوطى فإنه قد خان المسيح وأرشد الفريسيين والرومان إلى مقره وسهل لهم صلبه وتقاضى منهم أجرا على ذلك . وقد جوزى على فعلته هذه بأن مات شر ميتة ونشر دمه ونشرت أمعاؤه فى مساحة واسعة من الأرض سميت لذلك « حقل الدماء » .

وحينئذ اجتمع نحو مائة وعشرين من كبار المسيحيين تحت رياسة بطرس كبير الحواريين ووقع اختيارهم على اثنين يكمل أحدهما عدة الحواريين الاثنى عشر وهما يوسف برساباس الملقب جوستوس ومتياس Barsabbas appelé Justus et Mathias ثم ضربوا القرعة بينهما فخرج سهم متياس ، فاختير حواريا مكملا للاثنى عشر بدلا من الخائن يهوذا الاسخريوطى[1] .

وقد ظهر المسيح ، بعد صلبه وقيامته ورفعه إلى السماء ، ظهر فى عمود من نور لرجل يهودى كان من ألد أعداء المسيحية وأشدهم حربا عليها وعلى أهلها ، فهداه الصراط المستقيم ، وكلفه تبليغ رسالته إلى الأمم وهدايتهم إلى المسيحية ، ومن ثم أطلق عليه حوارى المسيح ورسوله إلى الكفار Apôtre des Gentiles[2] ، وأصبح من ذلك الحين من أشد أنصار المسيحية ومن أكبر دعاتها ، وأصبح له فى تاريخ المسيحية وعقائدها وشرائعها شأن لم يصل إلى مثله كثير من الحواريين الأولين أنفسهم : ذلك هو الرسول بولس Saint Paul .

ومن بين هؤلاء الرسل ستة تنسب إليهم أسفار فى العهد الجديد ، وهم بطرس ويوحنا ومتى ويعقوب الصغير وأخوه يهوذا وبولس . فهم وحدهم ، من بين جميع الحواريين ، الذين يتصلون بموضوع دراستنا . ولذلك سنقدم لكل منهم فيما يلى ترجمة موجزة حسب ما ترويه أسفار المسيحيين :

---

(١) انظر « أعمال الرسل » للوقا ١٥ - ٦ من الاصحاح الأول .

(٢) انظر الاصحاح التاسع من أعمال الرسل للوقا .

١ – بطرس Pierre : كان اسمه الأصلى سمعان Simon ، وكانت مهنته صيد الأسماك . وقد دعاه المسيح لمتابعته فآمن به . وسماه المسيح « كيفا » Kepha (وهى كلمة آرامية تدل فى هذه اللغة التى كانت لغة الحديث والكتابة فى فلسطين فى عهد المسيح على معنى الحجر أو الصخرة) وقال له أنت الصخره التى سأبنى عليها كنيستى ، ثم ترجم هذا الاسم إلى اللاتينية فى كلمة معناها الصخرة فى هذه اللغة وهى « بطرس » Petrus وهو رئيس الحواريين جميعا وأشدهم ملازمة للمسيح . وقد وقف جهوده على التبشير بالمسيحية فى عهد المسيح ومن بعده فى كثير من البلاد ، فذهب إلى أنطاكية Antioche وغيرها ، وانتهى به المطاف فى روما حيث قبض عليه وزج فى به السجن وحكم عليه بالاعدام صلبا سنة ٦٧ على الأرجح فى زمن نيرون Néron امبراطور الدولة الرومانية . وقد طلب أن يصلبوه منكسا حتى لا يتشبه بالمسيح . – وإليه يرجع أكبر قسط من الفضل فى نشر المسيحية فى الدولة الرومانية . وهو الذى أنشأ كنيسة روما التى يتولى زياستها بابوات الكنيسة الكاثوليكية ، وهم يعتبرون أنفسهم خلفاء بطرس ، ولذلك تسمى كنيستهم الكنيسة البطرسية . وإليه تنسب رسالتان من الرسائل السبع التى يسمونها « الرسائل الكاثوليكية » وهى احدى مجموعات « العهد الجديد » ، وستتكلم عليها فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل . وينسب إليه كذلك أنه أشرف على تدوين انجيل مرقس ، وهو أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين والتى سنتكلم عليها فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل ، بل ان بعض المؤرخين ليذهب إلى أنه هو الذى ألف هذا الانجيل ونسبه إلى تلميذه مرقص كما سيأتى بيان ذلك .

٢ – يوحنا Jean هو كذلك من كبار الحواريين الاثنى عشر ، وكان أبوه زبدى Zébédée من السابقين الأولين إلى المسيحية ومن كبار دعاتها ، وكانت أمه سالومى Salome قديسة شهيرة ورد ذكرها فى الأناجيل ، وهى قريبة السيدة مريم أم المسيح ، وقد جاءت من زبدى بيوحنا وأخيه يعقوب الكبير Jacques le majeur . ويقول التاريخ المسيحى ان المسيح نفسه قد بارك هذين الأخوين لما قدمتهما إليه سالومى ، فوضع أحدهما على فخذه الأيمن والآخر على فخذه الأيسر وباركهما .

وتقول كذلك ان يوحنا كان أحب الحواريين إلى المسيح وأقربهم إلى قلبه ، ومن ثم يطلق عليه اسم الحوارى الحبيب L'Apôtre bien-aime حتى لقد استودعه المسيح أمه السيدة مريم وهو فوق الصليب . وكانت مهنته صيد الأسماك كمهنة بطرس ، ووقف جهوده بعد اعتناقه المسيحية على نشرها والدعوة لها . وتوفى بين سنتى ٩٨ و ١٠٠ بعد الميلاد . وينسب إليه انجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحين ، وهو آخرها تأليفًا ، وأربعة أسفار أخرى من أسفار العهد الجديد ، وهى ثلاثة رسائل من الرسائل الكاثوليكية والسفر النبوى أو رؤيا يوحنا ، كما سنبين ذلك فى الفقرتين الرابعة والثامنة من هذا الفصل . — أما أخوه يعقوب الكبير فهو كذلك من الحواريين الاثنى عشر ، ولكن لا ينسب إليه أى سفر فى العهد الجديد ، وقد استشهد سنة ٤٤ ميلادية على الأرجح .

٣ — متى Mathieu هو كذلك أحد الحواريين الاثنى عشر . وكان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب للرومان فى كفرناحوم من أعمال الجليل بفلسطين . وكان اليهود يزدرون الجباة ويزدرون مهنتهم لما كانت تنطوى عليه من أعمال الظلم والعنف ، ولأنهم كانوا مسخرين للدولة الرومانية التى تستعمر البلاد وتسوم أهلها سوء العذاب ، وكانوا يسمونهم « العشارين » لأنهم كانوا فى الغالب يأخذون عشر المحاصيل وغيرها ضريبة لبيت المال . وقد اختاره المسيح تلميذا له . فقد جاء فى الاصحاح التاسع من انجيل متى : « وبينما كان يسوع سائرا رأى شخصا جالسا عند مكان الجباية اسمه متى ، فقال له اتبعنى فقام واتبعه ، وبينما هو متكئ فى البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا وجلسوا مع يسوع وتلميذه . فلما رأى ذلك الفريسيون (فرقة من اليهود تقدم ذكرها فى الفقرة الثالثة عشرة من الفصل السابق) قالوا لتلاميذه لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ، فلما سمع قولهم يسوع قال لهم ان المرضى هم الذين يحتاجون إلى الطبيب لا الأصحاء ، واننى لم آت لأدعو أبرارا بل لأدعو خطاة إلى التوبة »[٣] .

وبعد صلب المسيح أخذ متى يدعو إلى المسيحية مطوفا فى كثير من البلاد ثم

---

(٣) فقرات ٩ — ١٣ من الاصحاح التاسع من انجيل متى .

استقر فى الحبشة وقضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعيا إلى ديانته ، ومات بها سنة ٧٠ على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة ، أو على أثر طعنة برمح أصيب بها سنة ٦٢ فى رواية أخرى . وإليه ينسب انجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين ، وهو أقدم هذه الأناجيل جميعا كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل ، وينسب إليه كذلك انجيل آخر من الأناجيل غير المعتمدة عند المسيحيين كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة السابعة من هذا الفصل .

٤ – يعقوب الصغير ابن حلفى Saint Jacques le mineur fils d'Alphée

(وقد لقب بالصغير للتمييز بينه وبين يعقوب بن زبدى أخى يوحنا الذى لقب بيعقوب الكبير) . وهو كذلك أحد الحواريين الاثنى عشر ، وهو من أقرباء المسيح . وكان ممن اجتباهم المسيح نفسه واختارهم لنشر رسالته ، ولم يلبث أن أصبح من أكبر الدعاة إلى المسيحية فى حياة المسيح ومن بعده ، وخاصة فى بلاد فلسطين ، ويعتبره التاريخ المسيحى أول أسقف لأورشليم (بيت المقدس) وقد استشهد حوالى سنة ٦٢ بعد الميلاد بأورشليم حيث حكم عليه بالاعدام رجما .

وينسب إليه التاريخ المسيحى تعديلا هاما أدخل فى الشريعة المسيحية فى مجمع أورشليم الذى انعقد بعد رفع المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة . وذلك أن المسيحيين الأولين كانوا يوجبون على أنفسهم جميع ما أوجبته أسفار العهد القديم ويحرمون على أنفسهم جميع ما حرمته ، أى يعتبرون شريعة موسى شريعة لهم ويعتبرون أسفارها أسفارا مقدسة ، ولا يستثنون من ذلك إلا ما صرح المسيح نفسه بنسخه أو تعديله . واستمر المسيحيون على ذلك إلى أن انعقد مجمع أورشليم بعد رفع المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة . وكان هذا أول مجمع يعقد بعد المسيح للنظر فى الشريعة . وقد اجتمع فيه الحواريون والتلاميذ وكثير من السابقين الأولين إلى المسيحية . فتقدم يعقوب الصغير إلى المجتمعين باقتراح يقضى بعدم وجوب الختان الذى أوجبته التوراة على كل ذكر لأن الختان يشق على بعض من يدعونهم إلى المسيحية فيرغبون عنها بسببه ، وبالاقتصار على تحريم ثلاثة أشياء من المأكولات التى حرمتها التوراة وهى الدم والمنخنقة وما ذبح للأوثان واحلال ما عدا ذلك تيسيرا على

الناس . ويدخل فى باب الحل لحم الخنزير نفسه الذى حرمته أسفار العهد القديم ودافع يعقوب عن وجهة نظره دفاعا قويا ، فأقر الحواريون والحاضرون اقتراح بجميع محتوياته[٤] .

وتنسب إليه رسالة من الرسائل الكاثوليكية السبع ، وهى احدى رسائل العهد الجديد التى سنتكلم عليها فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

٥ — يهوذا Saint Jude ويسمى كذلك ثدى Thaddée ولبى Lebée وهو أخ يعقوب الصغير ومن أقرباء المسيح ، وهو كأخيه أحد الحواريين الاثنى عشر . وكان من دعاة المسيحية فى حياة المسيح ومن بعده . و... ـهد فى ميزوبوتاميا (العراق حيث كان يدعو إلى المسيحية فى وديان دجلة والفرات . وتنسب إليه رسالة من الرسائل الكاثوليكية السبع ، وهى احدى رسائل العهد الجديد التى سنتكلم عليها فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

٦ — بولس Saint Paul كان يهوديا من الفريسيين على أرجح الأقوال وكان اسمه شاول Saul . وكان من ألد أعداء المسيحية فى عهد المسيح ومن بعده ومن أشدهم حربا عليها وعلى أهلها . فكان يسطو على معابد المسيحيين ويقتحم بيوتهم ويغير عليهم فى الطرقات ، فيقتل منهم من يقتل ، ويعذب من يعذب ، ويشد وثاق بعضهم من الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجون وساحات التعذيب . — وبينما هو سائر فى طريقه إلى دمشق ظهر له المسيح فى عمود من نور ، وكان ذلك بعد صلبه ورفعه ، فهداه الصراط المستقيم ، وكلفة تبليغ رسالته إلى الأمم وهدايتهم إلى المسيحية ، ومن ثم أطلق عليه اسم « حوارى المسيح إلى الأمم الكافرة Apôtre des Gentiles » — وعندما ذهب إلى الحواريين بعد ذلك أوجسوا خيفة منه ، وظنوا أنه يتظاهر بالإيمان للمكر بهم وتدبير الكيد لهم ، ولكن « برنابا » Barnabé (الذى سنترجم له فى الفقرة التالية) شهد أمامهم بصحة إيمانه وقص عليهم قصة هدايته وظهور المسيح له ، فاطمئنوا إليه ، وأنزلوه منهم منزلة كبيرة وانقلب من ألد أعداء

---

(٤) انظر الاصحاح ١٥ من سفر « أعمال الرسل » للوقا .

المسيحية إلى أكبر دعاتها والمنافحين عنها ، وأخذ يطوف فى مختلف البلاد عاملا على نشرها وادخال الناس فى دينها واصطحب معه « برنابا » فى رحلاته الأولى ، ثم اختلفا بعد ذلك فافترقا . وظل سائرا على منهجه ينشئ الكنائس ، ويلقى الخطب ، ويؤلف الرسائل فى المسيحية عقائدها وشرائعها وأخلاقها ، حتى قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو ٦٧ م[٥] .

وينسب إلى بولس أربعة عشر سفرا من أسفار العهد الجديد تسمى « رسائل بولس » على ما سنذكره مفصلا فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

وبفضل هذه الرسائل أصبح لبولس فى تاريخ المسيحية وعقائدها وشرائعها أكبر شأن ، حتى إن المسيحية الحاضرة لتنسب إليه أكثر مما تنسب إلى غيره وتستمد معظم أصولها وتعاليمها من رسائله ، وحتى إن كلمة « الرسول » إذا أطلقت لا يراد بها فى اصطلاحهم إلا بولس ، كما يطلقون عليه كذلك لقب « الرسول الكبير » .

(le Grand Apôtre)

(٥) انظر الاصحاحات الثامن والتاسع والثالث عشر والرابع عشر من سفر « أعمال الرسل » للوقا .

— ٢ —

التلاميذ والتابعون
بحسب ما ترويه أسفار الديانة المسيحية

تروى أسفار الديانة المسيحية بشأن التلاميذ والتابعين ما يلى :

اختار المسيح من بين أتباعه والملازمين لصحبته والاستماع إليه بجانب الاثنى عشر حواريا السابق ذكرهم ، وهم الذين كانت لهم أكبر منزلة فى المسيحية ، سبعين رجلا كلفهم التبشير بالمسيحية فى قرى الجليل ، وأطلق على هؤلاء اسم « التلاميذ ».

وبجانب الرسل والتلاميذ يحفظ لنا التاريخ المسيحى أسماء جماعة لم يصاحبوا المسيح نفسه ، ولكن صاحبوا بعض رسله أو بعض تلاميذه وأخذوا عنهم ، وكان لهم أثر ذو بال فى المسيحية . ومن الممكن أن نطلق على هؤلاء اسم « التابعين » جريا على الاصطلاح الاسلامى الذى يطلق هذا الوصف على من لم يصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ولكن أخذ عن بعض صحابته .

ومن بين التلاميذ اثنان تنسب إليهما بعض أسفار فى الديانة المسيحية وهما « برنابا » و« مرقص » ، ومن بين التابعين واحد تنسب إليه كذلك بعض هذه الأسفار وهو « لوقا » .. فهؤلاء الثلاثة وحدهم ، من بين جميع التلاميذ والتابعين ، هم الذين يتصلون بموضوع دراستنا . ولذلك سنقدم لكل منهم فيما يلى ترجمة موجزة حسب ما ترويه أسفار المسيحيين :

١ — برنابا Saint Barnabé : كان يهوديا من اللاويين ، وكان اسمه يوسف ، وقد سماه الحواريون « برنابا » ومعنى هذه الكلمة « ابن الوعظ » . وهو من التلاميذ السبعين على الأرجح . وقد باع جميع ما يملكه من أرض فى فلسطين وقدم ثمنه للحواريين ليستعينوا به فى الدعوة إلى المسيحية ومساعدة فقراء المسيحيين . وهو الذى ضمن بولس أمام الحواريين وشهد بصحة ايمانه وقص عليهم هدايته وظهور المسيح له كما تقدم بيان ذلك . وقد كلفه الحواريون عدة مهام تتعلق بالتبشير وتنظيم المجتمعات المسيحية الأولى فقام وحده بما عهد إليه به خير قيام . ثم اصطحب بولس

بعد ذلك وعملا معا على تبليغ رسالة المسيح إلى الكفار وهدايتهم إلى المسيحية واصطحبا معهما مرقص ابن أخت برنابا (وسنترجم له فى الفقرة التالية) فطوفا معا لهذه الغاية فى كثير من البلاد ومنها أنطاكية Antioche وقبرص . وقد نجحا فى رسالتهما أيما نجاح وظهر على أيديهما معجزات كثيرة ، وبلغا فى نفوس أتباعهما منزلة كبيرة ، حتى لقد افتتن بهما أهل قبرص واعتقد الكثير منهم أنهما الاهان . ولما بلغهما ذلك مزقا ثيابهما واندفعا إلى الجمهور صارخين متبرئين مما وصفا به ، فرجع الناس عن ضلالهم .— ثم اختلف برنابا مع بولس فافترقا ، ورجع برنابا فى هذه المرة مع ابن اخته مرقص ليكمل ما بدأ عمله فى هذه البلاد مع بولس[٦] .

وينسب لبرنابا انجيل وسفر فى تاريخ الحواريين والتلاميذ يسمى « أعمال الرسل » . ولا تعترف الكنائس المسيحية الحاضرة بصحة هذا الانجيل ولا هذا السفر ولا بصحة ما جاء فيهما ولا بصحة نسبتهما إلى برنابا ، بل تذهب إلى أنهما مزيفان وأن ملفقيهما قد ألصقوهما ببرنابا ليروجوهما . وسنعرض لذلك فى الفقرتين السابعة والثامنة من هذا لفصل .

٢ — مرقس Saint Marc اسمه يوحنا ويلقب بمرقص ، وأصله من اليهود ، وهو من التلاميذ السبعين على الأرجح ، وابن أخت القديس برنابا . وقد صاحب الرسول بولس والقديس برنابا فى رحلاتهما وتبشيرهما بالمسيحية فى قبرص وآسيا الصغرى ، ثم صاحب الرسول بطرس كبير الحواريين نفسه وقضى معه شطرا من حياته وتبعه إلى روما . وبعد استشهاد الرسول بطرس شخص مرقص إلى شمال افريقيا ثم إلى مصر ونشر فيها المسيحية وأنشأ بها بطرياركة الاسكندرية (الكرازة المرقسية) التى يتولاها الآن بابوات الأقباط الأرثوذكس الذين يعتبرون أنفسهم خلفاء مرقص . واستشهد فى مصر حوالى سنة ٦٧ .

وقد اختاره أهل البندقية (فينيسيا) حاميا لمدينتهم . وله فى البندقية كنيسة تعد من أجمل كنائس العالم وأفخمها وأدقها عمارة وأغناها بالآثار الفنية .

---

(٦) انظر اصحاحات ٤ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ من سفر « أعمال الرسل » للوقا .

وقد نقلت رفاته من البندقية إلى الكتدرائية القبطية المقامة فى حى العباسية بالقاهرة ، بوصفه منشئا للكنيسة المصرية الأرثوذكسية .

وينسب إليه انجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين والتى سنتكلم عليها فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل .

٣ – لوقا Saint Luc ولد فى انطاكية ودرس الطب وزاول مهنته بنجاح كبير ، ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح من كبار دعاتها ، ورافق الرسول بولس فى كثير من رحلاته ، وأشار بولس إلى هذه الرفقة فى بعض رسائله وخاصة فى رسالته الثانية إلى تلميذه تيموثاوس وفى رسالته إلى تلميذه فيليمون وفى رسالته إلى أهل كولوس[٧] . وذهب بعضهم إلى أنه كان رومانيا نشأ بايطاليا . ويرجح آخرون أنه كان مصورا ولم يكن طبيبا . وقد مات سنة ٧٠ ميلادية على الأرجح .

وينسب إليه انجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين وسفر آخر من أسفار العهد الجديد يسمى « أعمال الرسل » وهو فى تاريخ الحواريين والتلاميذ ، ويعد أهم مرجع فى تاريخ نشأة المسيحية وأحوالها بعد المسيح وتاريخ دعاتها الأولين .

– ٣ –

العهد الجديد

استقر رأى المسيحيين فى أوائل القرن الخامس الميلادى على اعتماد سبعة وعشرين سفرا من أسفارهم ، وقرروا أنها هى وحدها الأسفار المقدسة ، أى الموحى بها ، ويقصدون أنه موحى لأصحابها من الرب بمعانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم « العهد الجديد » Nouveau Testament للمقابلة بينها وبين ما اعتمد من أسفار اليهود المقدسة التى أطلقوا عليها اسم « العهد القديم » Ancien Testament . فتسمية هاتين المجموعتين من الأسفار بهذين الاسمين هى تسمية متأخرة لاحقة لظهور المسيحية ويقصد بكلمة « العهد » فى هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق . أى إن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس . فأولاهما تمثل ميثاقا قديما يرجع إلى عصر موسى ، والاخرى تمثل ميثاقا جديدا بدأ بظهور عيسى .

(٧) سنتكلم على هذه الرسائل فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

وترجع أسفار العهد الجديدإلى ثلاث مجموعات وسفرين . فالمجموعات هى : مجموعة الأناجيل وعددها أربعة ؛ ومجموعة رسائل بولس وعددها أربع عشرة رسالة ؛ ومجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل . وأما السفران فهما : سفر « أعمال الرسل » للوقا ، وسفر « رؤيا يوحنا » أو « الأبوكاليبس » ليوحنا .

وسنفصل الكلام على هذه الأسفار فيما يلى :

— ٤ —

الأناجيل الأربعة

تمثل الأناجيل الأربعة المعتمدة أهم مجموعات العهد الجديد ، وتستأثر وحدها فى هذا العهد بحيز كبير يقرب من نصفه (تستغرق نحو ١١٠ صفحة من مجموع صفحات العهد الجديد البالغة نحو ٢٥٠ فى احدى ترجماته بالفرنسية) وهى : انجيل متى ؛ وانجيل مرقص ؛ وانجيل لوقا ؛ وانجيل يوحنا .

١— أما انجيل متى فمؤلفه هو الرسول متى أحد الحواريين الاثنى عشر الذى ترجمنا له فى الفقرة الأولى من هذا الفصل ، وانجيله هو أقدم الأناجيل جميعا اذ يرجع تاريخ تأليفه إلى حوالى سنة ٦٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال . وقد ألفه متى باللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة التى تكلمنا عليها فى الفقرة الثانية من الفصل الأول من هذا الكتاب ، والتى كانت مستخدمة فى المحادثة والكتابة فى هذا العصر فى فلسطين . وقد أخطأ ابن البطريق (من أشهر مؤرخى المسيحية ، وهو مسيحى من رجال القرن الثالث الهجرى ، كان من مترجمى الكتب فى بلاط الخليفة المأمون ، وقد ترجم له من اليونانية كتاب « المجسطى » فى الفلك لبطليموس الفلكى وكتاب « الأصول » فى الهندسة لاقليدس ») وكثير من مؤرخى العرب اذ قرروا أن متى قد كتب انجيله هذا باللغة العبرية(٨) . ولكن هذا الأصل الآرامى لم يصل إلينا ، وإنما وصلت إلينا ترجمته إلى اللغة اليونانية التى تمت عقب تأليفه مباشرة أى حوالى سنة

(٨) انظر فى ذلك مثلا ابن خلدون اذ يقول : «كتب متى انجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منها إلى اللسان اللطينى» صفحة ٦٥٠ من مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثانى ، طبعة دار نهضة مصر ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، وانظر تعليقنا رقم ٧٣٨ على هذه العبارة .

٦٠ بعد الميلاد . ولا يظهر فى هذه الترجمة الا آثار ضئيلة للهجة الآرامية التى كتب بها الأصل ، وتتمثل هذه الآثار فى نحو ست عشرة كلمة آرامية مدونة بحروف يونانية . ولا يعرف عن طريق يقينى مترجم هذا الانجيل إلى اللغة اليونانية . ويقال إن متى نفسه هو الذى قام بترجمته ؛ ويروى ابن البطريق وكثير من مورخى العرب أن مترجمه هو يوحنا مؤلف الانجيل الرابع الذى سيأتى ذكره[9] . ولا يعرف لهذا الرأى سند يعتد به . وقد أخطأ بعض مؤرخى العرب اذ قرر أن هذا السفر قد ترجم أول ما ترجم إلى اللغة اللاتينية[10] ، لأن الثابت أن أول ترجمة له هى الترجمة اليونانية كما تقدم ، وهى التى وصلت إلينا بدون أصله . وهذا هو ما يقرره ابن البطريق نفسه اذ يقول : « وفى عصر قلوديوس (يقصد كلود الأول Claude ler امبراطور الرومان ، ولد سنة ١٠ ق . م ، ونصب امبراطورا سنة ٤١ ميلادية ومات وهو فى منصبه سنة ٥٤) كتب متاوس (يقصد متيوس أى متى) انجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ، وفسره (أى ترجمه) من العبرانية إلى اليونانية يوحنا صاحب الانجيل » .

٢ – انجيل مرقص . مؤلفه هو القديس مرقص أحد التلاميذ السبعين ، وقد ترجمنا له فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وقد ألفه على أرجح الأقوال حوالى سنة ٦٣ أو ٦٥ وألفه باللغة اليونانية لا باللغة اللاتينية كما يذكر بعض مؤرخى العرب ، وكان تأليفه اياه تحت اشراف أستاذه بطرس رئيس الحواريين وبارشاده ، وقد رجع إليه فى بعض حقائقه واستمد منه بعض الذكريات وبعض حوادث التاريخ .

وقد روى ابن البطريق وبعض مؤرخى العرب أن هذا الانجيل قد كتبه بطرس نفسه ونسبه إلى تلميذه مرقص . ونص عبارة ابن البطريق : « وفى عهد نارون قيصر (يقصد نيرون Néron امبراطور روما من سنة ٥٤ إلى سنة ٦٨) كتب بطرس رئيس الحواريين انجيل مرقص فى مدينة رومية ونسبه إلى مرقص » . ولا يعرف لهذه الرواية سند يعتد به[11] .

---

(٩) المرجع السابق .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) انظر كذلك ابن خلدون ص ٦٥١ ، ٦٥٢ من الطبعة السابقة : « وكتب بطرس انجيله باللطينى ونسبه الى مرقاص تلميذه » ، وانظر تعليقنا على هذه العبارة رقم ٧٤١ .

٣ – انجيل لوقا : مؤلفه القديس لوقا ، وهو أحد التابعين ، وقد ترجمنا له فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وقد ألفه على أرجح الأقوال فى العصر نفسه الذى ألف فيه مرقص انجيله ، أى حوالى سنة ٦٣ أو ٦٥ ، وألفه باللغة اليونانية لا باللغة اللاتينية كما يذكر بعض مؤرخى العرب[١٢] ، وافتتحه بعبارة تدل على أنه قد كتبه لعظيم يسمى ثيوفيلوس Théophile فهو يقول فى فاتحته : « لقد كتب كثيرون فى تاريخ الأحداث التى جرت لدينا (يقصد بين المسيحيين الأولين) حسب ما نقل من هؤلاء الذين كانوا شهودا لهذه الحوادث . ولما كنت قد قمت ببحث هذه الأحداث بحثا دقيقا وتتبعتها من نشأتها الأولى ، لذلك رأيت من الخير أن أدونها لسعادتك أيها العظيم ثيوفيل فى صورة مسلسلة حتى تقف على الرأى اليقينى فى التعاليم التى تلقيتها »[١٣] . ولم يحاول لوقا أن يعرف بهذا العظيم . ولذلك اختلف فيه : فقيل انه كان مصريا ؛ وقيل أنه أحد عظماء اليونان أو أحد علمائهم ، وإلى هذا يذهب ابن البطريق وكثير من مؤرخى العرب . ونص عبارة ابن البطريق : « وكتب لوقا انجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له تاوفيلا » . ويقول ابن خلدون فى مقدمته : « وكتب لوقا منهم انجيله باللاتينى إلى بعض أكابر الروم »[١٤] . (وكلمة الروم يطلقها العرب على اليونان ، وقد وردت بهذا المعنى فى قوله تعالى « غلبت الروم فى أدنى الأرض ») .

٤ – انجيل يوحنا : ألفه الرسول يوحنا ، وهو أحد الحواريين الاثنى عشر وقد ترجمنا له فى الفقرة الأولى من هذا الفصل ، وألفه باللغة اليونانية ، وكان تأليفه اياه حوالى سنة ٩٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال ، فهو لذلك أحدث الأناجيل جميعا اذ تفصله عنها مرحلة زمنية كبيرة تبلغ زهاء ثلاثين عاما .

ومع أن جميع النحل المسيحية فى العصر الحاضر مجمعة على اعتماد هذا الانجيل واعتباره مقدسا موحى به واعتماد صحة نسبته إلى يوحنا بن زبدى أحد الحواريين

---

(١٢) انظر مثلا مقدمة ابن خلدون ص ٦٥١ من الطبعة السابقة وتعليقنا رقم ٧٣٩ على عبارته .

(١٣) انجيل لوقا فقرات ١ –٢ من الاصحاح الأول .

(١٤) انظر مثلا ابن خلدون صفحة ٦٥١ من الطبقة السابقة وتعليق ٧٣٩ .

الاثنى عشر ، فان بعض القدامى من الباحثين فى المسيحية كانوا ينكرون هذا الانجيل وينكرون كذلك جميع ما اسند إلى يوحنا من بقية أسفار العهد الجديد التى سيأتى ذكرها ، ويرون أن ذلك كله من تأليف أشخاص آخرين . بل لقد كانت بعض الفرق المسيحية القديمة نفسها فى أواخر القرن الثانى الميلادى تذهب هذا المذهب فى جميع ما ينسب إلى يوحنا من أسفار . ويرتاب كذلك كثير من الباحثين المحدثين فى صحة نسبة هذا الانجيل إلى يوحنا ، بل إن عددا كبيرا من ثقاتهم ليقطع بعدم صحة نسبته إليه . ومن هؤلاء جماعة العلماء الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية فى دائرة المعارف البريطانية ، فقد ذكروا فى ترجمتهم للأناجيل أنه « لا مرية فى أن مؤلف انجيل يوحنا شخص آخر غير يوحنا بن زبدى الحوارى المشهور . وقد ادعى مؤلفه فى متنه أنه هو يوحنا الحبيب إلى المسيح (انظر منشأ هذا اللقب فى ترجمتنا ليوحنا فى الفقرة الأولى من هذا الفصل) ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصا ، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا . وإن الذين يحاولون أن يربطوا ولو برابطة واهية بين ذلك الفيلسوف الذى ألف هذا الكتاب فى القرن الثانى من الميلاد وبين الحوارى يوحنا الصياد الجليل لن يجدوا لمحاولتهم هذه أى سند وستذهب جهودهم أدراج الرياح » . ومن هؤلاء كذلك مؤلفو دائرة المعارف الفرنسية المشهورة باسم « لاروس القرن العشرين » Larousse du XXe Siècle فقد ذكروا أنه « ينسب ليوحنا هذا الانجيل وأربعة أسفار أخرى من العهد الجديد (هى ثلاث رسائل من الرسائل الكاثوليكية ورؤيا يوحنا . — وستتكلم على هذه الأسفار عند كلامنا على بقية أسفار العهد الجديد فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل) . ولكن البحوث الحديثة فى مسائل الأديان لا تسلم بصحة هذه النسبة » .

— ٥ —

نظرة فى محتويات الأناجيل

ترجع أهم الأمور التى تشتمل عليها هذه الأناجيل إلى خمسة موضوعات وهى القصص والعقيدة والشريعة والأخلاق والزواج .

١ — أما القصص فيشغل أكبر حيز من كل انجيل من هذه الأناجيل ، ويعرض لقصة مريم وحملها بالمسيح وولادته ودعوته إلى دينه واجتبائه للحواريين والتلاميذ وصلبه وقيامته بعد صلبه ورفعه إلى السماء . فتذكر هذه الأناجيل أن مريم كانت مخطوبة أو زوجة ليوسف النجار(١٥) ، وأنها حملت بالمسيح من قبل أن يقربها يوسف ، فخالجه الشك فى أمرها ، وأراد أن يفارقها . فبعث الله إليه ملكا أمره أن يمسك عليه زوجه ، وأنبأه بأنها حملت من روح القدس وأنها ستلد غلاما زكيا ، وأن هذا الغلام سيخلص شعبه من خطاياه ، وطلب إليه من أجل ذلك أن يسميه المسيح أى المخلص وما سح الخطايا(١٦) . وقد ظهر فى أثناء حمله وولادته وطفولته ارهاصات ومعجزات كثيرة تنبئ بعظمته وقدسيته وتبشر بظهور دينه . ومن هذه الارهاصات ظهور يوحنا المعمدان ابن زكريا (وهو المعروف فى الاسلام باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام) وتبشيره بظهور المسيح وعمله على تهيئة أذهان اليهود لرسالته وحثهم على التوبة مما كانوا يقترفونه من معاص والاقلاع عما كانوا قد انحدروا إليه من زيغ فى العقيدة وغسل أجسامهم فى مياه نهر الأردن (وهو ما يعبر عنه المسيحيون بالتعميد) للرمز إلى تخليصهم مما كان قد علق بنفوسهم من أدران . ولما بلغ المسيح أشده ذهب إلى يوحنا ليعمده فى مياه الأردن كما يعمد غيره ، فأحجم يوحنا عن ذلك فى أول الأمر ، وذكر أنه لا ينبغى له أن يعمد من هو أعظم منه قدرا

---

(١٥) توصف مريم فى بعض فقرات انجيل متى بأنها كانت مخطوبة ليوسف النجار ، وفى فقرات أخرى من الانجيل نفسه بأنها كانت زوجة له (انظر فقرات ١٦ –٢١ من الاصحاح الأول من انجيل متى) .

(١٦) انظر فقرات ١٩ – ٢١ من الاصحاح الأول من انجيل متى .

وأكبر منزلة ، بل إن مثله فى حاجة لأن يعمده المسيح ، ولكنه عاد فأذعن للأمر تحت الحاح المسيح ورغبته .

وحينما بلغ المسيح الثلاثين من عمره أخذ ينشر دعوته وظهرت معجزات كثيرة على يديه . وقد لاقى فى سبيل دعوته كثيرا من ضروب العنت والأذى من اليهود والرومان . واجتبى لنشر رسالته فى مختلف أرجاء العالم عددا من السابقين الأولين إلى المسيحية وهم الحواريون والتلاميذ الذين ترجمنا لهم فيما سبق . ثم تآمر عليه الفريسيون من اليهود والحكام من الرومان وساعدهم فى مؤامرتهم هذه يهوذا الاسخريوطى الذى كان أحد الحواريين ثم خان عهده كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، وانتهت هذه المؤامرة بالحكم على المسيح بالاعدام صلبا ، وكانت سنه حينئذ خمسا وثلاثين سنة . فصلب ثم دفن ، وأقيم على قبره حراس أشداء يقظون حتى لا يخطف أنصاره جثته ويدعو أنه نشر من قبره مصداقا لما كان قد أخبر به قبل صلبه . ولكنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام من دفنه (وهذا ما يعبر عنه المسيحيون بالقيامة ، ويحتفلون به فى عيد يسمى « عيد القيامة ») وظل بعد ذلك مع حوارييه وتلاميذه وأنصاره أربعين يوما يعلمهم ويرشدهم ، ثم رفع إلى السماء وجلس على يمين أبيه .

٢ – وأما العقائد التى تشتمل عليها هذه الأناجيل فتدور كلها حول المسيح وتقرر ألوهيته وبنوته للأب ، وأن الالاه عبارة عن ثلاثة أقانيم (جمع أقنوم بضم الهمزة أى الأصل وهو تعريب لكلمة Hypostages من اليونانية Hypo, stasis بمعنى الأصل المركب) وهى الآب والابن وروح القدس ، وأن المسيح قد صلب ليكفر بذلك الخطيئة الأزلية péché originel وهى الخطيئة التى ارتكبها آدم اذ عصى ربه وأكل من الشجرة والتى انتقلت بطريق الوراثة إلى جميع نسله ، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتداهم المسيح بدمه ، وأن المسيح قد قام من قبره بعد صلبه بثلاثة أيام ، وظل مع حوارييه وأنصاره أربعين يوما ثم رفع إلى السماء حيث جلس على يمين أبيه ، يصرف شئون العالم . وسيتولى هو يوم القيامة حساب الناس على ما

فعلوه فى الحياة الدنيا ، فيجزى المحسن باحسانه والمسئ باساءته[١٧] . وأكثر الأناجيل صراحة فى تقرير ألوهية المسيح وملحقاتها هو انجيل يوحنا .

٢ – وأما فيما يتعلق بشئون الشريعة فإنه يفهم من هذه الأناجيل أن المسيحية قد أقرت شريعة اليهود المقررة فى العهد القديم ، ولم تستثن من ذلك إلا ما ورد عن المسيح نص بنسخه أو تعديله . وقد ورد فى الأناجيل نصوص قليلة ناسخة ومعدلة لبعض أحكام العهد القديم ومعظمها جاء على لسان المسيح فى وصيته المشهورة « بوصية الجبل » أو « خطبة الجبل » Sermon de la montagne وهى التى ألقاها وهو جالس على قمة جبل وسمعها جمهور كبير من الناس يتقدمهم حواريوه وتلاميذه[١٨] . ومن ذلك ما ورد فيها بشأن الطلاق وقصاص الجروح ورجم الزانية . فقد ذكر المسيح فى هذه الوصية أن موسى لقساوة قلوب الناس قد أباح الطلاق ولكنه هو (أى المسيح) يقرر أن « من يفارق إمرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى ، وأن من يتزوج مطلقة يزنى »[١٩] ، وأن « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها ، وإن فارقت المرأة زوجها وتزوجت بآخر ارتكبت بذلك جريمة الزنا[٢٠] » ، وأن « الزوجين بعد زواجهما يصبحان جسما واحدا فلا يعودان بعد ذلك اثنين ، فالذى جمعه الله هذا الجمع لا يصح أن يفرقه الإنسان »[٢١] . – وذكر فى الوصية نفسها بصدد قصاص الجروح أنه « قد تقرر فيما سبق (يقصد فى التوراة) أن العين بالعين والسن بالسن ، أما أنا فأقول أنه لا ينبغى أن تقاوموا من يتصدى لكم بالأذى ، وأنه إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، وإذا

---

(١٧) تمثل هذه النقطة الأخيرة ناحية من أهم النواحى التى تختلف فيها العقيدة المسيحية عن عقائد اليهود المقررة فى العهد القديم . فأسفار العهد القديم كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، قد خلت من ذكر البعث والنشور واليوم الآخر ونعيمه وجحيمه .

(١٨) انظر فى هذه الوصية الإصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى .

(١٩) فقرة ٣٢ إصحاح ٥ من إنجيل متى .

(٢٠) مرقس ، إصحاح ١٠ ، فقرتى ١١ ، ١٢ .

(٢١) مرقس ، إصحاح ١٠ ، فقرتى ٨ ، ٩ .

نازعك أحد فى إزارك وادعى ظلما أنه له فأعطه إزارك ورداءك »[٢٢] . — وروى يوحنا فى انجيله بصدد رجم الزانية أن جماعة من فقهاء اليهود المنتمين إلى فرقة الفريسيين قد جاءوا يوما إلى المسيح بإمرأة قد قبض عليها وهى متلبسة بجريمة الزنا ، وذكروا له أن موسى قد قرر فى شريعته حد الرجم على الزانية ، وطلبوا إليه أن يبين لهم رأية فى هذا الموضوع ، قاصدين بذلك امتحانه واستدراجه لعله يحكم بغير ما أنزل الله فيعطيهم بذلك سلاحا لمحاربته والقضاء عليه وعلى دعوته . فأطرق قليلا وأخذ يخط بيده على الأرض . وظلوا هم يكررون سؤالهم . فرفع بصره وقال لهم : ليبدأ برجمها من لم يرتكب منكم خطيئة . ثم أطرق برأسه وأخذ يخط بيده على الأرض . فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض ثم تسللوا واحدا بعد الآخر حتى انصرفوا جميعا ، لأنه لم يكن واحد منهم مبرءا من الخطيئة . فرفع المسيح بصره فلم يجد أمامه إلا المرأة . فقال لها أين هؤلاء الذين يتهمونك ؛ ألم يبدأ أحدهم برجمك ؟ فقالت لا يا سيدى . فقال لها وأنا أيضا لا أعاقبك ؛ إذهبى لسبيلك ولا ترجعى لما اقترفته[٢٣] . — ومعنى ذلك أن المسيح قد ألغى حد الزنا مكتفيا بأخذ العهد على مقترفه ألا يعود إليه مرة أخرى .

٤ — وأما فيما يتعلق بأخلاق الأناجيل فإنها ممعنة كل الامعان فى مثاليتها وحريصة كل الحرص على أن تقوم العلاقات بين الناس على أسس التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة ، حتى انها لتكاد تجعل ذلك واجبا من الواجبات . وتبدو هذه القواعد أوضح ما يكون فى كثير من الفقرات الواردة فى خطبة الجبل السابق ذكرها . فمن ذلك قول المسيح فى هذه الوصية : « لقد كان يقال لكم (يشير الى بعض التعاليم الواردة فى أسفار اليهود) أحبوا أبناء شعبكم وأبغضوا أعداءكم . وأما أنا فاقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا الذين يلعنونكم ، وقدموا الخير لمن يكرهونكم ، وأدعوا بخير لهؤلاء الذين يضطهدونكم ويعذبونكم ، حتى تستحقوا أن

---

(٢٢) متى ، إصحاح ٥ ، فقرات ٣٨ ، ٤٠ .

(٢٣) إنجيل يوحنا فقرات ١ — ١١ من الإصحاح الثامن .

تكونوا أبناء لأبيكم الذى فى السماوات[٢٤] » . ومن ذلك قوله فى الوصية نفسها : « سمعتم أنه قيل للقدماء : عين بعين وسن بسن . أما أنا فاقول لكم : لا تقاوموا الشر ، ولا تقاوموا من يتصدى لكم بالأذى . بل اذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر ، وإذا خاصمك أحد ظلما فى ازراك فاترك له رداءك أيضا[٢٥] . »

وغنى عن البيان أن تطبيق هذه المبادئ تطبيقا حرفيا يؤدى فى النهاية الى الغاء العقوبات .

٥ – وأما فيما يتعلق بالزواج وتكوين الأسرة فقد ساد فى المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج وأن الحصور[٢٦] أدنى الى الله ممن يقرب النساء ، وأن هذه المبادئ مستمدة من روح الأناجيل نفسها . وفى هذا يقول بولس الرسول فى رسالته الى أهل قورنثة « أن من يزوج ابنته يأت عملا طيبا ولكن من يعضلها[٢٧] يأت ما هو أفضل[٢٨] . . . وانه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع فى الخطيئة[٢٩] . . . وانى لأنصح للأيامى[٣٠] من الرجال والنساء أن يقتدوا بى فيظلوا على ما هم عليه ، فان لم يقو أحدهم على العفة فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج ، فلأن يتزوج خير من أن يكون وقودا لنار جهنم »[٣١] .

---

(٢٤) متى ، إصحاح ٥ فقرات ٤٣ – ٤٥ .

(٢٥) متى ، إصحاح ٥ فقرات ٣٨ – ٤٠ .

(٢٦) « الحصور من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك أو من لا يشتهين ولا يقربهن » ا هـ من القاموس المحيط . وبالمعنى الأول وحده يستخدم هذا الوصف فى هذه الفقرة .

(٢٧) عضل المرأة عدم تزويجها . ومنها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » (آية ١٩ من سورة النساء) .

(٢٨) فقرة ٣٨ ، إصحاح ٧ من الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة .

(٢٩) فقرتى١ ، ٢ من إصحاح ٧ من الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة .

(٣٠) الأيم بتسديد الياء الغرب رجلا كان أو إمرأة والجمع فيها أيامى ، ا هـ المصباح المنير.

(٣١) فقرتى ٨ ، ٩ من إصحاح ٧ من الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة .

ويعلق ترتوليان Tertullien [٣٢] على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس الرسول فيقول : « إن الأفضل من حالتين لا يلزم أن يكون خيرا فى ذاته . فلأن يفقد الإنسان عينا واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيه . ولكن فقد عين واحدة ليس من الخير فى شىء . فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم . ولكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معا : فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار . وإن قصارى ما يحققه الزواج أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذلل له السبيل إلى منزلة الإشراق ، ويتيح له أن يأتى بالمعجزات . فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء . والقديس يوحنا المعمدان Jean Bâptiste (يحيى بن زكريا) والرسول بولس وجميع اخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم فى سفر الخلود آثروا التبتل وحثوا الناس عليه . وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى [٣٣] أن تعبر البحر هى وجميع من كن يسرن خلفها من النساء فانشق لهن فيه طريق يبس وانتهين الى الساحل الآخر سالمات . والقديسة البتول تكلا Thécle قد ألقى بها الكفار الى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها ورقدت تحت قدميها بدون أن تمسها بسوء [٣٤] . وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء ، لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء . . . ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طهورا حصورا ولتكاثر النوع الانسانى بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين » [٣٥] .

---

(٣٢) من كبار فقهاء الكنيسة المسيحية (١٦٠ – ٢٤٠ م) .

(٣٣) هى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وقالت لأخته قصية فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . . . » (أيتى ١١ ، ١٢ من سورة القصص) .

(٣٤) تذكر القصص المسيحية أن الشهيدة تكلا Thécle كانت من السابقات الأوليات إلى اعتناق المسيحية فى القرن الأول الميلادى على يد الرسول بولس ، وأن الله نجاها بمعجزة من كثير من أنواع العذاب الذى امتحنها به الوثنيون ليثنوها عن عقيدتها . ويحتفل المسحيون بذكراها فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر .

(٣٥) Tertullien, De Monogamia 3, cité par Westermarck, "Idees Morales" T. II. 395, 396.

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة فى الدين بالضرورة ، أى التى لا يجوز انكارها ولا الشك فيها ، وأنها مستمدة من روح الأناجيل نفسها ، إن لم يكن من نصوصها ، حتى إن مجمع مديولانس Médiolanense المسيحى قد حكم على الراهب جوفينيان Jovenien بالطرد من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحى الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج[٣٦] . وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك الى الزواج على أنه مجرد ضرورة لصيانة المرء من الفاحشة . ومن ثم لا ينبغى فى نظرهم للمسيحى المتزوج أن يطلق لنفسه العنان فى اشباع شهواته ، بل ينبغى أن يفيد من ذلك بقصد واعتدال وفى الحدود التى تحقق الذرية والنسل « فيكون شأنه شأن الزارع الذى إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقى فى الأرض بذورا أخرى »[٣٧] .

وقد ذهبت فرقة المارسينيين Marcionites (وهى فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون Marcion)[٣٨] الى ما هو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريمًا باتا على جميع أفراد نحلتها كما فعلت فرقة الحسديين[٣٩] من اليهود وأوجبت على كل متزوج يرغب فى اعتناق مذهبها من الذكور والاناث أن يفترق عن زوجة ، وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

هذا ، وقد أدت نظرة المسيحية الى التبتل على أنه الحالة المثلى والى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، أدت هذه النظرة بالتدريج الى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان فى المذهب الكاثوليكى .

= وقد وافق ترتوليان على ما تضمنته الفقرة الأخيرة الخاصة بآدم ونسله جريجوار النيسى ويوحنا الدمشقى Gregoire de Nyssé et Jean de Damas وخالفه فى ذلك توماس الاكوينى St. Tomas d'Aquin الذى يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسى . ولكن هذا الاتصال لم يكن فى بدء الخليقة منطويا على اللذة الجنسية التى امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة Westermarck, op. cit., 396

(٣٦) Westermarck, op. cit, 396.

(٣٧) المرجع السابق نفسه .

(٣٨) سيأتى الكلام على مرسيون ومذهبه فى الفقرة التاسعة من هذا الفصل .

(٣٩) انظر فقرة ١٣ من الفصل الاول .

وغنى عن البيان أن هذه المبادئ المسيحية ، بحثها على العزوبة ونظرتها اليها على أنها الوضع الأمثل للرجل والمرأة ، تعمل على انقراض النوع الانسانى وتعجل بفناء الكون من عالمنا الأرضى .

* * *

هذا ، وتتفق الأناجيل الأربعة جميعا فى جوهر القصص والعقيدة والتشريع والأخلاق والزواج على النحو السابق بيانه . ويمتاز الانجيل الرابع ، وهو انجيل يوحنا ، عن الأناجيل الثلاثة ، السابقة له فى تاريخ تأليفها بنحو ربع قرن ، بمزيد من التفصيل فى العقائد والشرائع ، وبالتصدى للرد على البدع التى استحدثت فى المجتمعات المسيحية فى عصره ، وبمزيد من الصراحة فى اثبات الوهبة المسيح وبنوته للآب .

* * *

ومع اتفاقها فى الجوهر فانها تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل ، ويبدو خلافها هذا حتى فى القصص نفسه .

فمن ذلك خلافها فى نسب المسيح من جهة يوسف النجار زوج أمه مريم . فأنجيل متى يذكر فى نسبه هذا آباء غير الآباء الذين يذكرهم انجيل لوقا ، وبينما يعد لوقا فى سلسلة نسبه الى ابراهيم الخليل ستة وخمسين أبا يهبط بهم متى الى اثنين وأربعين فحسب ، وبينما يعد لوقا فى سلسلة نسبه الى داود واحدا وأربعين أبا يهبط بهم متى إلى سبع وعشرين ، وبينما يستفاد من متى أن جميع أباء المسيح من داود الى جلاء بابل[٤٠] ملوك مشهورون يظهر مما ذكر لوقا أن ليس منهم من يعد من الملوك المشهورين غير داود وناثان[٤١] .

ومن الغريب أن صاحبي هذين الانجلين يعتبران هذه السلسلة نسب المسيح من

---

(٤٠) انظر الفقرة الأولى من الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٤١) وازن بين فقرات ١ — ١٧ من الإصحاح الأول من إنجيل متى ، وفقرات ٢٣ ، ٣٨ من الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا .

جهة آبائه . مع أنها سلسلة ليوسف النجار ، والمسيح ليس ابنا ليوسف النجار . ولو أنهما ذكرا نسبه من جهة أمه لكان لقولهما مخرج ومبرر .

ومن ذلك اختلافها فى حادث القبض على المسيح . فقد قص انجيل متى خبر القبض عليه فى هذه العبارة : « وبينما كان المسيح يحدث أنصاره ، قدم يهوذا وهو واحد من حوارييه الاثنى عشر ، ومعه جمع كبير بسيوفهم وعصيهم وقد جاءوا من عند كبار الكهنة ورؤساء الشعب ، وكان يهوذا قد أعطاهم علامة ترشدهم الى المسيح ، وذلك بأن يتقدم اليه فيقبله . ولما تقدم اليه سلم عليه وقبله . فحينئذ عرفوا المسيح فتقدموا اليه وقبضوا عليه »[٤٢] . ولكن انجيل يوحنا يقص قصة القبض عليه على وجه آخر اذ يقول : « فأخذ يهوذا الجند وخداما من كبار الكهنة والفريسيين وجاءوا الى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح ، فخرج يسوع ، وهو عالم بكل ما سيحدث ، وقال لهم من تطلبون ؟ فأجابوه نطلب يسوع الناصرى ، فقال لهم أنا يسوع الناصرى . وكان يهوذا الذى أسلمه واقفا معهم . فلما قال لهم أنا يسوع الناصرى رجعوا الى الوراء وسقطوا على الأرض . فأعاد عليهم السؤال قائلا من تطلبون . فقالوا نطلب يسوع الناصرى ، فأجاب يسوع قد قلت لكم انى أنا هو . . . »[٤٣] .

---

(٤٢) فقرات ٤٧ – ٥٠ من إصحاح ٢٦ من إنجيل متى .

(٤٣) إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٨ ، فقرات ١ – ٩ . – هذا وقد وقف العلامة ابن حزم قسما كبيرا من الجزء الثانى من كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » على بيان وجوه الخلاف بين هذه الأناجيل وما تشتمل عليه من « أكاذيب ومتناقضات ودلائل دامغة على التحريف » (انظر صفحات ١ – ٧٠ من الجزء الثانى طبعة صبيح سنة ١٣٤٧ هـ) . ووقف كذلك العلامة رحمة الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق » نحو ستين صفحة لضرب أمثلة كثيرة لهذه الإختلافات والمتناقضات (صفحات ٩٦ – ١٢٣ ، ١٣٩ – ١٧٢ طبعة مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء) .

— ٦ —

نظرة فى موقف الاسلام من هذه لأناجيل

ومن هذا يظهر مبلغ الخلاف بين هذه الأناجيل ومحتوياتها من جهة وما يذكره القرآن عن انجيل عيسى وعن عيسى نفسه ورسالته وتاريخه من جهة أخرى .

فالقرآن يحدثنا عن كتاب سماوى أنزله الله على عيسى . وهذه أسفار كتبها أناس من البشر بأقلامهم بعد رفع المسيح بنحو ثلاثين سنة ، بل إن آخر انجيل منها وهو انجيل يوحنا قد كتبه صاحبه بعد رفع المسيح بنحو خمس وخمسين سنة ، وهى أسفار غير متفقة كل الاتفاق فى محتوياتها ، حتى فيما ترويه عن قصة المسيح نفسه .

والمسيح الذى يحدثنا عنه القرآن غير المسيح الذى تحدثنا عنه هذه الأناجيل . فالمسيح فى القرآن انسان من البشر اصطفاه الله كما اصطفى غيره من الرسل ، وكل ما بينه وبين غيره من البشر من خلاف هو أنه قد ولد بدون أب . وليس ذلك بعزيز على الله ، فقد خلق الله تعالى آدم من قبل بدون أب ولا أم : « أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »(٤٤) . أما مسيح هذه الأناجيل فهو كائن غريب : هو الاه وابن الله وأقنوم من الأقانيم الثلاثة المكونة لله أو متلبس بهذا الاقنوم !

والقرآن يذكر أن المسيح قد أرسل الى بنى اسرائيل ، كما أرسل اليهم من قبله رسل آخرون لينقذهم مما انحدروا اليه من كفر وضلال ويأتيهم بشريعة جديدة تلائم عصرهم ويهديهم صراطا مستقيما ، وأنه لم يقتل ولم يصلب ولكن شبه لهم ، وأن آدم قد أناب الى الله واستغفر من خطيئته التى ارتكبها اذ أكل من الشجرة فغفرها الله له ، وان الخطيئة لا يحمل وزرها غير مقترفها ، فلا تزر وازرة وزر أخرى . وفى هذا يقول القرآن الكريم : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى

---

(٤٤) آية ٥٩ من سورة آل عمران .

بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »[٤٥] ويقول : « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل »[٤٦] . ويقول : « اذ قالت الملائكة يا مريم أن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . . . ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم . . . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم . . . »[٤٧] ، ويقول : « . . . وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »[٤٨] . ويقول فى صدد آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم »[٤٩] ، ويقول : « وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »[٥٠] ، ويقول مقررا أن الوزر لا يحتمل اثمه وتبعته الا من اقترفه : « . . ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى »[٥١] . — بينما تذكر هذه الأناجيل أن من أهم الأغراض التى ظهر من أجلها المسيح ابن الله أن يكفر بدمه الخطيئة التى ارتكبها آدم والتى انتقلت بطريق الوراثة الى جميع نسله ، وأنه قد صلب بالفعل ، فحقق بذلك أهم غرض ظهر من أجله .

والقرآن يذكر أن الديانة التى جاء بها المسيح ديانة توحيد تدعو الى عبادة الله وحده . وفى ذلك يقول الله تعالى على لسان المسيح مجيبا على سؤال من ربه : « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت

---

(٤٥) آية ٨٧ من سورة البقرة .

٤٦ – آية ٧٥ من سورة المائدة .

(٤٧) آيات ٤٥ – ٥٠ من سورة آل عمران .

(٤٨) آيتى ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .

(٤٩) آية ٣٧ من سورة البقرة .

(٥٠) آيتى ١٢١ ، ١٢٢ من سورة طه .

(٥١) آيتى ٣٨ ، ٣٩ من سورة النجم .

فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد »[٥٢] ، بينما نرى أن الديانة التى تقررها هذه الأناجيل هى ديانة شرك تقوم على الاعتقاد بالتثليث ، أى أن الله ثالث ثلاثة : الآب والابن وروح القدس ، وعلى الاعتقاد بألوهية المسيح وبنوته لله وأنه أحد الأقانيم الثلاثة . وقد نعى القرآن الكريم فى أكثر من آية على المسيحين تحريفهم لكتاب الله فى أسفارهم المزعومة وتغييرهم لطبيعة المسيح ، وزعمهم أنه ابن الله ، واستبدالهم بعقيدة التوحيد التى أمروا بها عقيدة الشرك والتثليث . ومن ذلك قوله تعالى : « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم » (أى واتخذوا المسيح بن مريم كذلك الاها من دون الله) « وما أمروا الا ليعبدوا الاها واحدا ، لا الاه الا هو سبحانه عما يشركون »[٥٣] ، وقوله : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يا بنى اسرائيل أعبدوا الله ربى وربكم ، أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من الاه الا الاه واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . . . ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . . . »[٥٤] ، وقوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله الاه واحد ، سبحانه أنى يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا »[٥٥] ، وقوله : « وقالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون »[٥٦] ، وقوله :

---

(٥٢) آية ١١٧ من سورة المائدة .

(٥٣) آيتى ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

(٥٤) آيات ٧١ – ٧٥ من سورة المائدة .

(٥٥) آية ٧١ من سورة النساء .

(٥٦) آية ١١٦ من سورة البقرة .

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، أن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »[٥٧] ، وقوله : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .[٥٨]

والقرآن يذكر أن الشريعة التى جاء بها عيسى شريعة سماوية سمحة تحقق صلاح الناس فى الدنيا والآخرة ، وتعدل من الشرائع السابقة ما تقتضى الشئون الاجتماعية تعديله ، وترفع عن الناس أصرهم ، وتزيل جميع مظاهر العنت والحرج ، وتقيم وزنا لضرورات الحياة ، وتكفل للمجتمع الانسانى الاستقرار ، وتحيط نظم العمران وحدوده ووسائل أمنه بسياج من الحماية ؛ على حين أن الشريعة التى تذكرها هذه الأناجيل يبدو فى كثير من أحكامها مظاهر العنت والحرج والتضييق على الناس وعدم اقامة وزن لضرورات الحياة ولا لشئون الاجتماع ، كأحكامها الخاصة بتحريم الطلاق وتحريم الزواج على الزوجين اذا فرق بينهما عقب ارتكاب أحدهما لجريمة الزنا[٥٩] . بل إن بعض أحكامها ليترتب على العمل به اشاعة الفوضى واضطراب الأمن فى المجتمع وانتشار الفسق والفجور ، كاتجاهها إلى إلغاء حد الزنا وإلغاء العقوبات ، بل إن بعض أحكامها ليؤدى إلى انقراض النوع الإنسانى ويعجل بفناء الكون من عالمنا الأرضى كنظرتها الى العزوبة على أنها الوضع الأمثل للرجل والمرأة على النحو الذى سبق بيانه . وشريعة كهذه لا يمكن أن تصدر عن عاقل ، بله صدورها عن الله الحكيم العليم .

والقرآن يحث على التسامح والعفو عن الأذى ويجعل ذلك مثلا أعلى ، ويعظم

---

(٥٧) آيات ٨٨ – ٩٣ من سورة مريم .

(٥٨) آية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥٩) انظر تعليق على هذه الأحكام والموازنة بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية فى كتابى عن « حقوق الإنسان فى الإسلام » وفى كتابى عن « المرأة فى الإسلام » .

من أجر فاعله ، ولكن لا يوجبه على الناس ، لان هذه المنزلة لا تتاح الا لصفوة من الخلق وهم الذين وصلت نفوسهم الى درجة كبيرة من الصفاء ، وروضوها على الخير والايثار . ولذلك يقرر مسئولية البادئ ، ويقيم جزاءه على أساس القصاص والمقابلة بالمثل ، حتى لا يرهق الناس عسرا من أمرهم ، وحتى يحيط أرواحهم وأموالهم بسياج من القدسية والحماية ، وحتى لا يستهين الفرد بانتهاك حقوق الآخرين وتعدى حدود الله . وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « وأن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »[٦٠] ، ويقول : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، أنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[٦١] ويقول : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم »[٦٢] . ويقول : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون »[٦٣] ، ويقول : « وان طلقتم النساء من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وان تعفو أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم »[٦٤] . ويقول : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا »[٦٥] .

---

(٦٠) آية ١٢٦ من سورة النحل .

(٦١) آيات ٤٠ – ٤٣ من سورة الشورى .

(٦٢) آيتى ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت .

(٦٣) آيات ٢٧٧ – ٢٧٩ من سورة البقرة .

(٦٤) آية ٢٣٥ من سورة البقرة .

(٦٥) آية ٩١ من سورة النساء .

على حين أن هذه الأناجيل تحاول أن توجب على جميع الناس التسامح ، وتكاد تفرض على الفرد العفو عما يلحقه من غيره من ضرر وأذى : « فاذا صفعه أحد على خده الأيمن وجب عليه أن يدير له الخد الآخر ليصفعه عليه كذلك ، واذا نازعه أحد فى ازاره وادعى ظلما أنه له وجب عليه أن يتنازل له عن ازاره وردائه معا » . — وهذا ، ولا شك ، مثل أعلى للأخلاق الكريمة قد يفعله صفوة من خيار الناس ممن سماهم القرآن « ذوى الحظ العظيم » ، ولكن لا يعقل أن شريعة سماوية تجعله واجبا على جميع الناس كما تفعل هذه الأناجيل .

والقرآن يذكر أن الحواريين كانوا من أنصار الله ومن الداعين الى عقيدة التوحيد : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله »[٦٦] . على حين أن هذه الأناجيل ينسب تدوينها لبعض حواريى المسيح وتلاميذه وتابعيهم مع اشتمالها على تقرير عقيدة الشرك والتثليث وألوهية المسيح ونسبة الولد لله . فاما أن يكون الأشخاص الذين تنسب اليهم هذه الأناجيل هم غير الحواريين والأنصار الذين يحدثنا عنهم القرآن ، وإما أن يكونوا هم الذين يحدثنا عنهم القرآن ويذكر أنهم أنصار الله والدعاة إلى توحيده ، وتكون هذه الكتب من تأليف أناس آخرين ونسبت اليهم بهتانا وزورا . وقد رأينا فيما سبق أن أئمة الباحثين فى هذه الأمور فى الوقت الحاضر يقطعون بأن مؤلف انجيل يوحنا شخص آخر غير يوحنا الحوارى . وما حدث فى انجيل يوحنا يمكن أن يكون قد حدث مثله فى غيره من الأناجيل . بل إن جماعة العلماء الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية فى دائرة المعارف الفرنسية المعروفة باسم « لاروس القرن العشرين » ليذهبون الى أن التحقيق العلمى والتاريخى يؤيد أن هذه الأناجيل قد كتبها أناس غير الحواريين والتلاميذ والتابعين الذين تنسب اليهم .

بل إن مظاهر الشك والريبة التى أحاطت بأسفار المسيحين ومؤلفيها قد حملت بعض الباحثين من الفرنجة على الشك فى شخصية المسيح نفسه . بل لقد أنكر

---

(٦٦) آخر آية من سورة الصف .

بعضهم وجوده انكارا تاما ، وزعم أنه شخصية أسطورية نسجت حولها هذه العقائد والعبادات والشرائع . ومن أهم ما يستدل به أصحاب هذا الرأى أن يوسف المؤرخ اليهودى الشهير (٣٧ – ٩٥ ميلادية) لم يشر فى تاريخه الى ظهور شخص فى عصره اسمه المسيح ، مع أنه كان معاصرا للأحداث الأولى للمسيحية . ولكن المتأخرين من النصارى دسوا فى كتابه جملة عن المسيح ثبتت فى بعض نسخ هذا الكتاب وبدت حاملة فى مظهرها دليل اقحامها كأنها الرقعة الجديدة فى الثوب الخلق . ولا أدل على ذلك من أن العلامة ابن حزم وهو من رجال القرن الخامس الهجرى (٣٨٣ – ٤٥٧) قد ذكر فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » أن يوسف لم يذكر فى كتابه شيئا صريحا عن المسيح . وفى ذلك يقول : « قرأت فى تاريخ لهم جمعه رجل هارونى كان قديما فيهم ومن كبارهم وأئمتهم قد أدرك المسيح واسمه يوسف بن هارون . قد ذكر ملوكهم وحروبهم الى أن وصل إلى قتل يحيى بن زكريا عليه السلام ، فذكره أجمل الذكر ، وعظم شأنه ، وأنه قتل ظلما لقولة الحق . وذكر أمر المعمودية ذكرا حسنا ولم ينكرها ولا أبطلها . ثم قال فى ذكره لذلك الملك هردوس بن هردوس : وقتل هذا الملك من حكماء بنى اسرائيل وخيارهم وعلمائهم جماعة . ولم يذكر من شأن المسيح بن مريم أكثر من هذا »[٦٧] . وهذا يدل على أن كتاب يوسف المؤرخ اليهودى كان إلى عهد ابن جزم خاليا من إشارة صريحة إلى المسيح .

والحق أن مسيحهم هذا الذى يصورونه على أنه الاه لم يكن له وجود إلا فى مخيلاتهم ، ولم يوجد إلا المسيح الذى يحدثنا عنه القرآن ، وهو إنسان من البشر أرسله الله إلى بنى اسرائيل كما أرسل اليهم غيره من الرسل من قبله . واغفال يوسف المؤرخ اليهودى لذكره يرجع إلى عداوة اليهود لهذا الدين الجديد ومحاولتهم طمس معالمه ، أو لعل ظهور المسيح الحقيقى كان فى عصر لاحق لعصر المؤرخ يوسف وهو العصر الذى يقرر المسيحيون أن المسيح قد ظهر قبيله .

---

(٦٧) صفحتى ٨٢ ، ٨٣ من الجزء الثانى من كتاب « الفصل ... » لابن حزم .

– ٧ –

الأناجيل غير المعتمدة عند المسيحيين

كان لدى المسيحيين فى القرنين الأول والثانى الميلاديين أناجيل كثيرة غير الأناجيل الأربعة السابق ذكرها ، وكان لكل فرقة من فرقهم انجيلها أو أناجيلها الخاصة التى تعتمد عليها وتغفل ما عداها من الأناجيل أو تحكم بزيفها وبطلانها . فكان ثم انجيل ينسب لمتى غير انجيله السابق ذكره فى الأناجيل الأربعة ، وانجيل ينسب لبرنابا ، وانجيل ينسب للحوارى يعقوب Saint Jacques وانجيل ينسب للحوارى توماس Saint Thomas (ويقص هذان الانجيلان أمورا أغفلتها الأناجيل الأربعة عن تاريخ مريم وطفولة المسيح) ، وانجيل ينسب للقديس نيكوديم Saint Nicodeme (أحد رؤساء اليهود فى عهد المسيح . وقد لقى المسيح وجرت له معه مناقشات فى الشئون الدينية ، فآمن برسالته ، واظهر ايمانه بعد رفع المسيح .– وقد كتب انجيله باليونانية ، ويقص فيه بعض تفاصيل لم تذكرها الأناجيل الأربعة عن موت المسيح ونزوله إلى « المطهر » أو البرزخ أو الأعراف les limbes ، وهو عند المسيحيين مقر الأرواح الطيبة التى مات أصحابها قبل بعث المسيح ، ومقر أرواح الأطفال الذين ماتوا من قبل أن يعمدوا ، ومقر مرتكبى الخطايا من المسيحيين ، ويجتاز هؤلاء جميعا فى المطهر مرحلة ألم وعذاب قبل أن يدخلوا الجنة) ، وانجيل يقال له « انجيل السبعين » وينسب إلى تلامس ، وانجيل يقال له انجيل الاثنى عشر l'Evangile des Douze ، وانجيل اشتهر باسم « التذكرة » ، وانجيل كان يسمى « انجيل العبريين أو الناصريين » l'Evangile des Hébreux ou des Nazareens وانجيل كان يسمى « انجيل المصريين » l'Evangile des Egyptiens ، وكان لكل من أتباع ديصان وأتباع

مانى وأتباع مرقيون أو مرسيون Macions[٦٨] وأتباع ابيون les Ebionites انجيل خاص يختلف عن انجيل من عداهم .

ثم رأت الكنيسة المسيحية فى أواخر القرن الثانى الميلادى أو أوائل القرن الثالث أن تستبعد الأناجيل غير المعتمدة فى نظرها وتحكم ببطلانها وتحافظ على ما تعتقد صدق حقائقه وصحة نسبته إلى صاحبه ؛ فاختارت الأناجيل الأربعة السابق ذكرها من بين الأناجيل الكثيرة التى كانت رائجة حينئذ ؛ وقررت أنها هى وحدها الأناجيل الصادقة فى حقائقها وفى صحة نسبتها إلى أصحابها ، وأن ما عداها من الأناجيل أناجيل موضوعة مزيفة غير صحيحة فى حقائقها ، ومعظمها غير صحيح فى نسبته إلى من ينسب إليه ؛ وأرادت المسيحيين على قبولها ورفض ما عداها ؛ وتم لها ما أرادت ؛ فصارت هذه الأناجيل الأربعة هى المعتمدة دون سواها ؛ مع أن هذه الأناجيل كانت قبل ذلك العهد أقل ذيوعا وشهرة من بعض الأناجيل الأخرى ، بل كانت مجهولة لكثير من المسيحيين ؛ وأول من أذاع ذكر هذه الأناجيل القديس ارينيه Saint Irénée اذ قرر فى سنة ٢٠٩ أن هذه الأناجيل هى مجرد صور لإنجيل واحد l'Evangile tetramophe ثم جاء من بعده القديس كليمان الاسكندرى Saint Clément d'Alexandrie (من كبار رجال الكنيسة وفقهائها توفى سنة ٢٢٠) وقرر فى سنة ٢١٦ أن من واجب المسيحى التسليم بصحة هذه الأناجيل الأربعة .

هذا ، وسنلقى فيما يلى نظرة على ثلاثة من الأناجيل غير المعتمدة ، وهى انجيل متى غير المعتمد وانجيل الابيونيين وانجيل برنابا ، لاختلافها اختلافا جوهريا عن الأناجيل الأربعة فى بعض نواحى العقيدة وشخصية المسيح وتاريخه وتاريخ مريم ، ولاتفاقها فى بعض هذه الأمور مع ما قرره القرآن ، مفصلين القول بعض التفصيل فى انجيل برنابا لكثرة وجوه الخلاف بينه وبين الأناجيل الأربعة وكثرة وجوه الاتفاق بينه وبين القرآن وعقائد المسلمين ، ومجملين القول فى الانجيلين الآخرين لأنهما لا يبلغان مبلغ انجيل برنابا فى هذه الوجوه .

---

(٦٨) سنتكلم على مرسيون وفرقته فى الفقرة التاسعة من هذا الفصل .

أما انجيل متى غير المعتمد عند المسيحيين l'Evangile de Pseudo Mathieu فمن أهم ما يختلف فيه عن الأناجيل الأربعة ما يذهب إليه فى تاريخ مريم أم المسيح . وذلك أن الأناجيل الأربعة ، كما تقدمت الاشارة إلى ذلك ، تذكر أن مريم كانت مخطوبة أو زوجة ليوسف النجار ، وأنها جاءت بالمسيح بدون أن يمسها يوسف . وأما انجيل متى غير المعتمد عندهم فيقرر أنها لم تكن زوجة ولا مخطوبة وإنما كانت من العذارى اللائى نذرن أنفسهن ونذرهن أهلن لخدمة المعبد ، أى كانت من الراهبات اللائى كن يتوفرن على العبادة وخدمة المعابد التى يعتكفن فيها[٦٩] وهذه الطائفة كان يحرم على أفرادها الزواج والاتصال بالرجال ، كشأن الراهبات المسيحيات فى الوقت الحاضر . ويتفق هذا من بعض نواحيه مع ما ورد فى القرآن الكريم فى هذا الصدد إذ يقول : « إذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطني محررا ، فتقبل منى انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم ، وأنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، أن الله يرزق من يشاء بغير حساب »[٧٠] .

وأما انجيل الأبيونيين l'Evangile des ébionites فهو انجيل مدون باللغة الآرامية كانت تتمسك به فرقة مسيحية تسمى فرقة الابيونيين نسبه إلى زعيمها ابيون Ebion . وقد ظل لهذه الفرقة أشياع حتى أواخر القرن الرابع الميلادى ثم انقرضت بعد ذلك . ويقر هذا الانجيل جميع شرائع موسى ، ويعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم وينكر ألوهيته ، ويعتبره مجرد بشر رسول . وهو فيما يتعلق بشخصية المسيح يتفق مع العقائد الاسلامية المستمدة من نصوص القرآن الكريم .

---

(٦٩) V. Westermarck. Origine et Development des Idees Morales (tra. fran.) T. II, p. 398.

(٧٠) آيات ٣٥ – ٣٧ من سورة آل عمران .

وأما انجيل برنابا فهو منسوب للقديس برنابا الذى ترجمنا له فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وكان معروفا لدى المسيحيين منذ أقدم عصورهم أن لبرنابا انجيلا ، وورد ذكر هذا الانجيل فيما ينسب لقدامى رجال الكنيسة من بحوث وقرارات ، ومن ذلك القرار الذى أصدره البابا جلاسيوس الأول Saint Gélase Ier (الذى تولى بابوية الكنيسة الكاثوليكية بروما من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٦) وعدد فيه الكتب المنهى عن قراءتها ، وذكر من بين هذه الكتب انجيل برنابا . وهذا يدل على أن انجيل برنابا كان معروفا فى القرن الخامس الميلادى ، أى قبل بعثة رسولنا عليه السلام بنحو قرنين .

غير أنه يظهر أنه قد اختفت من بعد ذلك جميع نسخ هذا الانجيل ولم يعد الناس يعرفون شيئا عن محتوياته . ولعل تحريم قراءته هو الذى انتهى به إلى ذلك . وظل الأمر على هذه الحال حتى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى . وفى سنة ١٧٠٩ عثر كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا على نسخة من هذا الإنجيل مكتوبة باللغة الايطالية وعلى هامشها تعليقات باللغة العربية . وانتقلت هذه النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكى بفينا .

وغنى عن البيان أن هذه النسخة مترجمة عن اللغة التى كتب بها فى الأصل هذا الانجيل . فإذا صح أن مؤلفه هو برنابا فإن من الراجح أن يكون قد كتبه باحدى اللغات الثلاث التى كانت المؤلفات الدينية وغيرها تدون بها فى عصره وفى بيئته وهى اللغات العبرية والآرامية واليونانية . ولا يمكن أن يكون قد كتب فى الأصل باللغة الايطالية ؛ لأن اللغة الايطالية لغة حديثة لم يتم تكونهاوانشعابها عن أمها اللاتينية الا حوالى القرن السادس عشر الميلادى .

هذا ، ويختلف هذا الأنجيل اختلافا جوهريا عن الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين فى كثير من نواحى العقيدة وشخصية المسيح وتاريخه ، ويتفق كل الاتفاق فيما يقرره فى هذه الشئون مع العقيدة الاسلامية المستمدة من القرآن . ويرجع أهم ما خالف فيه الأناجيل الأربعة المعتمدة ووافق فيه العقيدة الاسلامية إلى الأمور الثلاثة الآتية :

١ – أنه يقرر أن المسيح ليس إلا بشرا رسولا وأنه ليس إلاها ولا ابنا لله .
فهو يقول فى مقدمة انجيله : « أيها الأعزاء إن الله العظيم قد اختصنا بنبيه يسوع المسيح رحمة عظيمة للعالمين ، وخصه بمعجزات اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين ، فأخذوا يبشرون بتعاليم ممعنة فى الكفر ، داعين أن المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر الله به ومجوزين كل لحم نجس[٧١] . وقد ضل مع هولاء بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسف والأسى . وهذا هو ما دعانى لأن أسطر الحق فى هذه الشئون » . ويروى فى آخر الفصل الثالث والتسعين أنه قد « قدم على المسيح كبير الكهنة مع الوالى الرومانى هيرودس ملك اليهود ، فذكر له كبير الكهنة أن فريقا من الناس يقولون إنه الاه وأن فريقا آخر يقولون إنه ابن الله ، وطلب إليه أن يعمل على ازالة هذه الفتنة التى ثارت من أجله . فقال له يسوع وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تخمد الفتنة ؟ ! وهل جننت أنت أيضا ؟ ! وهل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا ؟ ! . ثم قال : إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برئ من كل ما قاله الناس عنى من أنى أعظم من البشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ...» . – ويقول فى آخر الفصل السبعين أن يسوع قد نظر إلى الحواريين عندما بلغه افتتان الناس به وادعاؤهم أنه الاه أو أنه ابن الله ، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى ذلك . فأجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع وانتهره قائلا : « اذهب وانصرف عنى ، لأنك أنت الشيطان .... » .

٢ – أنه يقرر أن المسيح لم يصلب ولكنه شبه لهم ، فيتفق هذا مع ظاهر ما يقرره القرآن الكريم اذ يقول : « ... وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ...»[٧٢] . فيقرر هذا الانجيل أن الله التى شبه المسيح على يهوذا الاسخريوطى فأخذوه وصلبوه ظانين أنه المسيح . وفى هذا يقول ما نصه : « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جم

(٧١) انظر ترجمة الحوارى يعقوب الصغير وما أدخله من تعديل فى موضوع الختان واحلال لحم الخنزير فى الفقرة الأولى من هذا الفصل صفحتى ٨٠ ، ٨١ .

(٧٢) آية ١٥٧ من سورة النساء .

غفير ، فانسحب إلى البيت خائفا . وكان الأحد عشر نياما (يقصد الحواريين الأحد عشر) . فلما رأى الله الخطر على عبده أمر سفراءه جبريل وميخائيل ورفائيل وأدريل (أى جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل) أن يأخذوا يسوع من العالم . فأخذوه من النافذة المشرفة على الجنوب ووضعوه فى السماء الثالثة مع الملائكة الذين يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون ... ودخل يهوذا بعنف إلى الحجرة التى عرج منها بالمسيح ؛ وكان التلاميذ كلهم نياما . فأتى الله بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه ، وأصبح شبيها بيسوع فى كل شىء ، حتى اننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين هو المعلم (يقصد المسيح) . لذلك تعجبنا واجبنا أنت يا سيدى معلمنا ، أنسيتنا الآن ...» .

ويذكر فى موطن آخر : « الحق أقول : إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع ، لذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أنه كان نبيا كاذبا ، وأن الخوارق التى ظهرت على يديه إنما ظهرت بصناعة السحر ، لأن يسوع قال انه لا يموت ...» . ثم يذكر أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه وليزيل ما علق بنفوس الناس من شك فى أمره ومن اعتقاد بأنه هو الذى صلب ، وأنه نزل بعد ثلاثة أيام . ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات ، وقال لهم : ان الله قد وهبنى أن أعيش ؛ اتحسبوننى أنا والله كاذبين ... الحق أقول لكم اننى لم أمت ، بل الذى صلب هو يهوذا الخائن . احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، وكونوا شهودى فى كل اسرائيل وفى العالم أجمع على جميع الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

٣ – أنه يقرر أن مسيا أو المسيح المنتظر الذى ورد ذكره فى العهد القديم ليس يسوع بل محمدا عليه السلام . وقد ذكر محمدا ، أى لفظا يفيد مدلوله شخصا كثر حمد الناس له وثناؤهم عليه ، فى كثير من فصوله (« فار قليط » تعريب لكلمة « بركلتوس » اليونانية . ومعناها الذى يحمد حمداً كثيرا)[١]، وقال إنه رسول الله وإن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور : لا إلاه إلا الله ؛

محمد رسول الله . ويروى عن المسيح أنه قال : « ان الآيات التى يظهرها الله على يدى تدل على انى أتكلم بما يوحى إلى به ؛ ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه (يقصد المسيح المنتظر الذى يتحدث عنه العهد القديم) لاننى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » . ويذكر فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاما وافيا فى تبشير المسيح بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح أن يصرح لهم به ، فصرح بما يعلن حقيقته ويبين ما له من شأن .

وهذا يتفق فى جملته مع ما يذكره القرآن عن عيسى اذ يقول : « واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[٧٣] .

ويخالف هذا الانجيل كذلك العقيدة المسيحية والعقيدة اليهودية ويتفق مع أرجح الآراء عند المسلمين فيما ينقله عن المسيح بشأن الذبيح الذى تقدم به ابراهيم عليه السلام للفداء ، فيقرر أن المسيح قد بين أن هذا الذبيح هو اسماعيل وليس اسحاق كما هو مذكور فى توراة اليهود . وهذا هو نص ما جاء فى انجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام . « الحق أقول لكم ، انكم اذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا . لأن الملاك قال يا ابراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله . فأجاب ابراهيم ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلم الله حينئذ ابراهيم قائلا خذ ابنك بكرك واصعد إلى الجبل لتقدمه ذبيحة . فكيف يكون اسحاق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين » .

هذا ، ويقدم فقهاء المسيحيين وباحثوهم شواهد كثيرة تدل على أن هذا الانجيل موضوع بقلم بعض المسلمين ، وأن مؤلفه قد نسبه زورا إلى برنابا لترويج ما يتضمنه . وكثير مما يقدمه هؤلاء من شواهد لا يقطع بصحة ما يذهبون إليه ؛ وإن كان بعض ما

---

(٧٣) آية ٦ من سورة الصف .

يشتمل عليه هذا الكتاب نفسه يحمل على الظن بأنه موضوع ، وخاصة ما يقرره من أمور تمثل روايات ذكرها بعض المتأخرين من مؤلفى المسلمين ولا يطمئن إلى مثلها المحققون منهم ، كما يقرره عن آدم وأنه لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وما ينسبه إلى المسيح من أقوال تمثل تحقيقات الفقهاء والمؤرخين لا كلام الأنبياء كالأقوال التى ينسبها إلى المسيح بشأن الذبيح وما يذكر أن المسيح قد قدمه من أدلة على أنه هو اسماعيل لا اسحاق .

والإسلام ليس فى حاجة إلى كتاب كهذا تحوم حوله شكوك كثيرة لتأييد ما يذكره القرآن عن المسيح وحقيقة ديانته وتبشيره بالرسول . فالقرآن ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو الذى نتخذه دليلا فى الحكم على أناجيلهم المزعومة ومبلغ تحريفها للانجيل الذى أنزله الله على عيسى ؛ ولا ينبغى أن نتخذ سفرا مشكوكا فى صحة نسبته إلى صاحبه دليلا على ذلك ولا أن نعتمد عليه لاقناع المسيحيين ببطلان ما أقروه من أناجيل :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » [آية ٤٨ من سورة المائدة] .

— ٨ —

بقية أسفار العهد الجديد

تمثل الأناجيل الأربعة المعتمدة المجموعة الأولى من أسفار العهد الجديد . وهى فى نظرهم أهم مجموعاته . أما بقية أسفار هذا العهد فعددها ثلاث وعشرون سفرا منها سفران منفردان ، وهما سفر « أعمال الرسل » للوقا وسفر « رؤيا يوحنا » ومجموعتان من الأسفار : تضم احداهما أربعة عشر سفرا وهى رسائل بولس ؛ وتضم الأخرى سبعة أسفار وهى الرسائل الكاثوليكية . وقد فرغنا فيما سبق من الكلام على مجموعة الأناجيل ، وستتكلم فيما يلى على الأسفار الثلاثة والعشرين الباقية من أسفار العهد الجديد ، ونذكرها حسب ترتيبها التقليدى فى هذا العهد .

١ — سفر « أعمال الرسل » Astes des Apôtres (أو سفر بركسيس Praxis مأخوذة من كلمة يونانية معناها الأعمال) . وينسب هذا السفر للقديس لوقا صاحب الانجيل الثالث الذى تحدثنا عنه وعن انجيله فى الفقرتين الثانية والرابعة من هذا

الفصل . وقد كتبه باللغة اليونانية حوالى سنة ٦٣ ميلادية على أرجح الأقوال ، أى فى العصر نفسه الذى كتب فيه انجيله . ولا يستأثر هذا الكتاب إلا بحيز يسير من العهد الجديد لا يزيد كثيرا على عُشره (يستغرق نحو ثلاثين صفحة من صفحات العهد الجديد البالغة نحو ٢٥٠ صفحة فى احدى ترجماته بالفرنسية) . وموضوعه تاريخ حياة الحواريين وتاريخ طائفة ممن كان لهم أثر كبير فى المسيحية من التلاميذ والتابعين . فالكلمة الأولى من عنوان هذا الكتاب ، وهى كلمة « أعمال » ، معناها تاريخ حياتهم أو ما عملوه وما أثر عنهم . والكلمة الثانية من عنوانه ، وهى « الرسل » ، معناها فى اصطلاح المسيحيين الحواريّون ، لأنهم يعتقدون أن هؤلاء قد أرسلهم الرب وهو عيسى إلى مختلف شعوب العالم لنشر المسيحية بين الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ؛ وعددهم كما تقدم اثنا عشر حواريا ؛ وقد ضم اليهم فيما بعد الرسول بولس الذى ظهر له المسيح بعد رفعه — على حد ما يعتقده المسيحيون — وأرسله إلى الأمم الضالة . غير أن هذا الكتاب لا يقتصر على تاريخ الحواريين الأصليين وتاريخ بولس ، بل يعرض كذلك ، كما قلنا ، لتاريخ طائفة ممن كان لهم أثر كبير فى المسيحية من التلاميذ والتابعين كبرنابا ومرقص . وهو يتناول شخصياتهم بتفصيل فى مختلف شئون حياتهم ، وخاصة ما تعلق منها بالناحية الدينية ، كجهادهم وتقلبهم فى البلاد لنشر المسيحية ، وما أحرزوه من نجاح فى هذا السبيل ، وما ظهر على أيديهم من معجزات ، وما لاقوه من عنت وعذاب واستشهاد . وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يتحدث عن كثير من العقائد والشرائع التى كان ينشرها هؤلاء بين الناس . وقد عنى لوقا بوجه خاص فى كتابه هذا بتاريخ حياة بولس وجهاده فى سبيل نشر المسيحية وما ظهر على يديه من معجزات ، حتى لقد وقف عليه وحده ما يزيد على نصف صفحات كتابه . وتدل العبارة التى افتتح بها لوقا كتابه هذا أنه قد كتبه للشخص نفسه الذى كتب له انجيله ، وهو ثيوفيلوس . فهو يفتتح كتابه بهذه العبارة : « ثيوفيلوس ، قد تكلمت فى كتابى الأول (يقصد انجيله الذى كتبه لهذا العظيم نفسه) على جميع ما فعله المسيح وما قرره من تعاليم منذ نشأته إلى أن رفع إلى السماء ، بعد أن أعطى أوامره ، عن طريق روح القدس ، إلى الحواريين الذين اصطفاهم » . ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد تاريخ الحواريين بعد حادث الصلب

فيقول : « وقد ظهر المسيح حيا للحواريين بعد صلبه ، وقدم لهم عدة أدلة على صدقه ، وظل بينهم أربعين يوما متحدثا إليهم بأمور كثيرة عن ملكوت الله ...» .

ولما كان هذا الكتاب يتفق مع الأناجيل فى أن موضوعه الأساسى موضوع تاريخى ، لأن الموضوع الأساسى للأناجيل هو تاريخ المسيح ، والموضوع الأساسى لهذا الكتاب هو تاريخ أنصاره من بعده ، لذلك جرت العادة بأن تطلق كلمة « الأسفار التاريخية » على الأناجيل الأربعة وسفر أعمال الرسل . صحيح أن كل سفر من هذه الأسفار يعرض فى ثنايا ما يذكر من تاريخ لكثير من شئون العقيدة والشريعة ؛ ولكنه يتناول هذه الأمور عرضا وبمقدار اتصالها بموضوعه الأساسى وهو التاريخ .

هذا ، ويذكر التاريخ المسيحى أسفارا أخرى قديمة عرضت للموضوع نفسه الذى عرض له هذا الكتاب وسميت باسمه ، من أشهرها سفر « أعمال الرسل » لبرنابا . ولكن الكنيسة المسيحية اعتمدت هذا الكتاب وحده . وهو سفر « أعمال الرسل » للوقا ؛ ورفضت ما عداه من الأسفار القديمة التى عرضت لموضوعه نفسه وحكمت بزيفها وعدم صحة نسبتها الى من تنسب اليهم من الحواريين والتلاميذ ، أى اعتبرتها من الأسفار الخفية Apocryphes حسب الاصطلاح المسيحى (٧٤) ، كما حكمت الحكم نفسه على ما عدا الأناجيل الأربعة من الأناجيل التى كانت معروفة لدى المسيحيين فى عهودهم الأولى . ومن أجل ذلك بقى سفر « أعمال الرسل » للوقا وانقرض ما عداه من الأسفار القديمة التى عرضت لما عرض له ، فلا يحدثنا التاريخ المسيحى الا عن أسمائها ، ولا نكاد نعلم شيئا يعتد به عن مبلغ الخلاف بينها وبين سفر لوقا : وان كان من الممكن أن نستنتج ، فى ضوء ما ذكرناه عن انجيل برنابا ومبلغ الخلاف بينه وبين الأناجيل الأربعة ، أن سفر « أعمال الرسل » الذى ينسب الى برنابا لا بد أن يكون كذلك مختلفا فى قصصه التاريخى اختلافا كبيرا عن سفر « أعمال الرسل » للوقا .

---

(٧٤) انظر معنى هذه الكلمة فى الفقرة السابعة من الفصل الأول من هذا الكتاب ، صفحة ٢٣ وتوابعها .

(٢ – ١٥) رسائل بولس Epitres de Saint Paul وعددها أربع عشرة رسالة كتبها كلها فى الأصل باللغة اليونانية فى عصور مختلفة تبدأ من نحو سنة ٤٥ وتنتهى حوالى سنة ٦٥ ، منها عشر رسائل الى بعض البلاد وبعض الشعوب وأربع رسائل الى بعض تلاميذه .

أما الرسائل العشر التى أرسلها الى بعض البلاد وبعض الشعوب فهى : رسالة الى الرومان ؛ ورسالتان الى أهل قورنتوس Corinthiens ؛ ورسالة الى أهل غلاطيا Galates ؛ ورسالة الى أهل افسوس Ephésiens ؛ ورسالة الى أهل فيلبى Philippiens ؛ ورسالة الى أهل كولوس Colossiens ؛ ورسالتان الى أهل تسالونيكى Thessalonisiens ؛ ورسالة الى العبريين .

وأما الرسائل الأربع التى أرسلها الى بعض تلاميذه فهى : رسالتان الى تلميذه تيموثاوس Timothée ؛ ورسالة الى تلميذه تيطس Tite ؛ ورسالة الى تلميذه فيليمون philémon .

وترتب رسائل بولس فى العهد الجديد حسب ترتيبها السابق ما عدا رسالة بولس الى العبريين فتوضع فى آخر هذه الرسائل جميعا .

وتستأثر هذه الرسائل بأكبر حيز من العهد الجديد ، حتى أنها لتستغرق وحدها نحو ثلث صفحاته (تستغرق نحو ٧٥ صفحة من صفحات العهد الجديد البالغ عددها نحو ٢٥٠ فى احدى ترجماته الى الفرنسية) .

وهى تعرض فى صورة مفصلة لكثير من عقائد الديانة المسيحية وشرائعها وعباداتها وأخلاقها ، وتوجه قسطا كبيرا من عنايتها الى توضيح العقيدة وتقرير ألوهية المسيح وبنوته لله ومبدأ التثليث :

La Trinité : les trois hypostases : le Père , le Fils ; et le Saint Esprit .

ومن أجل ذلك تعتمد المسيحية الحاضرة على رسائل بولس أكثر من اعتمادها على ما عداها من أسفار العهد الجديد ، وتنسب هذه المسيحية الى بولس أكثر مما تنسب الى سواه . حتى ان كلمة « الرسول » اذا أطلقت تنصرف عندهم اليه وحده .

صحيح أن الأناجيل نفسها وسفر أعمال الرسل قد عرضت كذلك للعقائد والشرائع والأخلاق ، ولكنها عرضت لهذه الأمور فى صورة مجملة وفى ثنايا قصصها التاريخى عن المسيح وأنصاره . وبعض ما ذكرته عن هذه الأمور قد أوردته فى عبارات غامضة يعوزها الشرح والتوضيح . على حين أن رسائل بولس قد جعلت هذه الأمور موضوعها الأصيل . وعالجتها فى صورة مفصلة واضحة ، وكانت صريحة كل الصراحة فى إثبات ألوهية المسيح وبنوته لله وعقيدة التثليث .

. هذا ، ولم تعتمد الكنيسة هذه الرسائل جميعها الا فى سنة ٣٦٤ . أما قبل ذلك فكان بعض هذه الرسائل موضع شك فى صحة نسبته الى بولس عند كثير من المسيحيين ، حتى ان مجمع نيقية Concile de Nicée المنعقد سنة ٣٢٥ وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية » oeucuméniques (أى التى اجتمع فيها ممثلون لجميع بلاد العالم المسيحى) لم يعترف برساله بولس الى العبرانيين واعتبرها مزيفة مدسوسة عليه .

وقد ظهر للمحدثين من علماء المسيحيين المشتغلين فى الوقت الحاضر بشئون ديانتهم وأسفارها أن من هذه الرسائل ثلاث رسائل موثوق بصحتها وصحة نسبتها الى بولس وهى رسالته الى الرومان ورسالتاه الى أهل كورنتوس ، وأربع رسائل مقطوع بعدم صحة نسبتها اليه وهى رسالته الى أهل افسوس ورسالتاه الى تيموثاوس ورسالته الى تيطس ، وأن ما بقى من هذه الرسائل مشكوك فى صحة نسبتها اليه .

(١٦ — ٢٢) الرسائل الكاثوليكية les Epitres Catholiques وهى سبع رسائل كتبت كلها فى الأصل باللغة اليونانية ، وكتبت فى عهود مختلفة ، يرجع أقدمها الى حوالى سنة ٥٠ وأحدثها الى حوالى سنة ٩٠ بعد الميلاد ، منها رسالة للحوارى يعقوب الصغير ورسالتان لبطرس كبير الحواريين وثلاث رسائل للحوارى يوحنا صاحب الانجيل الرابع ورسالة للحوارى يهوذا أخى يعقوب الصغير.— وهى مرتبة فى العهد الجديد حسب ترتيبها السابق .

ولا تستأثر هذه الرسائل كلها فى العهد الجديد إلا بحيِّز يسير لا تزيد نسبته كثيرا على نسبة خمسة فى المائة (تستغرق نحو ١٥ صفحة فقط من صفحات العهد الجديد

البالغ عددها ٢٥٠ صفحة فى احدى التراجم الفرنسية) . والرسائل الثلاث الأخيرة من هذه الرسائل وهى الرسالتان الثانية والثالثة ليوحنا ورسالة يهوذا ، لا تتجاوز كل رسالة منها صفحة واحدة .

وتعرض هذه الرسائل لبعض نواح من عقائد الديانة المسيحية وشرائعها وعباداتها وأخلاقها ، وتعنى بوجه خاص بالرد على البدع المستحدثة ، فهى تتفق اذن فى موضوعها مع رسائل بولس ، وان كانت تقل عنها كثيرا فى مبلغ استيعابها لهذا الموضوع . ومن أجل ذلك يطلق على رسائل بولس والرسائل الكاثوليكية اسم « الأسفار التعليمية » للعهد الجديد ، وذلك فى مقابل أسفار الأناجيل وسفر أعمال الرسل التى يطلق عليها اسم « الأسفار التاريخية » كما تقدم بيان ذلك .

هذا ، ولم تعتمد الكنيسة هذه الرسائل جميعها الا فى سنة ٣٦٤ . أما قبل ذلك فكان كثير منها موضع شك فى صحة حقائقها وصحة نسبتها الى أصحابها عند كثير من المسيحيين ، حتى ان مجمع نيقية نفسه ، وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية »[٧٥] كما تقدمت الاشارة الى ذلك ، لم يعتمد الا رسالتين اثنتين من هذه الرسائل وهى رسالة بطرس الأولى ورسالة يوحنا الأولى ورفض ما عداهما .

٢٣ – « رؤيا يوحنا » أو « السفر النبوى » أو « التنبئى » ، أو « الأبوكاليبس » Apokalupsis (وهى كلمة يونانية الأصل معناها الوحى أو الرؤيا ومنها الكلمة الفرنسية Apocalypse) .

وقد كتبها يوحنا صاحب الانجيل الرابع باللغة اليونانية ، وكان تأليفها على أرجح الآراء فى عهد الامبراطور دوميسيان Domitien (امبراطور الدولة الرومانية الغربية من سنة ٨١ الى سنة ٩٦ م) . وتستأثر فى العهد الجديد بمثل الحيز الذى تستأثر به الرسائل الكاثوليكية (نحو ١٥ صفحة من ٢٥٠ صفحة) .

---

(٧٥) أى التى اجتمع فيها ممثلون لجميع بلاد العالم المسيحى .

وهى رؤيا منامية رآها الرسول يوحنا وأوحى اليه فيها بكثير من حقائق الديانة المسيحية وأحداث المستقبل . ويرجع أهم ما تشتمل عليه هذه الرؤيا الى الأمور الآتية :

١ – تقرير ألوهية المسيح . وهى تصوره فى عليائه تارة فى صورة شيخ أشيب متمنطق عند ثدييه بمنطقة من ذهب ، وتقدح عيناه بالشرر ، ويحمل فى يده سبعة كواكب ، ويخرج من فيه سيف ماض ذو حدين[٧٦] ، وتارة تصوره فى صورة خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبعة اعين[٧٧] .

٢ – تقرر سلطان المسيح فى السماء وأشرافه فى عليائه على شئون الكنيسة وعلمه بجميع أحوالها والقوامين عليها ، وتبين أعمال الملائكة فى السماء وخضوعهم للمسيح .

٣ – تقرر أن الناس سيبعثون يوم القيامة ويعرضون على المسيح ، وأنه هو الذى سيتولى حسابهم على أعمالهم فيجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته .

٤ – تذكر طائفة من الأحداث التى ستحصل فى العالم الإنسانى على العموم وفى العالم المسيحى بوجه خاص ، وتذكر هذه الأحداث فى صور رمزية مبهمة . ومن ذلك خبر الدابتين الغريبتين اللتين ستخرجان قبيل قيام الساعة ، تخرج احداهما من الأرض والأخرى من الماء ، وتكلمان الناس[٧٨] .

هذا ولم تعتمد الكنيسة المسيحية هذه الرسالة الا فى سنة ٣٦٣ ، أما قبل ذلك فكانت هذه الرسالة موضع شك كبير فى حقائقها وفى صحة نسبتها الى يوحنا الحوارى عند كثير من المسيحيين ، حتى إن مجمع نيقية نفسه المنعقد سنة ٣٢٥ وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية[٧٩] » رفض الاعتراف بصحتها . وقد تقدم أن عددا

---

(٧٦) انظر فقرات ١٢ – ١٦ من الاصحاح الأول من رؤيا يوحنا .

(٧٧) انظر فقرات ١ – ٧ من الاصحاح الأول من رؤيا يوحنا .

(٧٨) أشار القرآن الكريم الى خبر هذه الدابة اذ يقول : « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (آية ٨٢ من سورة النمل) .

(٧٩) انظر معنى هذه الكلمة فى تعليق ٧٥ .

كبيرا من ثقات الباحثين فى الوقت الحاضر يقطع بأن جميع ما ينسب الى يوحنا من أسفار العهد الجديد بما فى ذلك انجيل يوحنا نفسه هى أسفار موضوعة ومنسوبة زورا الى يوحنا الحوارى[٨٠] .

— ٩ —

تطور العقيدة المسيحية
واستقرارها أخيرا على التثليث

اجتازت العقيدة المسيحية مرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى من بعثة المسيح الى مجمع نيقية سنة ٤٢٥ م ؛ والمرحلة الثانية من مجمع نيقية إلى الوقت الحاضر. وسنتكلم على كل مرحلة منهما على حدة :

المرحلة الأولى : من بعثة المسيح الى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م :

كانت المسيحية فى فاتحة هذه المرحلة – كما ينبئنا القرآن – ديانة توحيد تدعو الى عبادة الاه واحد ، وتقرر أن المسيح انسان من البشر أرسله الله تعالى بدين جديد وشريعة جديدة كما أرسل رسلا من قبله ، وأن الارهاصات التى سبقت بعثته والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد رسالته هى من نوع الارهاصات والمعجزات التى يؤيد الله تعالى بها رسله ، وأن خلقه بدون أب ليس إلا إرهاصا من هذه الارهاصات ، وأن أمه صديقة من البشر قد كرمها الله فنفخ فيها من روحه فحملت بالمسيح .

ولكن لم تمض بضع سنين على رفع المسيح حتى أخذت مظاهر الشرك والزيغ

---

(٨٠) انظر آخر الفقرة الرابعة من هذا الفصل .– هذا وقد وقف العلامة ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » فصلا كبيرا على بيان ما تشتمل عليه رسائل بولس ، والرسائل الكاثوليكية ، وأعمال الرسل ، ورؤيا يوحنا ، من كذب وتناقض وتحريف ؛ وجعل عنوانه « ذكر ما فى كتبهم غير الأناجيل من الكذب والكفر والهوس » .

والانحراف تتسرب الى معتقدات بعض الفرق المسيحية ، وافدة اليها أحيانا من فلسفات قديمة ، وأحيانا من رواسب ديانات ومعتقدات كانت سائدة فى البلاد التى انتشرت فيها المسيحية والتى احتك بأهلها المسيحيون .

فانقسم حينئذ المسيحيون الى طائفتين : طائفة جنحت عقائدها الى الشرك بالله ؛ وطائفة ظلت عقائدها محافظة على التوحيد . وضم كل طائفة من هاتين الطائفتين تحت لوائها فرقا كثيرة :

(أ) فمن أهم الفرق التى انحرفت عقائدها فى هذه المرحلة فرقة المرقيونيين وفرقة البربرانية وفرقة الاليانية وفرقة التثليث .

١ — أما فرقة « المرقيونيين » فانها تنسب الى مرقيون أو مرسيون Marcion وهو من رجال القرن الثانى الميلادى . وكان قسيسا ، ثم حكم عليه بالطرد والحرمان . ويقوم مذهبه على الاعتقاد بوجود الاهين : أحدهما الالاه العادل Dieu Juste أو الالاه ديميورج Démiurge أى الخالق والمهندس ، وهو الإلاه الذى اتخذ من بنى اسرائيل شعبا مختارا وأنزل عليهم التوراة ؛والآخر الالاه الخير Dieu Bon الذى ظهر متمثلا فى المسيح وخلص الانسانية من خطاياها . وقد كان للالاه الأول السلطان على العالم حتى ظهر الالاه الثانى فبطلت جميع أعمال الاله الأول وزال سلطانه . ومن ثم يقوم هذا المذهب على اطراح العهد القديم (كتب اليهود المقدسة) فى جملته وتفاصيله ، ولا يعترف كذلك بمعظم أسفار العهد الجديد ، والأسفار القليلة التى يعترف بها من أسفار هذا العهد،وهى انجيل لوقا ورسائل بولس ، لا يعترف بها إلا بعد أن يدخل على نصوصها تغييرات كثيرة تخرجها عن أوضاعها ومدلولاتها الأولى . ويقال إنه كان لهذه الفرقة انجيل خاص كما سبقت الاشارة إلى ذلك (٨١) .

ولعل هذا المذهب متأثر بالديانة الزرادشتية الفارسية فى مراحلها الأخيرة . فقد انتهى الأمر بالزرادشتيين إلى الاعتقاد بوجود إلاهين ، إلاه للخير وكانوا يسمونه

---

(٨١) انظر الفقرة السابعة من هذا الفصل .

أهورا مزدا ، وإلاه للشر وكانوا يسمونه أهريمان ، كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

ومن أهم ما تختص به هذه الفرقة فى شئون الشريعة أنها حرمت الزواج تحريما باتا على جميع أفراد نحلتها ، كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود من قبل . فكانت فرقة المرقونيين توجب على كل متزوج يرغب فى اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن زوجه . وبدون ذلك ما كان يمكن قبوله ولا تعميده .

وعلى الرغم من الحرب الشعواء التى شنتها الكنيسة على هذا المذهب فانه قد انتشر وتبعه خلق كثير فى ايطاليا وأفريقيا ومصر ، وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ، أى حتى انتهاء المرحلة التى نتحدث عنها . ثم أخذ يضمحل ويتناقص اتباعه تناقصا كبيرا ، ولكنه لم ينقرض انقراضا تاما إلا حوالى القرن العاشر الميلادى .

٢ – واما فرقة « البربرانية » فكانت تذهب إلى القول بالوهية المسيح وأمه معا . ويقرر ابن البطريق مذهب هذه الفرقة فيقول : « ومنهم من كان يقول ان المسيح وأمه الاهان من دون الله وهم البربرانية . ويسمون الريميتيين » . ولعل هؤلاء هم الذين يشير إليهم القرآن الكريم فيما يخاطب به الله تعالى عيسى بن مريم اذ يقول : « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الاهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق »[٨٢] ، وإذ يرد عليهم فى قوله : « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام »[٨٣] .

هذا ، وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض كذلك فى نهاية المرحلة التى نتحدث عنها ، وان كان يبدو من ذكرها فى القرآن أنه كان لا يزال لمذهبها اتباع فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام (القرن السابع الميلادى) .

ومهما يكن من شئ فان الاتجاه الى تقديس مريم قد ترك آثارا ورواسب كثيرة فى

---

(٨٢) آية ١١٦ من سورة المائدة .

(٨٣) آية ٧٥ من سورة المائدة .

معظم الفرق المسيحية الباقية ، وتتمثل هذه الآثار والرواسب فى عدة معتقدات وطقوس وأعياد خاصة بالسيدة مريم تعتنقها وتقيمها جميع فرق المسيحيين فى الوقت الحاضر باستثناء فرقة البروتستانت .

٣ – وأما فرقة إليان فيؤخذ مما ذكره فى صددها ابن البطريق والشهرستانى فى الملل والنحل أنها كانت تؤله المسيح وتقرر أنه ابن الله وتصور حقيقته وحمل أمه به وقصة صلبه فى صورة خاصة ، فتذهب الى أن مريم لم تحمل به كما تحمل النساء بالأجنة وانما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن الكلمة (الابن) دخلت من أذنها ، وخرجت لتوها من حيث يخرج الولد ، وأن ما ظهر من شخص المسيح فى الأعين انما هو خيال شبيه بالصورة التى تظهر فى المرآة ، فلم يكن المسيح جسما متجسما كثيفا فى الحقيقة . وكذلك القتل والصلب ، فانهما وقعا على الخيال والظن لا على الحقيقة .

وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى نهاية المرحلة التى نتحدث عنها . وان كان يبدو مما ذكره الشهرستانى فى صددها اذ يقول : « وهؤلاء يقال لهم الاليانية ، وهم قوم بالشام واليمن وأرمينية »[٨٤] ، أنه كان لا يزال لهذه الفرقة أتباع فى عصره (القرن السادس الهجرى والثالث عشر الميلادى) .

٤ – وأما فرقة التثليث والوهية المسيح فهى الفرقة التى تذهب إلى أن الإلاه ثلاثة أقانيم وهى الآب والابن وروح القدس ، وأن الابن أو الكلمة هو المسيح . وكانت كنيسة الاسكندرية من أشد الكنائس تعصبا لهذا المذهب الذى أصبح المذهب الرسمى المقرر لجميع الفرق المسيحية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨٦ . ولذلك سنرجئ الكلام على تفاصيله الى أن يحين الكلام على المرحلة الثانية التى اجتازتها الديانة المسيحية .

(ب) ومن أهم الفرق التى ظلت عقائدها محافظة على التوحيد فرقة ابيون وفرقة بولس الشمشاطى وفرقة أريوس .

(٨٤) الشهر ستانى ، الملل والنحل ، ص ٢٢٧ الجزء الأول ، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٦١

١ – أما فرقة ابيون أو الابيونيين Ebionites (أتباع ابيون Ebion) فكانت تقر جميع شرائع موسى ، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم ، وتنكر ألوهية المسيح وتعتبره مجرد بشر رسول . وكان لهذه الفرقة فى تفاصيل عقائدها هذه انجيل خاص مدون باللغة الآرامية . وقد عرضنا له فى الفقرة السابعة من هذا الفصل . وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى أواخر المرحلة التى نتحدث عنها ، وتم انقراضها فى أواخر القرن الرابع الميلادى .

٢ – وأما فرقة الشمشاطى فهم أتباع بولس الشمشاطى Paul de Somosate وكان بولس الشمشاطى هذا أسقفا لأنطاكية Antioche منذ سنة ٢٦٠ م . وأنكر الوهية المسيح وقرر أنه مجرد بشر رسول . وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ الى سنة ٢٦٩ ثلاث مجامع للنظر فى شأنه ، وانتهى الأمر بحرمانه وطرده . وقد بقى لمذهبه أتباع على الرغم من ذلك حتى القرن السابع الميلادى . ويذكر ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » عن بولس هذا « أنه كان بطريركا بانطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه انسان لا الاهية فيه . وكان يقول لا أدرى ما الكلمة (أى الابن) ولا روح القدس » . ويقول ابن البطريق فى بيان مذهبه : « ان المسيح انسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وان ابتداء الابن من مريم (أى انه محدث وليس قديما) . . . ويقولون ان الله جوهر واحد وأقنوم واحد ولا يؤمنون بالكلمة (أى الابن) ولا بروح القدس ، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وهم البوليقانيون » .

٣ – وأما الأريوسيون فهم أتباع أريوس Arius . وكان أريوس هذا قسيسا فى كنيسة الاسكندرية ، وكان داعيا قوى التأثير ، واضح الحجة ، جريئا فى المجاهرة برأيه . وقد أخذ على نفسه فى أوائل القرن الرابع الميلادى مقاومة كنيسة الاسكندرية فيما كانت تذهب إليه من القول بألوهيه المسيح وبنوته للآب،فقام يقرر أن المسيح ليس إلاها ولا ابنا لله انما هو بشر مخلوق L'Arionisme وأنكر جميع ما جاء فى

الأناجيل من العبارات التى توهم ألوهية المسيح . ويلخص ابن البطريق مذهبه فيقول : «كان يقول إن الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع وقد كان الآب حيثما لم يكن الابن» . وقد تبعه مشايعون كثيرون . فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى . وعلى رأسها ميليتوس ، وكان أنصاره فى الاسكندرية نفسها كثيرين فى العدد أقوياء فى المجاهرة بما يعتقدون ، كما تبعه خلق كثير فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية ، وذلك على الرغم من أن كنيسة الاسكندرية لم تأل جهدا فى محاربته ومحاربة آرائه ، وعلى الرغم من حكمها عليه بالطرد من الكنيسة .

ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقص عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بطرد أريوس وكفره وأصدر قراره بألوهية المسيح كما سيأتى بيان ذلك . ومازال يضمحل ويتناقص عدد أتباعه حتى انقرض كل الانقراض فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

المرحلة الثانية : من مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م الى الوقت الحاضر.

فى سنة ٣٢٥ م أمر قسطنطين امبراطور الرومان بأن يعقد مجمع دينى مسكونى Œucuménique أى يضم ممثلين لجميع الكنائس فى العالم المسيحى للفصل فى أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه ، ولبيان أى الرأيين يتفق مع الحق ، ولتقرير مبدأ صحيح يعتنقه المسيحيون فيما يتعلق بألوهية المسيح ، ولاتخاذ ما ينبغى اتخاذه من قرارات أخرى فى شئون العقيدة والشريعة . فاجتمع فى نيقية Concile de Nicée ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، ولكنهم اختلفوا اختلافا كبيرا ولم يستطيعوا الاجماع على رأى . ويظهر أن قسطنطين كان يجنح للرأى القائل بألوهية المسيح ، فاختار من بين المجتمعين ثمانية عشرة وثلثمائة من أشد أنصار هذا المذهب ، وألف منهم مجلسا خاصا وعهد اليهم أمر الفصل فى هذا الخلاف واتخاذ ما يرون اتخاذه من قرارات أخرى فى شئون العقيدة والشريعة ، على أن تصبح قراراتهم مذهبا رسميا يجب أن يعتنقه جميع المسيحيين . فانتهوا الى عدة قرارات كان من أهمها القرار الخاص باثبات ألوهية المسيح وتكفير أريوس وحرمانه وطرده وتكفير كل من يذهب إلى أن المسيح انسان ، وتحريق جميع الكتب التى لا تقول بألوهية

المسيح وتحريم قراءتها . وكان من أشد انصار هذا القرار والداعين اليه بطريرك الاسكندرية . ويذكر ابن البطريق نص هذا القرار فى العبارة الآتية : « إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم (أى تحكم بالحرمان والطرد) كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شئ ، أو من يقول الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب ، وكل من يقر أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغير » .

ولم يعرض مجمع نيقية للعنصر الثالث من عناصر الألوهية فى العقيدة المسيحية الحاضرة وهو « روح القدس » ولم يبين حقيقة طبيعته أهو إلاه أم مخلوق . ومن ثم نشب خلاف كبير بين المسحيين حول هذا الموضوع . وظهرت فرق تقول بأن روح القدس ليس بالاه وانما هو محدث مخلوق . وكان من أشهر هذه الفرق أتباع مقدونيوس Macedonius الذى كان بطريرك القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى . فاجتمع من أجل ذلك فى القسطنطينية سنة ٣٨١ م مجمع آخر اشتهر باسم المجمع القسطنطينى الأول . وكان عدد أعضائه مائة وخمسين أسقفا . وانتهى المجمع بإقرار الرأى القائل بألوهية روح القدس . وكانت كنيسة الاسكندرية من أشد الكنائس تعصبا لهذا الرأى ، كما كانت من أشدها تعصبا للرأى القائل بالوهية المسيح . ولذلك كان لأقوال بطريرك الاسكندرية والحجج التى أدلى بها فى هذا المجمع أثر كبير فى توجيهه الى هذا القرار . ويصف ذلك ابن البطريق فيقول : « قال تيموثاوس بطريرك الاسكندرية فى هذا المجمع : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئا غير حياته ، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن روح الله مخلوق ، وإذا قلنا إن روح الله مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حى ، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا ، ومن كفر به وجب عليه اللعن . . . واتفقوا على لعن مكدونيوس ، فلعنوه هو وأشياعه ، ولعنوا البطاركة الذين يكونون بعده ويقولون بمقالته » . ويوضح ابن البطريق نص القرار الذى اتخذه هذا المجمع بشأن ألوهية روح القدس فى العبارة الآتية : « زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية (يشير الى ما

قرره مجمع نيقية الأول بشأن ألوهية المسيح) الإيمان بروح القدس الرب المحيى . . وأثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاث خواص ، وحدية فى تثليث ، وتثليث فى وحدية ، كيان واحد فى ثلاثة أقانيم » .

وقد لخص عقيدة التثليث التى انتهت اليها قرارات المجمعين السابقين وما يتصل بها من الاعتقاد بصلب المسيح لتكفير الخطيئة الأزلية وبعثه ورفعه الى السماء ومحاسبته الخلق يوم القيامة نوفل بن نعمة الله بن جرجس فى كتابه سوسنة سليمان اذ يقول : « ان عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى[٨٥] ، هى الايمان :

١ - بالاه واحد ، أب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، صانع ما يرى وما لا يرى ؛

٢ - وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله ، الاه حق من الاه حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر الذى به كان كل شئ ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وصلب حيا على عهد بيلاطس Pilate [٨٦] وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصعد الى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه ؛

٣ - والإيمان بروح القدس الرب المحيى . . . » .

ولخصه الشهرستانى فى العبارة الآتية : وهى لا تختلف كثيرا عن العبارة السابقة :

« نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شئ ، وصانع ما يرى وما لا يرى ؛ وبالابن

---

(٨٥) كان ينبغى أن يقول : « والمجمع القسطنطينى الأول » ، لأن ألوهية روح القدس لم تتقرر الا فى هذا المجمع .

(٨٦) الوالى من قبل الدولة الرومانية على فلسطين حينئذ .

الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، الاه حق من الاه حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شئ من أجلنا ، ومن أجل معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار انسانا ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن ، ثم قام فى اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ؛ ونؤمن بروح القدس الواحد . . . وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية (كاثوليكية) وبقيام أبداننا ، وبالحياة الدائمة أبد الآبدين » .

* * *

وبذلك تقرر التثليث فى الديانة المسيحية ، وأصبح هو العقيدة الرسمية التى يجب أن يعتنقها كل مسيحى ، ويحكم بكفر من يقول بغيرها ، وأخذت المذاهب المسيحية الأخرى التى كانت منتشرة عند بعض الفرق المسيحية فى المرحلة الأولى ، والتى أشرنا اليها فيما سبق ، تتلاشى شيئا فشيئا ، ويتضاءل عدد أتباعها ، حتى انقرضت كل الانقراض ، سواء فى ذلك مذاهب الفرق التى كانت محافظة على التوحيد ، أم مذاهب الفرق التى انحرفت عن التوحيد الى عقائد أخرى غير عقيدة التثليث . ولا نجد الآن أية كنيسة مسيحية ولا أية فرق من المسيحين لا تقول بالتثليث . – ولكنهم ، جميعا ، مع ذلك يتسترون وراء كلمات التوحيد ، فيقولون « تثليث فى وحدية » أو « وحدية فى تثليث »،مع أنه لا يمكن أن يكون التثليث وحدانية ولا الوحدانية تثليثا : « لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة ، وما من إلاه إلا إلاه واحد » .

المصادر الأولى لعقيدة لتثليث

ويظهر أن هذه العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة philosophie néo-platonicienne . وذلك أن أفلوطين Plotin زعيم مدرسة الاسكندرية ، وهى المدرسة التى تنسب إليها الفلسفة الأفلاطونية الحديثة (وهو من رجال القرن الثالث الميلادى – ولد سنة ٢٠٥ وتوفى ٢٧٠ م) كان يرى ، فيما يتعلق بالكون ومنشئه ، أن الله هو منشئ الأشياء لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ولا عرض ، وليس فكرا كفكرنا ولا ارادة كارادتنا ، يتصف بكل كمال يليق به ، ويفيض على كل الأشياء نعمة الوجود ، ولا يحتاج هو إلى موجد ، وأن أول شئ صدر عن هذا المنشئ هو العقل ، وقد صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن يولد عنه ، ومن العقل تنبثق الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شئ ومنه يتولد كل شئ .

فوجه الشبه واضح كل الوضوح بين هذا المذهب من جهة وعقيدة التثليث التى استقرت عليها المسيحية من جهة أخرى . وإذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشرا ومعروفا قبل مجمع نيقية بأمد طويل ، وأنه كان المذهب الفلسفى لمدرسة الاسكندرية ، وأن بطريرك الاسكندرية الذى نشأ فى البيئة التى ساد فيها هذا المذهب كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث فى مجمع نيقية وفى المجمع القسطنطينى الأول كما تقدم بيان ذلك ، اذا لاحظنا هذا كله ترجح الاحتمال الذى ذكرناه وهو أنه يظهر أن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ومن الممكن كذلك أن تكون قد تأثرت بالديانة البرهمية فى أوضاعها الأخيرة . وذلك أن الديانة البرهمية قد استقرت أوضاعها فى آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث

الآلهة ، وإن كان ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين فى نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته ، وذلك أنها تقرر أن الالاه براهما كان قبل الوجود ، وأنه خلق العالم وسمى نفسه الخالق . ثم انبثق منه الالاه سيفا Civa وهو الالاه المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك هذا الالاه وشأنه لفنيت السماوات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما الاه ثالث حافظ مجدد هو الإلاه فيشنو Vichnou. وسنعرض لهذه الديانة بشئ من التفصيل عندما يحين موعد الكلام عليها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

ويظهر أن فكرة الخلاص بتقديم الالاه نفسه فداء لتكفير خطيئة أزلية متلبسة بها الانسانية قد انتقلت إلى المسيحية من الديانات الهندية كذلك . فالبرهميون يعتقدون أن « كريشنا » وهو الالاه « فيشنو » قد خلص الانسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه ، ويصورون « فيشنو » مصلوبا مثقوب اليدين والرجلين وعلى قميصه صورة قلب الانسان معلقا . — ويعتقد البوذيون مثل ذلك فى بوذا ، حتى انهم ليسمونه المسيح ، والمولود الوحيد ، ومخلص العالم . ويقولون انه الاه كامل تجسد بالناسوت ، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر .

نشأة اختلافات فرعية بين طوائف المسيحيين في مسائل العقيدة

تقرر التثليث اذن فى الديانة المسيحية على الوجه الذى سبق بيانه ، وأجمع على اعتناقه المسيحيون جميعا . غير أنهم مع إجماعهم على هذه العقيدة ، قد اختلفوا فيما بينهم فى أمور فرعية أخرى من عقائدهم وانقسموا إلى طوائف كثيرة ، وأعطت كل طائفة لنفسها ، نتيجة لهذا الاختلاف ، لقبا خاصا بها . ولكنها ما كانت تخرج فى ذلك عن أحد لقبين وهما الكاثوليكية والأرثوذكسية (٨٧) .

فاختلفوا فى طبيعة المسيح : هل طبيعته طبيعة واحدة لأنه إلاه ، أم إن له طبيعتين طبيعة إلاهية وطبيعة إنسية لأنه ابن الله وابن الإنسان معا (فقد جاء من مريم ، ومريم من البشر) فيكون بذلك قد اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت على حد تعبيرهم :

وقد اخذت بالمذهب الأول ، وهو أن للمسيح طبيعة واحدة ، وهى الطبيعة الالاهية ، ثلاث كنائس صغيرة من الكنائس التى سمت نفسها الأرثوذكسية : احداها الكنيسة الأرثوذكسية فى مصر والحبشة (وتسمى نفسها كذلك الارثوذكسية المرقسية نسبة إلى الرسول مرقس صاحب الانجيل ، لأن بطاركتها يعتبرون أنفسهم خلفاء لهذا الرسول ، ويُعطى رئيسها لقب « رئيس لكرازة المرقسية وبطريرك مصر وأثيوبيا ومعظم مناطق أفريقيا» ومع أن مسيحيى

(٨٧) كلمة كاثوليك Catholique مأخوذة من كلمة يونانية Katholikos بمعنى العام أو العالمى أى أنها الديانة العامة العالمية . وكلمة أرثوذكس Ortodoxe مأخوذة من كلمتين يونانيتين وهما orthos بمعنى الحق أو المستقيم و doxa بمعنى الرأى أو المذهب ، فمعناها المذهب الحق أو المستقيم . وقد جاء انشعاب المسيحيين إلى هاتين الطائفتين نتيجة لاختلافهم فى الأمور الفرعية المتصلة بالعقيدة وفى أمور أخرى تتصل بالشرائع والعبادات . وسنعرض فى هذه الفقرة لأهم وجوه الخلاف بينهم فى فروع العقيدة ، وفى الفقرة التالية لأهم وجوه الخلاف بينهم فى الشرائع والعبادات .

الحبشة خاضعون لرياسة الكنيسة المصرية المرقسية فانهم قد استقلوا أخيرا بعض الاستقلال فى شئونهم الدينية . وثانيها الكنيسة الأرثوذكسية السريانية التى يرأسها بطريرك السريان ويتبعها كثير من مسيحيى آسيا ؛ وثالثها الكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية . ومع أن الأرمن يتفقون مع الكنيستين السابقتين فى القول بالطبيعة الواحدة للمسيح فإنهم يختلفون عنهما فى بعض التقاليد والطقوس ، ولهم بطاركة يرأسونهم ، ولا يندمجون مع الكنيسة السريانية ولا مع الكنيسة المصرية . وبذلك انفصلت هذه الكنائس الثلاث عن بقية كنائس المسيحيين . وقد لخص هذا المذهب صاحب كتاب « خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر » فى العبارة الآتية : « ان كنيستنا المستقيمة الرأى (هذه ترجمة لكلمة الأرثوذكسية) ، ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس ، وأن الأقنوم الثانى أقنوم الابن تجسد من روح القدس ومن مريم العذراء ، مصيرًا هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال . بهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة » .

وقد أقر هذا المذهب معظم المجتمعين فى مجمع افسوس الثانى Ephese الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، واكتسب قوة بعد أن انتصر له فى القرن السادس الميلادى داعية قوى الحجة ، بليغ الأثر ، جرئ فى الجهر برأيه ، اسمه يعقوب البرادعى Jacob Barados ، حتى لقد أطلق على هذا المذهب اسم المذهب اليعقوبى وعلى أنصاره اسم اليعاقبة أو اليعقوبيين ، وإن كان هذا المذهب قد نشأ قبل ظهور يعقوب البرادعى بأمد طويل ، ولا أدل على ذلك من أنه قد أخذ بهذا الرأى معظم المجتمعين فى مجمع أفسوس الثانى الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس الميلادى كما تقدم .

وأخذت بالمذهب الآخر ، وهو أن للمسيح طبيعتين طبيعة الاهية وطبيعة انسية ، أى اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت ، جميع الكنائس الأخرى . وقرر هذا المذهب فى صورة حاسمة فى مجمع خليكدونية Calcedoine المنعقد سنة ٤٥١ ، فقد

انتهى هذا المجمع بعد خلاف كبير بين أعضائه إلى القول بأن للمسيح طبيعتين لا طبيعة واحدة ، وأن الألوهية طبيعة وحدها والناسوت طبيعة وحده التقتا فى المسيح .
ويلخص ابن البطريق قرار مجمع خليكدونية اذ يقول : « قالوا ن مريم العذراء ولدت الاها ربنا يسوع المسيح الذى هو مع ابيه فى الطبيعة الالاهية ومع الناس فى الطبيعة الانسانية وشهدوا أن المسيح طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد ... ولعنوا المجمع الثانى الذى كان بافسوس » (أى مجمع افسوس الثانى الذى قرر معظم أعضائه أن المسيح طبيعة واحدة كما سبق بيان ذلك ، وتسميه الكنيسة الكاثوليكية « مجمع اللصوص ») .

وقد انتصر لمذهب ازدواج الطبيعتين الامبراطور الرومانى ، بل انه هو الذى عمل على اجتماع مجمع خليكدونية لينتهى إلى تقرير هذا الرأى فى صورة حاسمة . ومن ثم يطلق على هذا المذهب اسم المذهب الملكى أو الملكانى نسبة إلى الملك أى امبراطور روما . وقد أخطأ الشهرستانى اذ قرر أن هذا المذهب ينسب إلى شخص اسمه « ملكا »[٨٨] .

ومن قبل مجمع خليكدونية كان هذا المذهب قد تقرر ، وإن لم يكن فى صورة حاسمة ، فى مجمع آخر هو مجمع افسوس الأول الذى انعقد سنة ٤٣١ م للفصل فى أمر نستور وبدعته (وكان نستور هذا Nestorius بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨ م ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين) . فقد ذهب نستور إلى القول بأن مريم العذراء لم تلد الالاه ، بل ولدت الانسان فقط ، ثم اتحد ذلك الانسان بعد ولادته بالأقنوم الثانى اتحادا مجازيا لأن الالاه وهبه المحبة والنعمة فصار بمنزلة الابن . فللقضاء على هذا المذهب الذى ينكر ألوهية المسيح من أصلها وإن كان يقول بالأقانيم الثلاثة انعقد مجمع افسوس الأول سنة ٤٣١ وقرر لعن نستور وطرده ، وكتب معظم أعضائه صحيفة قرروا فيها أن « مريم العذراء ولدت الاهنا وربنا يسوع المسيح ، وأن المسيح الاه حق وانسان ذو طبيعتين » .

---

(٨٨) انظر ص ٢٢٢ من الجزء الأول من الشهرستانى « الملل والنحل » طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦١ - وانظر تعليقنا رقم ٧٥٢ بصفحة ٦٦١ من الجزء الثانى من مقدمة ابن خلدون طبعة دار نهضة مصر .

غير أن النسطوريين قد انحازوا فى عصورهم الأخيرة إلى الرأى القائل بامتزاج اللاهوت فى الناسوت ، أى إلى القول بالطبيعتين ، فانحرفوا بذلك عن المذهب الأصلى لزعيمهم ، وأصبحوا متفقين فى ذلك مع الكنيسة الكاثوليكية . ويقيم معظمهم الآن فى بلاد العراق والموصل .

وقد ظلت الكنائس التى تقول بالطبيعتين متحدة فى جمع آرائها المتعلقة بشخص المسيح إلى أن ظهر فى القرن السابع الميلادى (سنة ٦٦٧) يوحنا مارون ، فذهب إلى أن المسيح ، مع أنه ذو طبيعتين ، له مشيئة واحدة وارادة واحدة وهى المشيئة الإلاهية والإرادة الالاهية ، لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد إلاهى وهو الابن أو الكلمة . وقد شايعه فى هذا الرأى بعض مسيحيي آسيا . ولم ترق هذه المقالة فى نظر بابوات روما ورؤساء الكنيسة الكاثوليكية ، فأوعزوا إلى الامبراطور أن يجمع مجمعا ليقرر أن المسيح ذو طبيعتين وذو مشيئتين بعد أن استوثقوا من أن الأمبراطور يشاركهم هذا الرأى ، فاجتمع لذلك مجمع القسطنطينية السادس سنة ٦٨٠ م وكان مؤلفا من ٢٨٩ أسقفا وانتهى إلى إصدار قرار بكفر يوحنا مارون ولعنه وطرده وكفر كل من يقول بالمشيئة الواحدة ، وقرر « أننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الالاه فى أقنوم واحد ووجه واحد ، يعرف تاما بناسوته تاما بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح ، بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى أقنوم واحد .. فهو ما يشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته وما يشبه الالاه أن يعمله فى طبيعته ... وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها بمشيئتين غير متضادتين » .

وقد نزلت بعد ذلك بأصحاب المذهب المارونى القائل بالمشيئة الواحدة اضطهادات شديدة ، فأخذوا يفرون بدينهم من بلد إلى بلد إلى أن انتهى بهم المطاف فى جبل لبنان ، واشتهروا بلقب المارون . وظلوا مستقلين فى شئونهم الدينية إلى أن قربتهم إليها كنيسة روما فأعلنوا فى سنة ١١٨٢ الطاعة لها مع بقائهم على مذهبهم القائل بالمشيئة الواحدة . ولا تزال هذه الطائفة متوطنة فى جبل لبنان ، وإن كان قد

هاجر منها عدد كبير إلى قارة أمريكا وغيرها ، ولها بطريرك خاص ، وإن كان يقر بالرياسة لبابا الكنيسة الكاثوليكية بروما .

وقد ظلت الطوائف القائلة بالطبيعتين والمشيئتين متفقة فى آرائها إلى أن نشب بينها فى منتصف القرن التاسع خلاف بشأن الأقنوم الذى انبثق منه روح القدس . فذهب بعض الطوائف إلى أن انبثاق روح القدس كان من الآب وحده ، وذهب بعضها الآخر إلى أن انبثاقه كان من الآب والابن معا .

وكان على رأس المنادين بالرأى الأخير ، وهو أن روح القدس منبثق من الآب والابن معا ، رئيس كنيسة روما . وقد عقد لذلك فى سنة ٨٦٩ مجمعا فى القسطنطينية ، وأصدر هذا المجمع قرارا بأن روح القدس منبثق من الآب والابن معا . واشتهر هذا المجمع باسم « المجمع الغربى اللاتينى » .

وكان على رأس المنادين بالرأى الأول ، وهو أن روح للقدس منبثق من الآب وحده ، بطريرك القسطنطينية ، وقد عقد بدوره مجمعا آخر فى القسطنطينية سنة ٨٧٩ ، وأصدر هذا المجمع قراراً بأن روح القدس منبثق من الآب وحده . واشتهر هذا المجمع باسم « المجمع الشرقى اليونانى » .

وكان ذلك سببا فى انقسام الكنائس القائلة بالطبيعتين والمشيئتين إلى كنيستين رئيسيتين :

(احداهما) الكنيسة الشرقية اليونانية ويقال لها كذلك الكنيسة الشرقية فقط وكنيسة الروم الأرتودكسية ، وهى التى يذهب أتباعها إلى أن روح القدس منبثق عن الآب وحده . والمشايعون لها أكثرهم فى الشرق وبلاد اليونان وتركيا وروسيا والصرب وغيرها ، ولهم بطاركة أربعة : أولهم بطريك القسطنطينية وهو كبيرهم ؛ ويليه بطريك الاسكندرية للروم الأرتودكس ؛ ثم بطريك أنطاكية ؛ ثم بطريرك أورشليم . وثم مناطق تخضع للكنيسة الشرقية وتخضع لمجامع وأسقفيات مستقلة كالمجمع الروسى ، وأسقفية أثينا وأسقفية قبرص (التى كان يتولى رياستها الاسقف مكاريوس ، وكان فى الوقت نفسه رئيس الدولة) .

(وثانيتهما) الكنيسة الغربية اللاتينية ، ويقال لها كذلك الكنيسة الغربية فقط ، وكنيسة روما ، والكنيسة الكاثوليكية ، وقد تسمى كذلك الكنيسة البطرسية أو كنيسة بطرس لأن مشايعيها يعتقدون أن مؤسسها هو الرسول بطرس كبير الحواريين ، وأن بابواتها خلفاؤه من بعده (ورئيسها فى الوقت نفسه رئيس دولة الڤاتيكان) ، وهى التى تذهب إلى أن روح القدس منبثق عن الآب والابن معا . والمشايعون لهذه الكنيسة أكثرهم فى الغرب فى بلاد ايطاليا وفرنسا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية وبلاد أخرى كثيرة . وحتى فى البلاد التى يتبع معظم أهلها كنيسة الروم الارتودكسية يوجد مسيحيون كاثوليك يتبعون كنيسة روما ويرأسهم بطاركة كاثوليك خاضعون لرياسة بابا روما . وحتى فى مصر نفسها يوجد مسيحيون كاثوليك يتبعون هذه الكنيسة ويرأسهم بطريرك (ورئيسهم الحالى الكردينال أسطفانوس الأول سيداروس بطريرك الأقباط الكاثوليك) . ويبلغ عدد الكاثوليك التابعين لهذه الكنيسة الآن زهاء ستمائة مليون .

ولما أحيط به رئيس كنيسة روما من تقديس بين مشايعيه وعند الملوك ورؤساء الدول ، ولكثرة معتنقى مذهبه ، تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان . — وتتابع كنيسة روما فى عهد رئيسها الحالى سنة ١٩٨١ ورئيسها السابق له ما سار عليه رئيسها الأسبق من العمل على التقريب بين الكنائس المسيحية جميعا وخاصة بينها وبين الكنيسة الشرقية التى تعتبر أكبر كنيسة بعد كنيسة روما ، وقد عقد بابا روما سنة ١٩٦٣ مجمعا مسكونيا كان من أهم أغراضه تحقيق الوحدة المسيحية والتقريب بين كنائس المسيحيين ، وخاصة بين الكنيستين الكبيرتين الغربية والشرقية .

وخلاصة ذلك أن الكنيسة الأرتودكسية فى مصر والحبشة والكنيستان الأرتودكسيتان الأرمنية والسريانية قد انفصلت عن بقية الكنائس لقولها بالطبيعة الواحدة للمسيح (طبيعة واحدة الاهية) ، وان كنيسة المارونين بلبنان قد انفصلت كذلك عن بقية الكنائس لقولها بالمشيئة الواحدة أى أن المسيح وإن كان له طبيعتان

ليست له الا مشيئة واحدة هى المشيئة الالهية ، وأن من عدا هؤلاء وأولئك من طوائف المسيحين يقولون بالطبيعتين والمشيئتين ، وهم القسم الأكبر من المسيحيين .

غير أنهم مع اتفاقهم فى القول بالطبيعتين والمشيئتين قد اختلفوا فيما يتعلق بالأقنوم الذى انبثق منه روح القدس أهو الآب وحده أم الآب والابن معا . وانقسموا لذلك الى كنيستين : الكنيسة الشرقية اليونانية أو كنيسة الروم الأرتودكس التى يقول أتباعها بانبثاق روح القدس عن الآب وحده ؛ والكنيسة الغربية اللاتينية التى يقول أتباعها بانبثاق روح القدس عن الآب والابن معا .

– ١٢ –

اختلاف فرق المسيحيين في مسائل الشرائع والعبادات

هذا ، وكان كل خلاف يحدث بين فرق المسيحيين فى هذه الأمور الفرعية المتصلة بالعقائد يصحبه وينضم اليه بمرور الزمن خلاف فى بعض الأمور المتصلة بالشرائع والعبادات .

فمن ذلك مثلا أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية قد تجاوز شئون العقيدة السابق ذكرها إلى أحكام العبادة والتشريع ، وشمل اختلافها فى هذه الأحكام أمورا كثيرة نذكر من أمثلتها ما يلى :

١ – حافظت الكنيسة الشرقية فيما يتعلق بالمحرمات من المأكولات على الرأى الذى استقر عليه مجمع أورشليم الأول المنعقد بعد رفع المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة والذى أشرنا إليه فيما سبق[٨٩] فحرمت الدم ولحم المنخنقة ، بينما أجازتهما الكنيسة الغربية .

٢ – من عبادات المسيحيين ما يسمونه العشاء الربانى ، هو الذى ورد ذكره فى

---

(٨٩) انظر رقم ٤ من فقرة ١ من هذا الفصل .

الاصحاح السادس والعشرين من انجيل متى اذ يقول . . « وبينما هم يأكلون أخذ يسوع قطعة خبز ، وبعد أن باركها كسرها وأعطاها لتلاميذه وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى ، ثم أخذ كأسا (من الخمر) وبعد أن باركها أعطاها لهم وقال اشربوا جميعا من هذه الكأس ، فهذا هو دمى دم العهد الذى يسفك من أجل كثير لمحو الخطايا [90] » . وقد جرى المسيحيون على محاكاة هذا العشاء فى بعض أعيادهم على الأخص ، ويعتبرون ذلك من أهم عباداتهم . . وجرت العادة أن تعد الكنائس خبزا وخمرا بطقوس خاصة ليتناولها المصلون . ويعتقدون أن الخبز والخمر قد أصبحا بعد اعدادهما على هذه الصورة أجزاء من جسد المسيح ودمه . فالخبز أصبح قطعة من جسده والخمر أصبح قطرات من دمه . وبذلك يمتزج لحم المسيح ودمه بلحم من يتناولها وبدمه ، ويدعو تناولها الى تذكر الرب وما حدث له لتخليص الانسانية من خطاياها واستحضار مجيئه يوم القيامة ومحاسبته للناس . فهو فى نظرهم امتزاج بالعنصر الالاهى من جهة وتذكر للماضى وتخيل واستحضار للمستقبل من جهة أخرى [91] . وبذلك يصرح القرار الذى صدر من مجمعى ترنت المنعقدين سنتى ١٥٤٥ و ١٥٦٣ Concile de Trente اذ يقول : « قد اعتقدت كنيسة الله دائما بأنه بعد التقديس يوجد ربنا الحقيقى مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر . . . لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت شكل الخبز وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل ، كما أنه هو أيضا تحت شكل الخمر وجميع أجزائه . وقد اعتقدت الكنيسة

---

(٩٠) فقرات ٢٦ — ٢٨ من اصحاح ٢٦ من انجيل متى .

(٩١) يظهر أن قصة هذا العشاء محرفة عن قصة المائدة التى ذكرها القرآن الكريم اذ يقول . « اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » .— هذا وقد ورد فى انجيل متى (فقرات ١٥ — ٢١ من اصحاح ١٤) ذكر لمائدة أخرى كانت معجزة لعيسى . فقد بارك خمسة أرغفة وسمكتين فأكل منها خمسة آلاف رجل غير النساء والأطفال حتى شبعوا جميعا ، وملأ ما بقى من فضلات طعامهم اثنى عشرة سلة . فلعل هذه المائدة الأخيرة هى التحريف لما ورد فى القرآن .

أيضا اعتقادا ثابتا بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز الى جوهر جسد ربنا وكامل جوهر الخمر الى جوهر دمه . . . » .

فالكنيسة الشرقية تحافظ على حرفية النص السابق في انجيل متى فتوجب استخدام الخبز في العشاء الرباني ؛ بينما تبيح الكنيسة الغربية استبدال الفطائر بالخبز .

٣ – ويحرم المذهب الكاثوليكي الطلاق تحريما باتا ، ولا يبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه . وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مبررا للطلاق . وكل ما يبيحه في حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية – بحسب تعبيرهم – بين شخصي الزوجين séparation des corps مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما في اثناء هذه الفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر . ويعتمد المذهب الكاثوليكي في ذلك على ما ورد في انجيل متى على لسان المسيح اذ يقول : « لا يصح أن يفرق الانسان ما جمعه الله » ، على حين أن المذهب الأرثوذكسي يبيح الطلاق في حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة مع تحريمه الزواج على المطلق والمطلقة بعد ذلك . ويعتمد المذهب الأرثوذكسي في ذلك على ما ورد في انجيل متى على لسان المسيح اذ يقول : « من طلق امرأته الا بسبب الزنا يجعلها تزني »(٩٢) .

---

(٩٢) عرضنا فيما سبق لهذا الموضوع وأوضحنا مبلغ مجافاة هذه الأحكام لشئون العمران ،(انظر ما ذكرنا في هذا الصدد في فقرة ٦ من هذا الفصل).وقد درسنا هذا الموضوع بشئ من التفصيل مع الموازنة بين موقف المسيحية في هذا الصدد وموقف الاسلام في كتابنا « حقوق الإنسان في الإسلام » وفي كتابنا « بيت الطاعة وتعدد الزوجات والطلاق في الاسلام » وفي كتابنا « المرأة في الإسلام » .

المذهب البروتستانتى

فى أوائل القرن السادس عشر ظهر فى العالم المسيحى ، بجانب النحل السابق ذكرها ، نحلة جديدة أطلق عليها اسم البروتستانتية protestantisme أى نحلة الاحتجاج أو الاعتراض وأطلق على معتنقيها اسم البروتستانت Protestants أى المحتجين أو المعترضين . وقد دعا الى ظهور هذه النحلة أمور كثيرة يرجع أهمها الى مظاهر الفساد التى بدت فى كثير من شئون الكنيسة الكاثوليكية ومناهجها وطقوسها ، وما أحدثته من بدع ، ومسلك قسيسيها والقوامين عليها ، والى تحكمها فى تفسير كل شىء ، ومحاولة فرض آرائها على جميع اتباعها حتى الآراء التى لا علاقة لها بالدين كالآراء المتعلقة بظواهر الفلك والطبيعة وشئون السياسة ونظم الحكم وما الى ذلك .

فمن ذلك ما اتخذه مجمع لاتيران الرابع المنعقد سنة ١٢١٥ Coincile de Latıran بشأن الهراطقة إذ أباح للكنيسة استئصالهم . وكانوا يعنون بالهراطقة كل من يرى رأيا يخالف رأى الكنيسة ولو كان فى أمور تتعلق بشئون السياسة ونظم الحكم أو بمسائل العلوم كظواهر الفلك والطبيعة والأحياء . وقد نفذ ذلك القرار بالفعل فى كثير من دعاة الاصلاح فى الدين وممن خالفوا آراء الكنيسة فى شئون السياسة ومسائل العلوم . فكان يحكم عليهم بالاعدام رجما أو حرقا ويحرق معهم ما عسى أن يكون لهم من بحوث ومؤلفات . وأنشئ لمحاكمة الهراطقة والمخالفين لآراء الكنيسة فى الشئون الدينية وغيرها وللمزاولين لأعمال السحر محاكم خاصة اشتهر معظمها باسم « محاكم التفتيش » وراح ضحية تفتيشها وتحقيقاتها الغريبة آلاف من الأنفس أخذ معظمهم بالظنة والوشاية والكيد . وحتى الملوك

أنفسهم لم يكونوا بمنجاة من هذا العسف . فقد حكمت الكنيسة على بعضهم بالطرد والحرمان لجنوحهم لمخالفتها والخروج على طاعتها فى بعض الشئون .

ومن ذلك ما سارت عليه كنيسة روما من فرض اتاوات وضرائب باهظة على التابعين لها ، وما كان ينفق الا القليل من حصيلة هذه الاتاوات والضرائب على الشئون المسيحية العامة ، ومعظمه كان يتوزعه رجال الكنيسة بينهم وينفقونه فى شئون ترفهم وشهواتهم .

ومن ذلك تحريم الكنيسة الكاثوليكية على القسس والرهبان والراهبات الزواج ، وما أدى اليه ذلك التحريم من انتشار الفسق والفجور بين رجالها ونسائها ، حتى لقد كان القسس والرهبان يتصلون بالراهبات أنفسهن ويبررن ذلك بأنه ضرب من « المساكنة الروحية » .

ومن ذلك ما كانت تذهب اليه الكنيسة فى صدد « العشاء الربانى » من تفسيرات غريبة لا يسيغها عقل سليم ، اذ تزعم أن الخبز والخمر اللذين تعدهما ليتناولهما المصلون فى بعض الأعياد على الأخص يستحيلان الى أجزاء من جسم المسيح ودمه كما سبق بيان ذلك[٩٣] .

ومن ذلك ما اتخذه أحد مجامعهم بشأن غفران الذنوب . فقد قرر أن من حق رجال الكنيسة الكاثوليكية أن يغفروا للمسيء ذنوبه فى حالة احتضاره وفى حالة صحته ، وأن يغفروا ما تقدم منها وما تأخر . وقد أفرط رجال الكنيسة الكاثوليكية افراطا كبيرا فى استخدام هذا الحق ، حتى لقد أنشئوا صكوكا للغفران تباع وتشترى ، واتخذتها الكنيسة موردا هاما لكسب المال ، فلم يستكثر الناس بذل الأموال فى الحصول عليها ما دامت تكفل لهم غفران ما ارتكبوه وما يرتكبونه من معاص وآثام . وفيما يلى نص هذا الصك الغريب .

---

(٩٣) انظر رقم ٢ من الفقرة السابقة (فقرة ١٠٢) .

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة . وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وكذلك من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وان كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع اقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر[٩٤] ، وأردك حديثا الى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين ، أردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك[٩٥] ، حتى انه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة الى محل العقاب والعذاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى الى فردوس الفرح ، وأن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة ، باسم الآب والابن وروح القدس » .

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة من هذا القبيل ظهر فى القرن السادس عشر دعاة للاصلاح الدينى وتخليص المسيحية من هذه الأدران ، وتكونت من اصلاحاتهم نحلة جديدة هى النحلة البروتستانتية . وكان على رأس هؤلاء المصلحين مارتن لوثر الألمانى Martin Luther وزونجلى السويسرى Zwingli وكلفن الفرنسى Calvin

أما مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) فهو اسبقهم جميعا واليه تنسب النحلة البروتستانتية أكثر مما تنسب الى غيره . وقد ثار أول الأمر ضد صكوك الغفران وأعلن بطلانها وكتب فى ذلك احتجاجا علقه على باب الكنيسة (ومن ثم سميت نحلته بالبروتستانتية أى نحلة الاحتجاج أو الاعتراض) . فأصدر البابا قرارا بحرمانه واعتباره

(٩٤) انظر شرح هذه الكلمة فى أوائل فقرة ٧ من هذا الفصل .

(٩٥) انظر شرح هذه الكلمة فى أوائل فقرة ٥ من هذا الفصل .

كافرا زائغ العقيدة . فلم يأبه لوثر لهذا القرار بل عمد إلى الانذار الذى أرسل إليه فى هذا الصدد فحرقه فى ميدان من أكبر ميادين المدينة فى جمع حاشد من الناس . فجمع البابا سنة ١٥٢٠ مجمعا قرر محاكمته . فلم يذعن مارتن لوثر لهذا القرار . ولما حاول الامبراطور فى سنة ١٥٢٩ أن ينفذ هذا القرار ثار أنصار لوثر واحتجوا على ذلك (ومن ثم سمى أتباع هذه النحلة بالبروتستانت أى المحتجين) . وأخذ لوثر من ذلك الحين ينشر مبادئه المعارضة للكنيسة الكاثوليكية ، والتى تكونت منها النحلة البروتستانتية . وأخذ الناس يدخلون فى نحلته أفواجا .

وأما زونجلى السويسرى (١٤٨٤ – ١٥٣١) فقد ظهر فى العصر نفسه الذى ظهر فيه لوثر ودعا الى كثير مما دعا اليه لوثر فى شئون الدين وثار على صكوك الغفران وغيرها من مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وتبعه كذلك خلق كثير . ولكنه مات قتيلا فى أثناء صراع وقع بين أنصاره وأنصار الكنيسة الكاثوليكية . وكانت دعوته منفصلة عن دعوة لوثر وان التقت معها فى مبادئها .

وأما كلفن الفرنسى (١٥٠٩ – ١٥٦٤) فقد قام بعد لوثر بالدعوة الى البروتستانتية ونشر مبادئها وألف فى ذلك بحوثا ورسائل كثيرة نشر معظمها بعد فراره الى جينف بسويسرا . – فاليه يرجع الفضل الأكبر فى تنظيم البروتستانتية وتحرير مبادئها .

وقد انتشرت البروتستانتية فى كثير من بلاد العالم ويعتنقها الآن معظم أهل المانيا والدانمرك وسويسرا وهولندا والسويد والنرويج وانجلترا واسكتلنده وايرلنده الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية ؛ وأخذت الآن،بفضل جمعيات التبشير البروتستانتية وعظيم نشاطها وواسع امكانياتها المالية واخلاص رجالها لمبادئها ، تغزو كثيرا من معاقل الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وتنتشر فى السودان الجنوبى وأواسط أفريقيا والصين واليابان .

هذا ، ولا تختلف البروتستانتية عن النحل السابقة فيما يتعلق بجوهر العقيدة . فهى مثلها تؤمن بالتثليث والوهية المسيح وبنوته لله وصلبه وقيامته ورفعه وحسابه للعالم يوم القيامة وبأنه صلب لتكفير الخطيئة الأزلية التى ارتكبها آدم وعلقت بجميع

نسله . . وما الى ذلك من الأمور التى استقرت عليها العقيدة المسيحية والتى أشرنا إليها فيما سبق . وانما تختلف البروتستانتية عن غيرها من النحل المسيحية بوجه عام وعن الكاثوليكية بوجه خاص فى أمور فرعية من أهمها ما يلى :

١ – تستمد البروتستانتية جميع الأحكام المتعلقة بالعقائد والعبادات والشرائع من الكتاب المقدس وحده ، ولا تقيم لغيره وزنا فى هذا الصدد الا اذا كان تفسيرا معقولا لما ورد فى هذا الكتاب ؛ على حين أن الكنائس الأخرى تستمد أحكامها من الكتاب المقدس ومن قرارات المجامع وآراء البابوات ورؤساء الكنائس . ومن ثم سميت الكنائس البروتستانتية الكنائس الانجيلية لاعتمادها على الانجيل خاصة وعلى سائر أسفار الكتاب المقدس بوجه عام ، بينما سميت الكنائس الأخرى الكنائس التقليدية لاعتمادها على التقاليد المستمدة من المجامع ومن آراء رؤساء الكنيسة وجعلها لهؤلاء الرؤساء سلطانا فى تقرير حقائق العقائد والعبادات والشرائع .

٢ – لا تقر البروتستانتية البابوية أو الرياسة العامة فى شئون الدين . ولذلك ليس لكنائسهم رئيس عام كما هو الشأن فى الكنائس الأخرى ، وإنما تجعل لكل كنيسة بروتستانتية رياسة خاصة بها ، وليس لها الا سلطان الوعظ والارشاد والقيام على شئون العبادات والواجبات الدينية الأخرى وعلى تعليم مسائل الدين . ولا يسمون رجال الدين قسسا كما هو الشأن فى الكنائس الأخرى ، وانما يسمونهم « رعاة » Pasteurs لأنهم يرعون تابعى كنيستهم ويؤدون لهم ما يجب على الراعى أن يؤديه نحو رعيته من واجبات .

٣ – ليس فى البروتستانتية نظام الرهبنة ، وهى لا تحرم الزواج على رجال الدين كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقسس بمختلف درجاتهم[٩٦] .

٤ – تنكر البروتستانتية كل الانكار أن يكون لرجل الدين الحق فى غفران الذنوب فى حالة الاحتضار وغيرها ، وانما تجعل ذلك الحق لله وحده ، فيقبل ان شاء توبة العاصى ويغفر له ما تقدم من ذنبه ، بل أن أهم ما اتجهت البروتستانتية فى

(٩٦) انظر فى ذلك كتابنا « قصة الزواج والعزوبة فى العالم » .

نشأتها إلى القضاء عليه هو ما كانت تزعمه الكنيسة الكاثوليكية لرجالها من السلطان فى محو الذنوب ، وما تبع هذا الزعم من نظام صكوك الغفران كما تقدم بيان ذلك [٩٧] .

٥ – تقرر البروتستانتية أن الغرض من أكل الخبز وشرب الخمر فى العشاء الربانى هو أن يكون وسيلة رمزية لتذكر ما قام به المسيح فى الماضى إذ قدم جسمه للصلب ودمه للإراقة لتخليص الإنسانية من الخطيئة الأزلية ولتذكر ما سيقوم به يوم القيامة إذ يدين الناس ويحاسبهم على ماكسبت أيديهم . وبذلك تنكر البروتستانتية كل الانكار ما تذهب اليه الكنائس الأخرى اذ تزعم أن ما تجريه على الخبز والخمر من طقوس يحولها الى أجزاء من جسم المسيح ومن دمه كما تقدم بيان ذلك[٩٨] .

٦ – تنكر البروتستانتية انكارا باتا جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أم المسيح من طقوس واحتفالات وعبادات وأعياد[٩٩] ، وتعتبر ذلك خروجا على أصول الدين .

٧ – تحرم البروتستانتية ما تسير عليه الكنائس الأخرى من وضع الصور والتماثيل فى أماكن العبادة واتجاه المصلين لها بالسجود ، معتمدة على تحريم التوراة لذلك وعلى أن شريعة موسى شريعة للمسيحيين الا ما ورد نص صريح من المسيح بنسخه أو تعديله . فقد جاء فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية ، وهو من أهم الأسفار التشريعية فى التوراة المزعومة : « لا تجعل لك تمثالا منحوتا يمثل شيئا ما من ظواهر السماء من فوق أو مما فى الأرض من أسفل أو مما فى الماء من تحت الأرض ، ولا تسجدلهن ولا تعبدهن ، فإننى أنا إلاهك الباقى الاه غيور أعاقب الأولاد بظلم

---

(٩٧) انظر فى أول هذه الفقرة الأسباب التى دعت الى قيام البروتستانتية .

(٩٨) انظر رقم ٢ من فقرة ١٢ من هذا الفصل .

(٩٩) انظر رقم ٢ من فقرة ٩ من هذا الفصل .

الآباء حتى الجيل الثالث والرابع واسبغ نعمتى على من يخلصون لى ويتبعون أوامرى وعلى ذريتهم من بعدهم الى ألف جيل »[100]

٨ – تحرم البروتستانتية أن تقام الصلاة بلغة غير اللغة المفهومة للمتعبد ، كما تفعل الكنائس الأخرى اذ تقيمها بلغة ميتة كاللاتينية والقبطية[101] .

---

(١٠٠) فقرات ٨ – ١٠ من الاصحاح الخامس من سفر التثنية .

(١٠١) من أهم المراجع فى الموضوعات التى درسناها فى الفقرات الخمس الأخيرة من هذا الفصل (فقرات ٩ – ١٣) البحث القيم الذى نشره صديقنا المرحوم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة تحت عنوان « محاضرات فى النصرانية » .

الفصل الثالث

أسفار الديانة الزرادشتية

سنمهد لهذا الفصل بفقرتين : نعرض فى أولاهما لشخصية زرادشت واختلاف الآراء بشأنها ؛ وفى الأخرى لتاريخ حياته ورسالته وانتشار دينه .

ثم نقف بقية فقرات هذا الفصل على الأسفار المقدسة للديانه الزرادشتية (أسفار الأبستاق) وشروحها وما تقرره من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق .

– ١ –

شخصية زرادشت

يطلق العرب عليه اسم « زرادشت » ، وهو اسمه فى الفارسية الحديثة . وكان اسمه فى الفارسية القديمة (لغة الأسفار المقدسة المسماة « الأبستاق ») زراتسترا Zarathoustra أو سبيتاما زراتسترا Spitama Zarathoustra (والراجح أن سبيتاما هو اسم أحد أجداده) . ويسمى فى الفهلوية (الفارسية فى مراحلها المتوسطة) زراتشت . ويسميه المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » وابن النديم فى كتابه « الفهرست » زرادشت بن سبتمان . ويسميه الفرنجة زوروآستر Zoroastre أخذا من اسمه فى اللاتينية – ويذكر « الأبستاق » (مجموعة الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية التى سنتكلم عليها فى الفقرة الثالثة) أن أباه كان يسمى بوراشاسب Pourashaspe وأن أمه كانت تسمى دغدهوا Doughd—Huova وتسمى فى الفهلوية دغدافو Doghdavo وفى الفارسية الحديثة دغدويه .

وقد اختلف الباحثون فى شخصية زرادشت ، وانقسموا فى صددها إلى ثلاث فرق :

١ – ففريق ينكر وجوده ، ويقرر أنه شخصية أسطورية خيالية ، قد نسجت

حولها طائفة من العقائد والتقاليد والشرائع والعبادات التى كان يسير عليها الايرانيون . ولا يقدم هذا الفريق بين يدى مذهبه دليلا يعتد به ، بل لقد دلت الكشوف الحديثة على بطلان هذا الرأى ، ولم يعد له وزن ما بين المحدثين من الباحثين .

٢ – وفريق يرى أنه شخصية حقيقية ، وأنه هو إبراهيم الخليل الذى ورد ذكره فى التوراة والقرآن ، وأن أسفار « الأبستاق » هى صحف ابراهيم التى تحدث عنها القرآن الكريم [١] .

وقد ساد هذا الرأى لدى كثير من الزرادشتين خاصتهم وعامتهم . فالأسدى فى كتابه « لغت فرس » يقول « الأبستاق تفسير الزند وكان الزند صحف إبراهيم » [٢] . ويقول صاحب « برهان قاطع » : « كان ابراهيم زرادشت يدعى أن الزند نزل عليه من السماء ، ويقول بعضهم إنه صحف إبراهيم » [٣] .

ولعل التشابه بين ما تذكره الكتب المقدسة عن حياة ابراهيم وما تذكره التراجم والأساطير الفارسية عن حياة زرادشت ، وخاصة ما يتعلق باتجاه كليهما إلى التأمل فى كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتهاء من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة [٤] ، وما يتعلق بمحاربة كليهما لما كان

---

(١) « أن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى » آخر آية من سورة الأعلى .

(٢) يجعل الأسدى الأبستاق تفسيرا للزند ، مع أن الأمر على العكس من ذلك ، فالزند هو شرح الأبستاق كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرتين الثالثة والرابعة من هذا الفصل .

(٣) يخلط صاحب هذا الكتاب بين « الأبستاق » و « الزند » فالكتاب الأصلى الذى يزعم الزرادشتيون أنه نزل من السماء هو « الأبستاق » وأما الزند فهو شرح للأبستاق كما سيأتى بيان ذلك . انظر الدكتور أمين عبد المجيد : « القصة فى الأدب الفارسى » ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) أشار القرآن الكريم إلى هذه التأملات والملاحظات اذ يقول : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برى مما تشركون » (الأنعام ٧٥ – ٧٨) .

يعكف عليه قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام[٥] ، وما يتعلق بالقاء كليهما فى النار وجعلها بردا وسلاما عليه [٦] ، لعل التشابه بينهما فى هذه الأمور وما إليها هو الذى دعا هذا الفريق إلى القول بأن زرادشت هو إبراهيم الخليل وأن الأبستاق هو صحف ابراهيم .

وليس لهذا الرأى أى سند يعتد به ، بل إن أدلة كثيرة تتضافر على القطع ببطلانه . فمن ذلك أن زرادشت قد ظهر فى أصح الروايات فى القرن السابع قبل الميلاد ، على حين أن إبراهيم الخليل كان ظهوره حوالى القرن السابع عشر قبل الميلاد أى قبل زرادشت بنحو عشرة قرون . ومن ذلك أن إبراهيم الخليل قد نشأ فى بلدة أوربيلاد الكلدان وأنه سامى الجنس ، على حين أن زرادشت قد نشأ بأذربيجان أحدى مقاطعات ميديا فى بلاد ايران وأنه آرى الجنس . ومن ذلك أن القرآن يحدثنا عن رحلة ابراهيم إلى مكة واسكانه فيها ابنه اسماعيل وأمه هاجر وبنائه للكعبة ، بينما يدل تاريخ زرادشت على أنه لم يرحل إلى بلاد الحجاز ولم تكن له صلة ما بمكة ولا بالبيت الحرام .

٣ – والرأى الصحيح هو ما يذهب إليه الفريق الثالث الذى يقرر أن زرادشت شخصية حقيقية وأنه غير ابراهيم الخليل . وقد اختلف هؤلاء فى تحديد جنسيته

---

(٥) أشار القرآن الكريم إلى محاربة إبراهيم لعبادة الأصنام فى عدة سور منها قوله تعالى فى سورة الأنبياء « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . . . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ اف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » (الأنبياء ٥١ – ٦٧) . ومنها قوله تعالى فى سورة الصافات فى قصة ابراهيم : « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أئفكاً آلهة دون الله تريدون ؟ . . . قال أتعبدون ما تنحتون ؟ ! والله خلقكم وما تعملون » (الصافات ٨٥ – ٩٦) . ومنها قوله تعالى فى سورة الأنعام : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟ ! إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » (الأنعام ٧٤) .

(٦) ذكر القرآن الكريم قصة القاء ابراهيم فى النار وجعلها بردا وسلاما عليه فى سورة الأنبياء اذ يقول : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » (الأنبياء ٦٨ – ٧٠) . وفى سورة الصافات اذ يقول : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » (الصافات ٩٧ ، ٩٨) .

وتحديد الزمن والمكان اللذين ظهر فيهما . وأرجح الاراء فى هذا الصدد أنه ايرانى الجنس ، وأنه ولد فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد حوالى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد بأذربيجان أحدى مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا ، وأنه قد هاجر منها إلى بختر فى شرقى ايران فى مرحلة شبابه ، وأنه مات قتيلا فى بيت من بيوت النار فى بلخ حوالى سنة ٥٨٣ عندما أغار عليها الطورانيون . وقد اعتمد أصحاب هذا الرأى على أدلة تاريخية كثيرة يكاد بعضها يصل إلى درجة اليقين . وفى مقدمة المنتصرين لهذا الرأى من العلماء المحدثين دار ميستيتير وهوارت من الفرنسيين وويست الانجليزى وجاكسون الأمريكى [٧] Darmesteter, Huart. West, Jackson.

ولا يعتد أحد من العلماء الباحثين فى الوقت الحاضر بما كان يزعمه اليهود – حسب ما يروى عنهم الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب – من أن زرادشت كان من أهل فلسطين ، وكان من خاصة الخدم لبعض تلاميذ أرمياء النبى ، فخانه وكذب عليه ، فأصيب بالبرص ، وفر من فلسطين ، ولحق ببلاد أذربيجان ، وشرع بها دينه .

– ٢ –

حياته ورسالته وانتشار دينه

الراجح أن زرادشت ولد حوالى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد بأذربيجان أحدى مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا فى القسم الغربى من بلاد فارس كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

ويروى عن مولده وعن الفترة السابقة لمولده قصص وأساطير كثيرة يشبه بعضها ما يقوله المسيحيون عن المسيح وأن روح الله قد حلت فيه أو أنه أحد الأقانيم المكونة للالاه ، ويشبه بعضها ما حدث لابراهيم الخليل من القائه فى النار بدون أن يمسه منها ضرر ، ويقص بعضها نبأ حوادث كونية وفلكية وحيوانية غريبة كانت إرهاصا

---

(٧) انظر حامد عبد القادر : « زرادشت الحكيم » ٢٨ – ٣١ .

لبعثته وبشيرا بقرب ظهوره . فمن ذلك ما ترويه أساطير الايرانيين من أن ثورا قد ظهر قبل مولده وتكلم منبئا بقرب ظهور منقذ للعالم من سيطرة قوى البشر . وتنسب أساطير أخرى هذه البشارة إلى ثورين اثنين لا إلى ثور واحد . ومن ذلك ما شاع اعتقاده عند قدامى الايرانيين من أن الله قد نفخ فى رحم أمه من روحه ، فتقمصت روح الله جسد زرادشت ، فنشأ جامعا بين اللاهوت والناسوت ، على نحو ما يعتقده المسيحون فى المسيح ، وأنه لما ولد أحاط بالدار التى ولد بها نور قدسى وهّاج ، وهبط من السماء نجم عظيم ودنا من الأرض وأعلن النبأ السار ، وظهر فى عرض الأفق فى السماء كوكب عظيم ملأ ضياؤه جميع أنحاء الفضاء ، وأنه قد ضحك عقب ولادته بصوت مرتفع سمعه جميع الحاضرين . وكان المنجمون قد اخبروا حاكم أذربيجان أن نبيا سيظهر قريبا وأنه سيتم على يديه الغاء دين الفرس وابطال السحر وأنه ستبدو منه أمور خارقة للعادة عقب ولادته ، ولما سمع الحاكم بولادة زرادشت وأنه ضحك عقب ولادته ذهب فى طلبه إلى دار أبيه بوراشاسب وهم بقتله بخنجره ، ولكن يده قد جمدت ولم تستطع تحريك الخنجر ، فأشار عليه السحرة بأن يبنى بنيانا كبيرا ويملأه وقودا ويشعل فيه النار ويلقى فيه زرادشت ، فأنفذ ما أشاروا به ، ولكن النار لم تحرق الطفل ، بل كانت بردا وسلاما عليه ، وأخذته سنة من النوم فنام فى وسط الرماد ، وما برح نائما حتى جاءت أمه مستخفية على حين غفلة من الناس فحملته إلى دارها سليما[٨] .

ولما بلغ زرادشت العشرين من عمره أحس رغبة شديدة فى الوقوف على حقيقة الكون وخالقه ومحتويات الطبيعة وما وراءها . فآثر العزلة والرياضة الروحية والتأمل العميق فى ملكوت السماوات والأرض ، لتصفو روحه ، ويوقن بقدرة الاله ، وتطهر نفسه من جميع عقائد الشرك والسحر ونسبة الأفعال للكواكب والمخلوقات ، وتتهيأ لتلقى الاشراق والاهتداء إلى معرفة الحق . وأخذ يطوف بمختلف بلاد ايران لتزداد تجاربه وتزداد معرفته بالمجتمعات وشئون حياتها . وقد استغرقت هذه المرحلة

---

(٨) حامد عبد القادر ، زرادشت الحكيم ٣٦ - ٣٩ .

عشر سنين ، فبلغ فى نهايتها الثلاثين من عمره ، وكان حينئذ قد وصل إلى أرقى درجات الصفاء الروحى .

وتروى أسفار الديانة الزرادشتية أنه حينما بلغ هذه المرحله نزل عليه الوحى من السماء . فبينما هو واقف على شاطىء نهر دينى Daiti فى مقاطعة أذربيجان اذا به يرى كائنا مضيئا يهبط من السماء ، وكأنه عمود من نور ، حجمه تسعة أمثال حجم الانسان ، ويحمل فى يده عصا من اللهب ، ولما دنا منه أنبأه أنه ڤاهومانا Vahumana كبير الملائكة أرسله الله إليه ليعرج به إلى الملأ الأعلى ليحظى بشرف المثول أمام رب العالمين « أهورا مزدا » . وهنالك أشرقت عليه معرفة الحق ، وتكشفت له أسرار الكون ، ورفعت عن بصره الحجب ، ووقف على ما كان يسعى للوقوف عليه وأصبح نبيا مرسلا ، وأوحى الله اليه بتفاصيل دين كامل يبلغه الخلق ، وبكتاب مقدس هو « الأبستاق » الذى سنتكلم عليه فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

وقضى زرادشت عشر سنين يطوف فيها ببلاد ايران ، ويبلغ الناس رسالته ، بدون أن يجد مستجيبا لما يدعو إليه . وقد قاسى فى أثناء ذلك من المتاعب والأهوال ما لا يصبر على احتمال مثله الا أولو العزم من الرسل . ولما لم يظفر فى بلاده بأتباع يدخلون فى دينه رحل إلى بلاد الطورانيين ، فلم يجد منهم خيرا مما وجده من أهله ، بل لقد كانوا شرا عليه من أهله ، فقد لقى منهم عنتا وأذى شديدين ، بل لقد تعرض للهلاك أكثر من مرة .

ولم يودعه أهورا مزدا ولم يحرمه عنايته فى هذه المدة ، بل ظل يؤيده ويقوى عزيمته ويربط على قلبه ، ويثبت عقيدته بالوحى المتوالى ، ويعده بأن الآخرة ستكون خيرا له من الأولى وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى . وقد نزل عليه الوحى فى أثناء هذه السنين العشر سبع مرات ظهر له فيها الملائكة الستة كبار الملائكة .

وفى السنة الحادية عشرة بعد نبوته أى حينما جاوز الأربعين من عمره بدت فى أفقه طلائع النجاح ، فآمن به ابن عمه متيوماه Metyomah ، وانتصر لدينه ، فشد الله به أزره ، وقوى به دعوته .

ومضت سنتان بعد ذلك لم يؤمن به فى أثنائهما أحد ، وان كانت محتويات رسالته قد انتشرت وأصبحت معروفة لكثير من الناس .

وبعد أن بلغ الثانية والأربعين أوحى الله اليه أن يذهب إلى كشتاسب (أو يوشتاسف أو يستاسف كما يسميه العرب) ملك ايران حينئذ ليبلغه رسالة ربه لعله يتذكر أو يخشى . فصدع بما أمر به ، وشخص إلى عاصمة الملك ببلخ ، ودعا الملك إلى الدخول فى دينه ، بعد أن وقفه على أصوله ، وتلا عليه آيات من كتابه المقدس الذى أوحى إليه به . فتأثر الملك بما سمع ورق قلبه لهذا الدين وان كان لم يدخل فيه ، وأنزل زرادشت منزلا كريما ، وأحاطه بحفاوة عظيمة ، وأعد لاقامته جناحا خاصا فى قصره زوده بفاخر الأثاث والرياش والخدم والأتباع . ويروى الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب أن المجوس يزعمون أنه نزل على الملك كشتاسب من سقف ايوانه وبيده كبه من نار يلعب بها ولا تحرقه .

وقد أثارت حفاوة الملك بزرادشت حسد كثير من رجال الحاشية والمقربين للملك ، فأخذوا يأتمرون بزرادشت ، ويسعون ضده بالوشاية ، ويدبرون له المكايد ، ويتربصون به الدوائر . ولكن انتهى الأمر بعد محن كثيرة أصابت زرداشت بانتصاره على أعدائه واقامة الحجة عليهم واثبات نبوته بظهور معجزات كثيرة على يديه وابرائه لأمراض وعاهات يعجز الطب العادى عن شفائها . فمن ذلك شفاؤه لجواد الملك كشتاسب . فقد كان لهذا الملك جواد أسود يحبه ويعتز به ، وأصابه مرض تقلصت من جرائه قوائمه الأربع جميعا ودخلت فى بطنه ولم يظهر منها إلا أطرافها ؛ وعجز جميع بياطرة الدولة عن علاجه . فأشير على الملك أن يعرضه على زرادشت ، وكان حينئذ سجينا . فأخرجه من السجن وطلب إليه أن يدعو ربه أن يبرىء الجواد من مرضه ، فاشترط زرادشت لذلك أربعة شروط ، وهى : أن يؤمن الملك والملكة برسالته ؛ وأن يعلن الملك الحرب على الطورانيين ؛ ويكون ولى العهد على رأس جيشه ؛ وان يعاقب من تسببوا فى سجن زرادشت عقابا صارما . فقبل الملك شروطه ، وكان كلما حقق شرطا منها توجه زرادشت بالدعاء إلى ربه فتخرج احدى قوائم الجواد من بطنه ، وهكذا حتى خرجت قوائمه كلها ، وعاد كأن لم يكن

قد أصابه شيء من قبل . ومن ذلك أيضا أنه أعاد البصر إلى أعمى من بلدة الدينور بأن وصف له حشيشة وطلب أن يعصر ماءها فى عينه فأبصر[٩] .

فآمن الملك والملكة وولى العهد وتبعهم رجال الحاشية والجيش والخاصة . وكان فى مقدمة من اعتنقوا الدين الجديد من حاشية الملك رجلان قدر لهما أن يكونا الحواريين العظيمين المخلصين للزرادشتيه ، المجاهدين فى سبيل نشرها والدفاع عنها وهما « جاماسب » وزير الملك ونجيه « وفراشا أوسترا » وزير الملك الثانى . وقد رأى زرادشت أن يوثق الصلة بينه وبين حاشية الملك بإيجاد رابطة نسب بينه وبين هذين الحواريين . فزوج أخته من « جاماسب » وتزوج هو من أخت « فراشا أوسترا » . فحين انضمت رابطة النسب إلى رابطة الدين توثقت العلاقة بين درادشت ووزيرى الملك . ولا ريب أن هذا كان من أسباب سرعة انتشار الزرادشتية »[١٠] .

وأخذ الناس بعد ذلك يدخلون فى هذا الدين أفواجا ، ولم تمض بضع سنين حتى اعتنق الزرادشتيه معظم أهل ايران ، بل يقال أنه قد دخل فى هذا الدين كثير من أهل البلاد المجاورة لايران ، وخاصة بعض بلاد من الهند ، بل يقال أنه انتشر كذلك فى بعض بلاد اليونان نفسها .

وشن كشتاسب ورجال دولته حربا دينية لا هوادة فيها على مخالفيهم فى العقيدة . فاضطر فريق ممن لم يؤمنوا بزرادشت ودعوته إلى الهجرة عبر جبال هندوكوش ونزلوا أرض البنجاب ، وبقى الفريق الآخر بايران نفسها محتملين آثار الاضطهاد[١١] . ولم تصبح الزرادشتيه ديانة رسمية للدولة إلا أيام الساسانيين فى القرن الثالث الميلادى .

---

(٩) من الطريف أن الشهرستانى لا يسلم بأن هذه معجزة ، بل يرى أنها خاصة من خواص الحشائش التى عصر ماؤها ، فيقول : « وهذا من جملة معرفته بخاصة الحشيش وليس من المعجزات فى شىء» ! مع أنه من الواضح أن الرابطة بين الحشيش والابصار فى هذا الحادث – أن صحت هذه القصة – ليست على ما يظهر رابطة سبب بمسبب ، بل مجرد مصاحبة اتفاقية ، كضرب قتيل بنى اسرائيل بجزء من البقرة المذبوحة وبعثه إلى الحياة بعد هذه الضربة . ولو أن شخصا آخر غير زرادشت وصف هذا الاجراء ما أدى إلى هذه النتيجة .

(١٠) حامد عبد القادر ، زرادشت الحكيم ، ص٥٧ .

(١١) أمين عبد المجيد ، القصة فى الأدب الفارسى ص ١٦ .

ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن عقيدة الايرانيين عامة ؛ بل كانت تقوم إلى جانبها وتتصارع معها عقائد شتى تعتنقها أقليات من الايرانيين ؛ ومن أهم هذه العقائد اليهودية والبوذية والنصرانية والمانوية والمزدكية . ثم جاء الاسلام فدخل فيه معظم أهل ايران ولم يبق على الزرادشتية إلا نفر قليل هاجر بعضهم إلى بلاد الهند ولا تزال منهم فى الوقت الحاضر طائفة فى بومباى تعرف بالفرسيين وتتمسك بهذا الدين إلى يومنا هذا، وبقيت فئة منهم فى فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار فى المعابد فى كثير من الولايات الفارسية . وعاشت هذه الفئة مع الأقليات الدينية الأخرى فى أمان واطمئنان فى ظل المسلمين . ثم أخذ أتباع الزرادشتيه فى ايران يتناقص عددهم شيئا فشيئا منذ القرن الثالث الهجرى حتى أوشكوا على الانقراض ولم يبق منهم فى العصر الحاضر إلا عدد قليل .

هذا ، وقد قضى زرادشت نحبه حوالى سنة ٥٨٣ قبل الميلاد على أرجح الأقوال وهو فى نحو السابعة والسبعين فى أحد الهياكل المقدسة فى بلخ . ومات قتيلا وهو يقوم على خدمة النار فى أثناء غارة الطورانيين على بلاد ايران . فقد وصلوا إلى بلخ بينما كان زرادشت وثمانون من كبار الكهنة يقدمون الوقود للنار فى هيكل هذه المدينة ، فهجم عليهم الأعداء وطعنوهم بسيوفهم ، فخر الجميع صرعى ، وسالت دماؤهم فلطخت جدران موقد النار ، وامتدت إلى النار المقدسة نفسها فأخمدتها .

—٣—

الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية
« الأبستاق »

يطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية اسم « الأبستاق » وهو تعريب لكلمة « الأفستا » Avesta (ومعناها الأساس أو الأصل أو المتن أو السند) . والمقرر فى هذه الديانة أن الأبستاق موحى به من الالاه المسمى عندهم « أهورا مزدا » وليس من وضع زرادشت .

وكان الأبستاق يشتمل على واحد وعشرين سفرا ، وكان مجموع الفصول التى تشتمل عليها هذه الأسفار ألف فصل . ويحوى تفصيلاً لعقائد الديانة الزرادشتية وعباداتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها .

ويقال انه سجل على اثنى عشر ألف جلد من جلود البقر أو الثيران أو المعز[١٢] ، وأنه كتب حفرا فى الجلد ونقشا بالذهب . وفى هذا يقول المسعودى فى « مروج الذهب : « ان الأبستاق كتب فى أثنى عشر ألف مجلد بالذهب ، فيه وعد ووعيد وأمر ونهى وغير ذلك من الشرائع والعبادات »[١٣] .

وقد فقدت جميع نسخ الأبستاق بعد غزو الاسكندر لفارس سنة ٣٣٠ قبل الميلاد وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التى كانت تشتمل على شىء من أجزائه . والراجح أن اليونانيين قد تعمدوا اعدامها لما عرف عنهم من الاعتزاز بحضارتهم وعدائهم لحضارة الفرس وثقافتهم ، ولما طبعوا عليه من ميل للانتقام من الايرانيين ،

---

(١٢) يرى صديقنا المرحوم الأستاذ العلامة حامد عبد القادر فى كتابه القيم « زرادشت الحكيم » أن رواية كتابته على جلود المعز هى أصح الروايات وأكثرها اتفاقا مع العبارة الفارسية (انظر « زرادشت الحكيم » ص ٦٦) .

(١٣) أمين عبد المجيد ، المرجع السابق ص ٣١ .

ومجازاتهم على ما فعلوا بالآثار اليونانية إبّان انتصارهم على اليونان قبل ظهور الاسكندر . ومن ثم يوصف الاسكندر فى الأساطير الزرادشتية بانه « الرومى الملعون الذى يستهويه الشيطان فيخرب البلاد ويسفك دماء الأبرياء ويحرق برسبوليس عاصمة فارس ويقضى على كتب الزرادشتية المقدسة المدونة على اثنى عشرة ألف قطعة من جلود المعز ؛ وأنه لذلك سيذهب الى الجحيم بعد أن يقضى على نفسه بنفسه »(١٤) .

وظلت بعد ذلك نصوص الأبستاق أو بعضها فى حوافظ الموابذة (كبار رجال الدين عند الفرس) والفقهاء يتناقلونها ويتناقلها الناس عنهم مشافهة . فلابد أن يكون قد دخلها من جراء ذلك كثير من التحريف والتغيير والزيادة ، وأن يكون حظ كبير منها قد عدت عليه عادية النسيان .

وفى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى (٥١ –٨٧) شرع ڤولوچيس الأول Vologese (بلاش الأول) ملك فارس من الأسرة البارثية فى تدوين ما بقى من حوافظ الناس من الأبستاق . وأكمل عمله هذا فى القرن الثالث الميلادى الملك أردشير مؤسس الدولة الساسانية . وبلغ ما تم تدوينة فى هذين العهدين واحدا وعشرين سفرا تشتمل على ٣٤٨ ثلثمائة وثمانية وأربعين فصلا من فصول الأبستاق التى كانت تبلغ ألف فصل كما قدمنا ، أى انه قد فقد منه نحو الثلثين ، هذا الى ما اعتور الفصول المدونة من نقص وزيادة وتحريف وتغيير عن أصولها نتيجة لتقادم العهد بها وتناقلها مدة طويلة عن طريق المشافهة كما سبقيت الاشارة الى ذلك .

وكما فقد الأبستاق القديم الأصلى ، فقد كذلك هذا الأبستاق الذى دون من حوافظ الناس فى عهد البارثيين والساسانيين . وجاء فى أثناء ذلك الاسلام واعتنقه معظم الايرانيين ، ولم يبق على الزرادشتية الا أقليات ضئيلة لا يؤبه لها . وكان من جراء ذلك أن نسى الايرانيون معظم ما يتصل بالأبستاق ، ولم يبق منه فى ذكرياتهم الا رواسب قليلة يتناقلها الخلف عن السلف . ومن هذه الرواسب دون المؤرخون فى

---

(١٤) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ص ٦٧ .

هذه العصور ، ومنهم القدامى من مؤرخى العرب ، جميع ما كتبوه عن الديانة الزرادشتية :

وفى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى عثر أحد علماء الآثار الفرنسيين وهو العلامة دوبرون Duperron ، فى أثناء بحثه فى مكتبه بودليان بمدينة أكسفورد Bodlienne [١٥] ، على قسم من الأبستاق الذى دون فى عهد البارثيين والساسانيين ، فقام بنشره وترجمته ؛ وترجم بعد ذلك الى كثير من اللغات الحية . وهذا القسم هوكل ما وصل الينا وما نعرفه عن الأبستاق . وهو يشتمل عن خمسة أسفار لا تكاد تتجاوز فى مجموع فصولها ربع الأبستاق الذى دون فى عهد البارثيين والساسانيين .

وهذه الأسفار هى :

١ – سفر اليسنا Yasan (ومعناها العبادة أو التسبيح) . ويشتمل على أدعية وصلوات كان يُتجه بها إلى الله والى الملائكة والكائنات المقدسة واشارات الى تاريخ الدعوة الزرادشتية فى مراحلها الأولى .

ومن بين فصول اليسنا سبعة عشر فصلا تعرف باسم « الحاتها »[١٦] وهى أقدم أجزاء الأبستاق وأكثرها قداسة . ويسوق الباحثون عدة أدلة على أنها أقدم ما ألف من فصول الأبستاق جميعا . ومن هذه الأدلة أنها هى وحدها التى كتبت فى الأصل باللهجة الميدية ، وهى لهجة المنطقة التى ولد فيها زرادشت ، فكانت اذن أول لغة استخدمها فى حديثه وتأليفه ، قبل أن يهاجر إلى بختر فى شرق إيران ويأخذ عن أهلها لغتهم ، وهى اللغة التى كتب بها فى الأصل ما عدا أحاتها من أسفار الأبستاق .

وفيما يلى بعض نصوص من اليسنا ترجمها بشىء من التصرف المرحوم الأستاذ حامد عبد القادر فى كتابه عن « زرادشت الحكيم » :

---

(١٥) هى مكتبة من أشهر مكتبات العالم ، تشمل على أكثر من نصف مليون مجلد وعلى ثلاثين ألف مخطوط ؛ وقد أنشاها توماس بودلى Thomas Bodley من رجال السياسة الانجليز فنسبت إليه .

(١٦) « ها » علامة الجمع ، فهى جمع « حات » ، وهى القطعة التى تتخلل النصوص المنثورة .

« النجدة لهذا الإنسان ، النجدة له مهما يكن أمره . ليتفضل عليّ الخالق الأكبر ، والحاكم الأعظم ، الرب الحى . . . .

إنى أتوسل إليك يا أهورا أن تحمى حمى الهداية ، وعسى أن تتفضل عليّ بها . أنت يا من يبعث فى النفوس التقوى التى لها من العظمة ما لها . فهى النعمة المقدسة ، وهى حياة العقول الطيبة الصالحة . انى أتصورك أيها المعطى الأكبر فردا جميلا حينما أشاهد أنك القوة العليا (ذات الأثر الفعال) فى تطور الحياة وحينما أرى أنك تكافئ الناس على الأعمال والأقوال . لقد كتبت الشر عقابا على الشر ، وجعلت السعادة جزاء وفاقا لمن يفعل الخير ، وذلك بفضلك العظيم الذى يظهر أثره حينما تتبدل الخليقة التبدل النهائى » .

ويتحدث زرادشت فى هذا السفر عن تاريخ الدعوة الزردشتية فى مراحلها الأولى فيقول :

« مزدا أهورا انى أتوسل الى بركاتك وكرمك وعدلك أن تكافئ من كانوا السابقين الأولين المسارعين الى الدخول فى دين أهورا . . . وأن تجزيهم الجزاء الذى وعد به زرادشت من يدخل فى دينه ويحفظ عهده . ان الملك كشتاسب قد قبل العقيدة التى أوجدها مزدا أهورا . انه قبل العهد (الكتاب المقدس) وأقر بحجته ، كما تقبل الدعوة إلى طريق الكرم والاحسان ، فليتم هذا وفق مشيئتك . . . لقد وعدنى فراشا أوسترا أن يهب لى أخته الجميلة المحببة إلى (هى أخت فراشا أوسترا وزير الملك كشتاسب التى تزوجها زرادشت كما تقدمت الاشارة إلى ذلك) . فتفضل أيها الملك العظيم أن تهديها الصراط المستقيم ، حتى تدرك تمام الإدراك معنى السلوك القويم فتصلح به نفسها . وقد تقبل جامسب (الوزير الأول للملك كشتاسب وقد تزوج بروجست أخت زرادشت كما تقدم) فى تقوى وطهارة هذه العقيدة الكريمة العنصر . وكل من اشترك فى اسداء الاحسان والاتصاف بالكرم فهو مخلص لهذه العقيدة خاضع لسلطانها ، فتفضل بالانعام عليهم حتى يجدوا فيك حصنا منيعا يحميهم . وهذا الرجل متيوماه (هو ابن عم زرادشت الذى كان أسبق الناس إلى اعتناق الزرادشية والذى شد الله به أزر زرادشت كما سبقت الإشارة إلى ذلك) قد

وضع هذه الطريقة الدينية نصب عينيه بعد أن أدركت روحه أسرارها . وكل من يدرك حقيقة الحياة وتتجلى له أسرار هذه الطريقة فسوف يوهب له العلم بمشيئة مزدا التي ترشد المؤمن إلى (اصلاح) شئون حياته . - تفضل بالوفاء بما وعدت ، فانشر لواء بركاتك على كل من يقرون بأن الاستقامة فى السلوك واسداء المعروف ومزدا شئ واحد . وكذلك كل من يعبدك أنت يا أهورا ويسبحك ويوقرك »(١٧) .

٢ - سفر « الوسبرد » أو « القسبرد » Visperd . ويشتمل على أدعية وصلوات مكملة لما فى اليسنا وترتل فى مناسبات خاصة . ويبلغ عدد فصوله ثلاثة وعشرين أو سبعة وعشرين فصلا .

٣ - اليشتات أى الترنيمات أو المزامير Yashts وهى احدى وعشرون ترنيمة تتلى فى مدح الملائكة المشرفين على أيام الشهر . فقد كان يعتقد أن لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين حاميا وحارسا من الملائكة . وكان يسمى اليوم باسم حاميه وحارسه . وكان لكل ملك ترنيمة دينية خاصة تتلى باسمه . فلابد أن يكون عدد هذه اليشتات فى الأصل ثلاثين وأن يكون قد فقد منها تسع يشتات .

ويذكر البيرونى فى كتابه « الجماهر فى معرفة الجواهر » فى صدد هذه اليشتات أنه كان للملوك الساسانيين سبحة من الدر الثمين عدد حباتها واحد وعشرون بعدد اليشتات ، وكانوا يسمونها « نسك شمارة » أى عدد الأسفار ، لأنها بعدد كتبهم المعروفة بالأبستاق (١٨) . - فبحسب هذه الرواية يكون عدد اليشتات فى الأصل واحدا وعشرين فقط ، وتكون الحكمة فى الوقوف عند هذا العدد هو مطابقته لعدد أسفار الأبستاق .

وقد كانت اليشتات نظما ، ثم شرحت نثرا ، وتداخلت شروحها فى المتن الأصلى ، فاختلط نظمها بالنثر ، فاضطربت أوزانها .

---

(١٧) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٣ .

(١٨) يتكلم البيرونى فى هذا الكتاب على المعادن الثمينة والأحجار الكريمة . وقد عرض لليشتات بمناسبة الكلام على هذه السبحة المؤلفة من حبات من الدر الثمين . انظر أمين عبد المجيد المرجع السابق ص ٣٥ والتعليق الأول .

٤ – الخوردة أفستا أى الأبستاق الصغير. وهو سفر جامع لأدعية وصلوات خاصة بكل وقت من اليوم وبالأيام المباركة من الشهر والأعياد الدينية فى العام وأوقات الصحة والمرض التى تعرض فى الحياة . ويشتمل كذلك على بعض أحكام العبادات والزواج والزفاف .

٥ – الوانديداد أو الفانديدا Vendidad أى القانون المضاد للشياطين . ويتألف من اثنين وعشرين فصلا يعرض أولها للأمور نفسها التى تعرض لها الاصحاحات الأولى من سفر التكوين ، وهى خلق العالم والسماوات والأرض ، فيتحدث عما خلقه الله من الأراضى الطيبة المباركة واحدة بعد أخرى ، وعما أوجدته قوى الشر (أنكره مينو) من الأرواح الخبيثة . وتعرض بقية فصوله للنظم التى يخضع لها رجال الكهنوت من الزاردشتيين (وهو فى هذه الفصول يشبه سفر اللاويين فى العهد القديم) ولبيان العقائد والشرائع الزرادشتية المتعلقة بالموت والزواج وما اليه من نظم الأسرة ومشكلات الحياة الاجتماعية والنجاسة والغسل والطهارة وغسل الموتى وتطهير الملابس والبدن والصحة والمرض ، والقسم وحفظ العهود ونقضها . . .وما إلى ذلك . ومن ثم يعد أهم مرجع للوقوف على محتويات الديانة الزرادشتية وتفاصيل شرائعها .

– ٤ –
شروح الأبستاق

ترجع شروح الأبستاق وشروح شروحه إلى ثلاث مجموعات يطلق عليها اسم « الزند » Zend و« البازند » Pa-Zend و « الايباردة » .– وقد فقد معظم الشروح ولم يصل إلينا منها إلا القليل :

١ – أما « الزند » فهو الشرح المباشر للابستاق ، وقد دون باللغة الفهلوية ، وهى اللغة الفارسية فى مراحلها الوسطى (وتختلف عن اللغة التى دون بها الأبستاق ، وهى الفارسية فى مراحلها القديمة) . وهذا دليل على أنه قد ألف فى عصر متأخر بأمد طويل عن العصر الذى ألف فيه الأبستاق لأول مرة . والراجح أنه بدئ فى تدوينه فى

عصر فلوجيسس الأول (بلاش الأول ٥١ — ٨٧ م) حينما بدئ فى جمع الأبستاق وتدوينه للمرة الثانية[١٩] ، والراجح كذلك أنه لم يتم تدوينه الا فى أواخر عهد بنى ساسان ، أى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى .

هذا ، وكان كثير من قدامى الزرادشتيين يعتقدون أن الأبستاق والزند كليهما نزل من السماء ، بل لقد كان بعضهم يخلط بين الكتابين فيزعم أن الزند هو الكتاب الأصلى لزرادشت ، ومن هؤلاء صاحب كتاب « برهان قاطع » اذ يقول : « الزند كتاب كان ابراهيم زرادشت يدعى أنه نزل عليه من السماء ، ويقول بعضهم انه صحف ابراهيم » ، ومنهم كذلك الأسدى فى كتابه « لغت فرس » اذ يقول : « الأبستاق تفسير الزندوكان الزند صحف ابراهيم »[٢٠] . وكان كثير ممن يعرفون حقيقة الزند ، وهو أنه شرح للأبستاق ، يذهبون إلى أنه من عمل زرادشت نفسه . وقد جارى المسعودى أصحاب هذا الرأى اذ يقول « ... ثم عمل زرادشت للأبستاق تفسيرا عند عجزهم عن فهمه وسموا التفسير زندا » .

وبعض المتزمتين من الزرادشتيين كانوا يتمسكون بالأيستاق وحده ولا يعترفون بالزند ويعتبرون من يعول على هذا الشرح خارجا على أصول الشريعة ويسمونه « زنديا » . ولعل كلمة زنديق المستعملة فى لغتنا العربية معربة عن هذا الأصل الفارسى . وإلى هذا الرأى ذهب المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » اذ يقول : « وذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بن سبتمان بكتابهم المعروف بالنستا (الأفستا) باللغة الأولى (القديمة) من الفارسية ، وعمل له التفسير وهو الزند ... وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل ، وكان من أورد فى شريعتهم شيئا غير المنزل الذى هو النستا (الأفستا) وعدل إلى التأويل الذى هو الزند قالوا هذا زندى ، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف

---

(١٩) انظر صفحة ١٥٧ .

(٢٠) آمين عبد المجيد ، المرجع السابق ص ٣٦ — ٧٢ .

التنزيل . فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا زنديق وعربوه »[21] .

٢ - وأما « البازند » فهو تفسير للزند ، أى شرح لشرح الأبستاق . وقد كتب باللغة الفهلوية فى مراحلها التالية للفتح العربى حوالى القرنين الثانى والثالث الهجريين أى حوالى السابع والثامن الميلاديين على الأرجح .

وكان بعض الزرادشتيين يعتقد أن البازند من عمل زرادشت نفسه . وقد جارى المسعودى أصحاب هذا الرأى اذ يقول : « ... ثم عمل زرادشت للتفسير تفسيرا وسماه بازند » .

٣ - وأما الاياردة بكسر الهمزة وفتح الراء وكسرها وفتح الدال فهو شرح للبازند ، أى شرح لشرح الشرح أو تفسير لتفسير التفسير . وإلى هذا يشير المسعودى اذ يقول : « ... ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرًا لتفسير التفسير وشرحا لسائر ما ذكرناه وسموا هذا التفسير ياردة » .

— ٥ —

العقيدة فى أسفار الزرادشتيين

كانت الديانة الزرادشتية فى أصلها ديانة توحيد تدعو إلى عبادة الآه واحد هو « أهورا مزدا » وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة ، وكانت جميع أدعيتها وصلواتها وآياتها فى أسفارها تتجه إلى هذا الالاه وحده ، كما يظهر ذلك من التأمل فى النصوص التى نقلناها عن سفر « اليسنا »[22] والتى تصفه بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والمخالفة للحوادث ، وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، ويعلم حقيقة ما فى السماوات والأرض ولا يصل أحد إلى معرفة حقيقته . فأهورا مزدا يطلق فى الأبستاق على الذات المتصفة بهذه الصفات . بل إن

---

(٢١) مروج الذهب على هامش نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٨٧ وما بعدها . نقلا عن حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢٢) انظر صفحات ١٥٨ — ١٦٠ .

اسم « أهورا مزدا » نفسه يدل معناه فى الفارسية على ذلك . « فهو مركب من ثلاث كلمات وهى (أهو) و(را) و (مزدا) ومعناها على الترتيب : أنا – الوجود – خالق ، أى أنا وحدى خالق الوجود أو الكون »[٢٣] .

وفى هذا يقول العلامة ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواءوالنحل» (جزء أول ص ٩٢) : « وقد نقلت كواف (جمع كافة) المجوس الآيات المعجزات عن زرادشت كالصُّفر (النحاس) الذى أفرغ وهو مذاب على صدره فلم يضره ، وقوائم الفرس التى غاصت فى بطنه فأخرجها وغير ذلك . وممن قال إن المجوس أهل كتاب على بن أبى طالب وحذيفة وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أهل الظاهر . ويكفى من ذلك صحة أخذ الرسول الجزية منهم ، وقد حرم الله فى نص القرآن فى سورة براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابى » .

غير أنه يظهر أنه قد دخل الديانة الزرادشيتة فيما بعد كثير من التحريف والتبديل ، فانتهى بها الأمر فى عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مثنوية أو ثنوية أى تعتقد بوجود الاهين : أحدهما « أهورا مزدا » وتجعله الاها للخير ، والآخر « أهريمان » وتجعله الاها للشر ، وتعتقد أن بينهما صراعا دائما لأن كليهما يرمى إلى السيطرة على العالم ، مع أن « أهريمان » هذا – وهو فى الأصل « أنكره مينو » ومعناه الخبث أو الشر – لا يذكر فى الأسفار المقدسة للزرادشتين فى مقابل « أهورا مزدا » على أنه شريك له ، ولكنه يذكر فى مقابل « سبنتامينو » ومعناه القدسية أو الخيرية . فلم يكن فى أصل العقيدة الزرادشتية الاهان ، وإنما كان فيها قوتان متضادتان أو مجموعتان من القوى المتضادة : أحداهما مجموعة قوى الخير والنور والحياة والحق ، ويرمز اليها جميعا « سبنتامينو » ويعمل على تحقيق أغراضها سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والاخلاص والأمانة والكرم،والأخرى قوى الشر والظلام والموت والخداع ، ويرمز اليها جميعا « أنكره مينو » ، الذى تحول اسمه إلى أهريمان ؛ ويقوم على تحقيق مقاصدها الآثمة

---

(٢٣) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ٨٠ ، ٨١ .

سبعة شياطين خبيثة تمثل الرذائل الانسانية الرئيسية وهى النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم وازهاق الأرواح [٢٤] .

وكلتا المجموعتين من القوى أو الدوافع مع توابعها وملحقاتها كانت خاضعة للالاه الواحد المسيطر على كل شئ فى الوجود وهو « أهورا مزدا » . وقد يكون العلامة الشهرستانى فى مقدمة المدركين لحقيقة الديانة الزرادشية فى نشأتها الأولى وأنها كانت ديانة توحيد ، وذلك اذ يقول فى كتابه الملل والنحل : « وكان دين زرادشت عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث » ، واذ يقول فى موضع آخر : « وقال زرادشت أن البارئ تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند »[٢٥] .

ولما كانت ذات « أهورا مزدا » روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة لا تدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول ، ولما كان كثير من الناس لا يستطيعون الإيمان بذات هذا شأنها إلا اذا رمز إليها برموز مادية يستطيعون تصورها ، فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلى الذات العلية برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير على ادراكهما ، ويشتمل كلاهما على بعض مظاهر من صفات الخالق ، فيستطيع الناس بالتأمل فى صفاتهما تصور شئ من صفات أهورا مزدا على وجه التقريب والتمثيل ، وهذان الرمزان أحدهما سماوى وهو الشمس والآخر أرضى وهو النار . فكلاهما عنصر متلألئ مضيء طاهر مطهر لا يتطرق اليه الخبث ولا الفساد ، وتتوقف عليه الكائنات . وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات الخالق نفسه وترمز اليها .

ومن ثم حرصت الديانة الزرادشتية على أن يوقد فى كل هيكل من هياكلها شعلة من النار ، وأن تظل هذه الشعلة متوهجة مضيئة ، يتعهدها الموابذة (كبار رجال الدين) والهرابذة[٢٦] (صغار رجال الدين) ورجال الكهنوت ، فيقدمون لها

---

(٢٤) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢٥) الملل والنحل للشهرستانى ، الجزء الأول ، ٢٣٧ طبعة مصطفى الحلبى .

(٢٦) الهرابذه بالراء جمع هربذ (بكسر الهاء والباء) وهو خادم النار .

خمس مرات فى اليوم وقودا من خشب الصندل وما اليه من الاعشاب والمواد العطرية فيمتلئ الهيكل بعرفها الطيب وريحها الزكى ، وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات . وكان من عادة الزرادشتيين اذا أقاموا هيكلا جديدا للنار أن يحملوا اليه من كافة النواحى شعلات موقدة ، وأن يبالغوا فى تطهير هذه الشعلات ، فيقتبسوا من الشعلة الأولى شعلة ثانية ومن الثانية ثالثة وهكذا حتى يصلوا إلى التاسعة فيعتقدوا أنها قد وصلت إلى أرقى درجات الطهارة ، فيوقدوا بها نار الهيكل الجديد[٢٧] .

وقد بالغ الزرادشتيون فى تقديس نار الهيكل فأوجبوا على رجل الدين أن يتلثم عند اقترابه من النار خشية أن يصل زفيره إليها فيلوثها . وكان عليه أن يتذكر حينما يدنو من هذه القوة الأرضية أن هذا النور الفياض إنما يرمز إلى أهورا مزدا[٢٨] .

غير أنه يظهر أنه قد دخل الديانة الزرادشتية فيما بعد التحريف والتبديل فيما يتعلق بتقديس النار ، فانتهى بها الأمر فى عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مجوسية يعبد أهلها النار لذاتها ، بعد أن كانت مجرد رمز للالاه ، تشتمل على شئ من صفاته ، وتقرب تصوره للأذهان .

وكان يشارك النار فى صفة التقديس ثلاثة عناصر أخرى من العناصر الأرضية وهى التراب والهواء والماء ، وإن كانت فى مستوى أقل من مستوى النار .

وأما الكائنات الأخرى فقد كان من بينها فى العقيدة الزرادشتية الطيب والخبيث . ويعرف كل نوع بعمله وآثاره . فالطيب ما حسنت أعماله والخبيث ما كان مصدر شر وضرر كالثعابين والعقارب وكل ضار من الحيوانات . والعناصر الخبيثة تظل خبيثة ما دامت على قيد الحياة ، فاذا ماتت طهرت وجاز اتصالها بالعناصر المقدسة ، فيجوز دفنها فى التراب والقاؤها فى الماء . والعناصر الطيبة تظل طيبة ما دامت على قيد الحياة ، فإذا فارقتها الحياة استحالت أجسامها إلى رجس ونجس فلا يجوز لمسها إلا بطقوس خاصة ولا يجوز اتصالها بالعناصر المقدسة . ومن ثم كانت جثة

---

(٢٧) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٢٨) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ٨٧ .

الميت من الأناسي منجسة لكل من يقربها ولكل طريق تمر به ، ولا يجوز أن تدفن في باطن الأرض ولا تحرق بالنار ولا تلقى بالأنهار ، لأن التراب والنار والماء عناصر مقدسة لا يصح القاء نجس فيها . ولذلك أقيم لجثث الموتى فوق قمم الجبال أبراج منعزلة عالية الجدران لا سقف لها يسمى كل برج منها « دخما »[٢٩] Dekhuma أو برج الصمت ، وتحمل إليها جثث الموتى نهارا على نعوش من حديد ثم تلقى فيها طعاما لجوارح الطيور . وكان كل من يلمس جثة ميت أو تلمسه جثة ميت يعد ملوثا ولا يطهر إلا بعد طقوس دينية معقدة كل التعقيد . بل ان نجاسته هذه كانت تنتقل إلى كثيرين من المجاورين له وإلى غيرهم . فقد ورد فى أسفار الأبستاق أنه اذا مات شخص وكان جالسا بجواره وقت موته شخص آخر ، فإن هذا الشخص الآخر يصبح متلبسا بجريمة ملامسة الميت (على الرغم من أنه لم يقصد هذا اللمس ولا أحدثه) ، ويجب عليه أن يولى مسرعا حتى يصادف فى طريقه أول رجل حى فيقف على بعد منه ويطلب إليه بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بعد أن يظهره على مجمل ما حدث له ، فيخاطبه قائلا : « انني قد لمست ميتا لا حراك به ولا قدرة له على التفكير ولا على النطق وألتمس منك أن تطهرنى »[٣٠] . وورد فى الأبستاق كذلك أنه إذا مات شخص بين جماعة متلاصقين فإن إثم الملامسة لجثة الميت لا يقتصر على المجاور له فحسب ، وإنما ينتقل إلى عدة أفراد من المجتمعين . فإن كان الميت من رجال الدين انتقل اثم الملامسة من المجاور له مباشرة إلى تسعه الأشخاص الذين يلونه ، وان كان من رجال الحرب انتقل من المجاور له إلى ثمانية الأشخاص الذين يلونه ، وان كان مزارعا انتقل من المجاور له إلى سبعة الأشخاص الذين يلونه . وورد فيها كذلك أن المتلبس بهذا الإثم عن طريق الملامسة المباشرة أو عن طريق الانتقال يجب عليه أن يولى مسرعا حتى يصادف فى طريقه أول رجل حى ، فيقف على بعد منه ويطلب اليه بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بالصيغة التى سبق نصها ، فإن قام باجراءات التطهير المعهودة طهر الملامس وأثيب المطهر على ما فعل .

---

(٢٩) ينطق بها فى الفارسية بكسر الدال وسكون الخاء وامالة الميم نحو الكسر.

(٣٠) انظر كتابنا فى « المسئولية والجزاء » الطبعة الثالثة ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

وان رفض تطهيره انتقل إليه ثلث الجرم . وفى هذه الحالة يجب على الملامس أن يولى سعيه حتى يصادف رجلا آخر فيطلب إليه ما طلبه إلى الأول ، فاذا رفض تطهيره انتقل إليه نصف الباقى من الاثم (ثلث مجموع الاثم) ، ثم يغادره إلى ثالث فإن رفض الثالث تطهيره انتقل إليه جميع ما بقى من الاثم (الثلث الباقى)[٣١] .

وقد خصصت الزرادشتية طائفة معينة من الناس لاعداد جثث الموتى وحملها إلى برج الصمت كما كانوا يسمونه ، وقررت أنه « لا يجوز أن يستقل شخص واحد من هذه الطائفة بهذا العمل ، بل يجب أن يشاركه اثنان آخران يشهدان عليه. وعلى الثلاثة أن يتطهروا بعد الانتهاء من عملهم . ولا يجوز لهم مع ذلك أن يختلطوا بالناس . ومن التقاليد الزرادشتية المترتبة على الاعتقاد بأن جثة الميت نجسة أنه اذا مرت جثة ميت بأحد الطرق العامة فإنه لا يجوز لأحد أن يسير فيه الا بعد تطهيره . ومن وسائل تطهيره تلاوة دعاء آهونا أو دعاء كمتا مزدا Kemta mazda الذى يعد أشد الأدعية قداسة ، وترجمته :

« مزدا من يستطيع أن يحمى شخصا ضعيفا فانيا مثلى حينما يستعد الكافرون للاعتداء علىّ ؟ ! أى كائن آخر غيرك — بما لك من عقل وقوة نارية — يقوى نشاطه على تنفيذ مبدأ التقوى والاستقامة ؟ ! مزدا ! اكشف لى عن أسرار هذه المعرفة كى تساعدنى على نشر دينك . من غيرك يقدر على لطم الأعداء ، ويمدنى بكلماتك الصادقة التى هى درعى والمجن الذى يحمينى ؟ دلنى — مزدا — على قائد مخلص حكيم متلطف يقودنى إليك ، ثم اجعل زعيم ملائكتك المزود بالعقل الخير المستنير يدنو ممن تحب كائنا من كان . تفضل فاحمنا جميعا من أعدائنا أيها المقدس مزدا . وهلاكا لأدرج (أدرج أو دروج Druj هو رمز لقوى الشر مجتمعة أو لإبليس) الشيطانى ، وهلاكا لجميع الشياطين ، وهلاكا لجميع أشياع الشياطين ، الهلاك التام لك يا أدرج ! اخسأ واذهب بعيدا عنا إلى الشمال حتى لا تعبث بخلق مزدا ، المبدأ المقدس »[٣٢] .

---

(٣١) انظر كتابنا فى « المسئولية والجزاء » ص ١١٢ .

(٣٢) حامد عبد القادر المرجع السابق ، صفحتى ٧٧ ، ٧٨ .

وتوجب الديانة الزرادشتية الايمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار على وجه لا يختلف كثيرا فى جملته بل لا يختلف كثيرا فى تفاصيله نفسها عما يقرره الاسلام . فتقرر عقائدهم أن الساعة ستقوم على أثر حادث فلكى . وذلك أن كوكبا يصطدم مع الأرض ، فتميد بالناس ، وتخر الجبال هدّا ، وتذوب العناصر ، ويصهر النحاس ، ويسيل إلى جهنم ، ويفنى أهريمان وأنصاره من الشياطين ، ويغسل الناس فى منصهر النحاس ، ويجده الصالحون بردا وسلاما . ثم بعد ذلك يجمع هرمز (أهورا مزدا) الخلائق ،ويمدهم بحياة جديدة ويجازيهم بأعمالهم . وهذا فيما يتعلق بمن يكونون على قيد الحياة وقت قيام الساعة . أما الذين ماتوا قبل ذلك فتحاسب أرواحهم عقب موتهم مباشرة . وذلك أن الروح تحوم عقب الوفاة فوق الجسد ثلاثة أيام تشقى فيها أو تنعم وفقا لسيرة صاحبها فى الحياة : أن خيرا فخير ؛ وإن شرا فشر . وفى اليوم الرابع تهب من الجنوب على الروح الصالحة ريح طيبة تتضوع بالمسك وتلتقى روح الميت عند أول الصراط (بل جنوات)،أى جسر المفارقة المضروب فوق جهنم ، بفتاة بيضاء الذراعين منقطعة النظير فى جمالها ، فتسألها من أنت فتقول : أيها الشاب الطيب السريرة الطيب القول الطيب العمل (يلاحظ أن قوام الأخلاق عند زرادشت كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ثلاثة أمور . الفكر الطيب ، والكلم الطيب ، والعمل الطيب) أنا وجدانك وضميرك ، كنت محبوبة فزدت الناس محبة فى ، وكنت جميلة فزدتنى جمالا ، ورفعت من شأنى بفكرك الصالح وقولك الطيب وعملك المبرور . ثم تمضى الروح بارشاد هذه الفتاة وهدايتها إلى حضرة أهورا مزدا ، فتعبر الصراط إلى الجنة حيث يستقبلها ملك جالس على كرسى من ذهب عند باب الجنة فيفتح بابها ويقول لصاحبها ادخل سالما آمنا وتمتع بحياة هنيئة . أما روح الشقى فتلتقى بمخلوق بشع المنظر نتن الرائحة ، ولا تستطيع العبور على الصراط فتهوى فى دركات النيران . وجنة زرادشت تقع أقصى شرق جبال البرز (هرابيرازيتى Haraberasiti) ويرتفع الجبل متجاوزا النجوم إلى عالم النور اللانهائى ويصل إلى جنة أهورا مزدا فى منزل النغم وهو أم الجبال،وقمته سابحة فى العزة الأبدية حيث لا ليل ولا برد ولا

مرض [٣٣] . وتذكر بعض الأسفار المقدسة لدى المتأخرين من الزرادشتيين أن الروح بعد أن تعبر صراط الحساب « تحتل احدى منازل ثلاث : منزلة الأشقياء فى جهنم دار الجحيم ؛ ومنزلة السعداء فى الجنة فردوس النعيم ؛ ومنزلة وسطى بين هؤلاء وهؤلاء . فمن ثقلت موازينه ورجحت حسناته سيئاته احتلت روحه المنزلة الثانية ؛ ومن خفت موازينه ورجحت سيئاته حسناته ذهبت روحه الى المنزلة الأولى ؛ ومن تساوت حسناته وسيئاته احتلت روحه المنزلة الثالثة » [٣٤] .

— ٦ —

العبادات والشرائع والأخلاق
فى أسفار الزرادشتيين

١ — العبادات : من أهم العبادات فى الديانة الزرادشتية تقديس النار على النحو الذى سبق شرحه ، والأدعية التى يتجه بها إلى الالاه والملائكة والأرواح المقدسة ، وتختم كل صلاة منها بعظات يلقيها رجال الدين على المصلين ليبينوا لهم معالم دينهم ويرشدوهم إلى طرق الخير والفضيلة ويحذروهم من المعاصى وتعدى حدود الله . وتقام واحدة من هذه الصلوات عند بزوغ الشمس ، وواحدة عند الزوال ، وواحدة عند الغروب ، وتقام الصلاتان المكملتان للخمس بين هذه الصلوات الثلاث . والصلاة فى الزرادشتية دعاء يوجه إلى أهورا مزدا ، وترجمته ما يلى : « أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق القدير أن تغفر لى ما ارتكبت من سيئات وما دار بخلدى من تفكير سيئ وما صدر عنى من قول أو عمل غير صالح . الاهى أرجو منك أن تباعد بينى وبين الخطايا حتى أحشر يوم الدين مع الأطهار الأخيار » [٣٥] .

« وكان الزرادشتى مقيدًا بعدة طقوس وعادات فى كثير من شئون حياته الخاصة

---

(٣٣) أمين عبد المجيد ، المرجع السابق ص ٢٢ نقلا عن دكتور محمد معين : « مزديسنا وتأثيرآن در أدبيات فارسى » ص ٢٤ وما بعدها .

(٣٤) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ص ٩٢ .

(٣٥) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ص ٩١ ، ٩٢ .

كالأكل والنوم والاستيقاظ منه واضاءة المصابيح . وكان عليه أن يبقى نار الموقد في داره مشتعلة لا تخبو ، وألا يسمح لضوء الشمس أن يقع على النار ، ولا للماء أن يلقى على النار ، ولا ليده أن تمس جثة ميت ، أو جسد امرأة حائض ، وألا يلوث الماء ، وألا يتكلم ولا يبكى فى أثناء الطعام . وكان عليه اذا أشكل عليه أمر من أمور الدين أن يرجع إلى رجال الدين . وكان الزرادشتيون يذهبون الى هياكل النار فى أيام أعيادهم الرئيسية ليقيموا الصلوات ويبتهلواإلى أهورا مزدا بالدعوات ، وبخاصة يوم التوبة ، وهو عيد النيروز . فى هذا اليوم يفعل الزرادشتيون مثل ما يفعل المسلمون يوم عيد الفطر مثلا ، فيتزاورون للتهنئة بالعيد الجديد ، ويستيقظ الواحد منهم من نومه مبكرا فيستحم ويلبس ملابسه الجديدة ، ويبتهل إلى الالاه بالدعاء أن يغفر له ولأهله سيئاتهم التى اقترفوها فى العام المنصرم . ثم يذهب إلى هيكل النار فيجتمع هو واخوانه هناك ، ويستأنف معهم الدعاء ، ويطلب من الالاه الرحمة والرضوان ، ثم يتصدق على الفقراء والمساكين . هذا فى الاعياد . وأما فى المآتم فكان من عاداتهم بعد القاء جثة الميت فى برج الصمت أن يعزى أهله ثلاثة أيام ، وأن يقام فى المساء السابق لليوم الرابع حفل دينى يحضره أهل الميت وأصدقاؤه ، وأن توزع الصدقات رجاء أن يغفر الله له ، وأن تجلس قريباته على مقربة من المكان الذى مات فيه على بساط يفرش على الأرض لتقبل العزاء من صديقاتهن ، من ثلاثة أيام إلى عشرة بعد الوفاة »[٣٦] .

وليس فى الديانة الزرادشتية رهبانية ، بل انها لتكره كل ما يؤدى إلى الخمول واضعاف الجسم ، ولذلك تنهى عن الصوم إلا فى ظروف خاصة نادرة .

وكان يشرف على شئون العبادات وما اليها من الشئون الدينية طبقتان من رجال الدين . احداهما طبقة الموابذة ، ويسمى كل واحد منهم موبذان . وكانوا يتولون الوظائف الدينية العليا ويرأسهم الموبذان أى رئيس الموابذة ، وكانت وظيفته تعد أرقى الوظائف الدينية جميعا ، وهو الذى يوجه رجال الدين على اختلاف درجاتهم ويوليهم ويعزلهم . ولم يكن نشاط الموابذة مقصورا على الشئون الدينية بل انهم كانوا

---

(٣٦) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ٩٧ ، ٩٨ .

يمارسون كذلك شئون الطب والقضاء والتعليم ويشتركون فى ادارة الشئون السياسية للدولة وفى شئون التشريع والتنفيذ . ومن ثم كان لهم سلطان كبير حتى على الملوك أنفسهم . فقد كان زرادشت نفسه موجها سياسيا للملك كشتاسب ، يرجع إليه فى شئون السياسة ويستمع إلى نصائحه . والطائفة الأخرى طائفة الهرابذة ، وكانت منزلتهم دون منزلة الموابذة وكانوا يتولون اقامة الشعائر الدينية فى هياكل النار(٣٧) .

٢ – الشرائع : تحث الشريعة الزرادشتية على العمل والسعى فى مناكب الأرض لكسب الرزق وانتاج الثروة ، وخاصة الانتاج الزراعى وتربية الماشية . فمن نصوصها المقدسة أن من يشق الأرض بمحراثة خير ممن يقدم ألفا من القرابين وممن يقدم عشرة آلاف من الأدعية والصلوات . وتحث على النظافة والقضاء على الحيوانات الموذية والهوام ، وتضع على كاهل الفرد واجبات نحو نفسه وجسمه وأفراد أسرته وأفراد مجتمعه والانسانية جمعاء ، وتوجب صيانة النفس والمحافظة على الصحة ، وتحرم الانتحار تحريما باتا ، لأنه جناية على النفس والوطن ، وتجعل الزواج واجبا على كل قادر عليه ، وتحث على تعدد الزوجات ليكثر النسل ويزداد عدد الجنود المحاربين فى سبيل النور .

وقد ورد فى الأبستاق أن أهورا مزدا قد أوحى إلى زرادشت أن « المتزوج أعلى منزلة من الأعزب ولو كان تقيا عفيفا ، وأن من له بيت (أسرة وزوجة) أعلى منزلة عند الله ممن ليس له بيت ، وأن من له خلف أعلى منزلة ممن ليس له خلف »(٣٨) . وكانت أكبر كارثة تحل بالرجل عند الزرادشتيين ألا تكون له ذرية . وكانوا يعتقدون أن من يدركه الموت من قبل أن ينجب أولادا لا يلج باب الجنة ، وأن أول سؤال يلقيه خزنة الجنة على من يقف ببابها هو سؤاله عما اذا كان قد ترك فى الدنيا من يخلفه ، فان أجاب بالنفى حيل بينه وبين دخولها ، اذ لا يدخلها إلا من ترك من بعده خلفا يخلد اسمه ويقدم لروحه ما تقرر الشريعة تقديمه من صلوات وقرابين ، وأن اشهى فانجوهى Ashi Vanguhi (وهى لديهم رمز العفة ومصدر الخير والبركة

---

(٣٧) المرجع السابق ٩٨ .

(٣٨) V. Westermarek: Idées Morales (trad. fr.) T. II. 386

والنماء) لا تقبل قربانا يقدمه إليها العقيم من الناس ، وأن أكبر جرم يرتكبه الأفراد والرؤساء هو أن يعضلوا الفتيات عن الزواج ، ويحولوا بذلك بينهن وبين انجاب الأولاد[٣٩] .

وتشبه أسفار الأبستاق وشروحها أسفار اليهود فى استيعابها لجميع فروع الشريعة ؛ فهى لا تغادر أى فرع من فروع الحياة الفردية والاجتماعية الا وضعت له قواعد يسير عليها حتى شئون الأكل والشرب وحلق الشعر وتقليم الأظافر. ومن الغريب أن سفر « الونديداد »[٤٠] يضع فى صدد قلامات الأظافر والشعور تعاليم واحتياطيات تشبه ما يعتقده الآن كثير من العامة فى مصر وغيرها ، فيذكر أنه من الواجب على الانسان أن يضع قلامات أظافره وقصاصات شعره على منضدة أمامه ، ويحرص عليها كل الحرص حتى لا يضيع منها شىء ، ثم يحملها بعناية ويخفيها فى حفرة عميقة ، وإلا كانت عرضة لأن تمتد إليها أيدى السحرة والمشعوذين فيستخدموها فى سحر صاحبها .

وتدل هذه التعاليم على تأثر الزاردشتية بعقيدة قديمة مؤداها أن شعر الشخص وأظفاره تتجمع فيها جميع صفاته الشخصية. ولذلك كان التأثير فيها بخير أو شر وسيلة للتأثير فى الشخص نفسه[٤١] .

هذا ، وفى كثير من الأمور السابق ذكرها وما اليها يختلط التشريع فى شئون الحياة الدنيا بالعبادة التى يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، فيكون الشئ الواحد شريعة وعبادة فى آن واحد .

٣ – الأخلاق : تدعو الديانة الزرادشتية إلى الفضائل نفسها التى يدعو اليها الاسلام وتنهى عما ينهى عنه من مظاهر الرذائل والفحشاء والمنكر والبغى .

وقوام الأخلاق عند زرادشت ثلاثة أمور : الفكر الطيب ؛ والكلم الطيب ؛

---

(٣٩) انظر كتابنا « قصة الزواج والعزوبة فى العالم » ص ١٠ .

(٤٠) انظر الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

(٤١) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ٧٣ ، ٧٤ .

والعمل الطيب . وكان لا يقبل دخول أحد فى الدين الزرادشتى إلا بعد أن يؤخذ عليه بهذه الأمور ميثاق مدونة صيغته فى الأبستاق وينتهى بالعبارة الآتية :

« لن أقدم على سلب أو نهب أو تدمير أو تخريب . أقر أنى أعبد أهورا مزدا ، وأعتنق دين زرادشت ، والتزم التفكير فى الخير والكلم الطيب والعمل الصالح »[٤٢] .

---

(٤٢) حامد عبد القادر ، المرجع السابق .

الفصل الرابع

أسفار الديانة البرهمية [1]

تعد الديانة البرهمية من أقدم الديانات فى الأمم الآرية ؛ فإن تاريخها يرجع إلى عصر سحيق يصعد به بعضهم إلى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ويعتنقها الآن معظم سكان الهند وبعض سكان الباكستان .

وهى منسوبة للإلاه براهما Brahma ، وهو عند معتنقى هذه الديانة اسم للالاه الخالق . ولا صحة لما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل من أنها تنسب إلى رجل عظيم منهم يقال له براهم [2] .

ويطلق على الأسفار المقدسة لهذه النحلة اسم « الڤيدا » Vedas ومعناها المعرفة أو العلم [3] .

ومن أسفار « الفيدا استمدت « قوانين مانو » Lois de Manou التى تنسب لمشرع هندى قديم اسمه مانو أو ماناڤا وهى تفصيل وشرح وبيان لما اشتملت عليه أسفار الڤيدا من قصص دينى وعقائد وعبادات وشرائع وأخلاق . وينزل البرهميون هذه القوانين منزلة التقديس كذلك ، حتى لقد اعتقدوا أن مؤلفها أحد الآلهة المنبثقين عن الاله الخالق « براهما » .

وسنقف الفقرة الأولى من هذا الفصل على التعريف بأسفار « الفيدا » ، والفقرة

---

(١) من أهم مراجعنا فى هذا الفصل :

Loiseleur— Delongchamps: traduction du sanscrit des "Lois de Manou" accompagnée de notes explicatives et d'une notice sur les Védas.

وسنكتفى فى الاحالة على هذا المرجع فيما يلى بكلمة لوازلير.

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، الجزء الثانى ، ص ٢٥١ ، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٦١

(٣) يعربّ البيرونى فى كتابه « تحقيق ما للهند . . . الخ » كلمة « ڤيدا » إلى « بيذ » بباء فياء فذال .

الثانية على التعريف « بقوانين مانو » ، ثم نلقى فى بقية فقرات هذا الفصل نظرة على ما تشتمل عليه هذه الأسفار من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق[٤] .

— ١ —

أسفار الڤيدا

يطلق البرهميون اسم الڤيدا Védas (ومعناها فى اللغة السنسيكرينية القديمة المعرفة أو العلم) على مجموعة أسفار قديمة يعتقدون أنه موحى بها من الالاه براهما نفسه ، وأنه جمعها حكيم من حكمائهم اشتهر باسم « ڤيدا ڤياسا » Védas — Vya'sa أى جامع الفيدا[٥] . وهى أربعة مجموعات من الأسفار ، تنقسم كل مجموعة منها قسمين : قسم للأدعية والصلوات وتسمى « منترا » Mantras وقسم للتعاليم المتعلقة بالعبادات والشرائع وما إلى ذلك ويسمى « برهمانا » Brahmanas[٦] .

ويقول الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو فى إحدى رسائله عن الهند القديمة : « لعل هذه الكتب لم تدون فى أول الأمر ، وإنما حفظت عن ظهر قلب ، وبقيت فى صدور الحفاظ من حكماء تلك العصور يتناقلونها مشافهة جيلا بعد جيل . وبعد انتشار نظام الكتابة كتبت الڤيدا الأربعة باللغة السنسيكريتية ، وسمى المجموع « سمهتا » أى الديوان المجموع » .

وهذه المجموعات الأربع هى :

١ — « ريج ڤيدا » أو « ريتش ڤيدا » Rig- Véda , ou , Ritch— Véda (ومعناها الڤيدا النارية أى المنسوبة للنار) . وهى قسمان : يتمثل أحدهما فى أدعية وصلوات وأوراد منظومة تتلى فى بعض المناسبات (منترا) ؛ ويشتمل الآخر على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية (براهمانا) .

---

(٤) سنعرض فى أثناء كلامنا على هذه الأمور لشىء من القصص الدينى فى أسفار هذا الدين

(٥) لوازلير ٣٨٠ .

(٦) لوازلير ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

٢ – « ياچور ڤيدا » أو « ياچوش ڤيدا » Yadjour—Véda. ou, Yadjouch (ومعناها القيدا الهوائية أى المنسوبة للهواء) وهى مجموعتان يطلق على احداهما اسم « ياچور – ڤيدا البيضاء » ؛ وعلى الأخرى اسم « ياچور – ڤيدا السوداء » . وكل مجموعة منهما تنقسم قسمين : يتمثل أحدهما فى أدعية وصلوات وأوراد نثرية تتلى فى بعض المناسبات (منترا) ؛ ويشتمل الآخر على تعاليم تتعلق بالواجبات الدينية (براهمانا) .

٣ – « سامان ڤيدا » أو « ساما ڤيدا Saman Véda, ou, Sama -Veda (معناها الڤيدا الشمسية أى المنسوبة للشمس) ، وهى قسمان كذلك : يتمثل أحدهما فى مزامير دينية يتغنى بها فى بعض المناسبات (منترا) ؛ ويشتمل الآخر على تعاليم متعلقة بالعبادات والواجبات الدينية (براهمانا) .

٤ – « أتارڤانا ڤيدا » (لعلها نسبة لحكيم من حكماء الهند يدعى « أتارڤانا ») ، وهى كذلك تنقسم قسمين : يتمثل أحدهما فى أوراد وأدعية للاستغفار والرقى ضد السحر وضد الارواح المدمرة الخبيثة (منترا) ؛ ويشتمل الآخر على طائفة من شرائع الديانة البرهمية (براهمانا) وبخاصة ما يتعلق منها بالتفرقة العنصرية بين الطبقات ، وهو النظام الذى تقوم عليه أهم العلاقات الاجتماعية بين طبقات الناس والذى يحدد مركز كل طبقة ووظائفها عند البرهميين . وسنعرض لهذا النظام بشئ من التفصيل عندما نتكلم على الشريعة فى الديانة البرهمية . — وبهذه الطائفة من الشرائع الاجتماعية يمتاز هذا السفر عن الأسفار الثلاثة السابقة .

هذا ، وقد ظهر للمحققين من المشتغلين بالدراسات الهندية ، وعلى رأسهم العلامة وليم جونس Wiliam Jones أن الكتب الثلاثة الأولى هى أقدم هذه الكتب جميعا فى تاريخ تأليفها ، وأن أقدمها هو الريج ڤيدا الذى يصعد تاريخ تأليفه ، فى نظر بعضهم ، إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأن السفر الرابع هو أحدثها جمعا ، بل إن المشرع الهندى الشهير « مانو » ، الذى سنتحدث عنه فى الفقرة التالية ، وغيره من قدامى المشرعين الهنود ، حينما يتكلمون على الڤيدا لا يكادون يذكرون الا الأسفار الثلاثة الأولى ، وقلما يرد للسفر الرابع ذكر فى

كلامهم ؛ فلم يرد له ذكر فى قوانين « مانو » الا مرة واحدة فحسب ؛ وحينما يشيرون إليه لا يذكرونه على أنه جزء من « الڤيدا » أى لا يضيفون إليه كلمة « ڤيدا » . ويمكن أن يستنتج من هذا أنه لم يكن فى الأصل من الكتب المقدسة ، وأنه قد أقحم عليها فيما بعد ، وأنه أحدث منها كثيرا من تاريخ تأليفه . ولكن العلامة كولبروك Colebrook – وهو من ثقات الباحثين فى أسفار البرهميين – يذهب إلى أن قسما غير يسير من « الأتارفانا » يرجع تاريخه إلى العصر نفسه الذى ألفت فيه الأسفار الثلاثة السابقة [٧]

وقد اكتسبت أسفار الڤيدا بتقادم العهد قداسة عند الهنود ، واعتقدوا أنها وحى منزل من الالاه براهما ، وحرصوا أيما حرص على صيانتها . ولذلك سلمت من الأحداث التى أصابت أسفار « الأبستاق » وأضاعت قسما كبيرا منها ، كما سبق بيان ذلك فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

هذا ، ويضيف بعضهم إلى هذه الكتب الأربعة كتابا خامسا يتألف من قسمين ، وهما « الإيتيهازا » Itihasa و« البورانا » Pourana ويسمونه « الڤيدا الخامس » . ولكن الصحيح أن هذين السفرين وأسفارا أخرى مثل « السوترا » Les Soutra و « البرهمانا » و « اليوبانيشاد » Oupanichade و « الڤيدانتا » Vedanta هى شروح وتعليقات على الڤيدا ، وليست من أسفار الڤيدا نفسها ، وأنها قد ألفت فى عصور متأخرة عن العصور التى ظهرت فيها أسفار الڤيدا الأصيلة .

* * *

وقد كتبت أسفار الڤيدا فى الأصل باحدى اللهجات السنسكريتية القديمة وقد انقرضت هذه اللهجة منذ أمد بعيد من لغة الكتاب ولغة التخاطب ، وأصبحت غير مفهومة الا لطائفة من كبار رجال الدين . وكانت عقائدهم تحرم عليهم أن يعلموا هذه الأسفار أو يبوحوا بحقائقها لغير أهل ملتهم . ومن أجل ذلك ظلت هذه الكتب مجهولة للعلماء حتى القرن العاشر الميلادى . وفى أواخر هذا القرن استطاع العلامة أبو

---

(٧) لوازلير ص ٢ ، تعليق ١ .

الريحان البيرونى (محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى المولود سنة ٣٦٢ هـ الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية والمتوفى سنة ٤٤٠ هـ) أن ينقل إلى العربية طائفة كبيرة من محتويات الڤيدا (وجرى على تعريبها بكلمة « بيذ ») فى كتابه الشهير الذى ألفه حوالى سنتى ٣٩٠ ، ٣٩١ هجرية وجعل عنوانه :

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة

وذلك أنه ذهب فى سن مبكرة إلى بلاد الهند مرافقا للسلطان محمود الغزنوى فى حملاته وغزواته ، وعكف هناك على دراسة اللغات الهندية القديمة والحديثة وعلى دراسة آداب الهنود وثقافتهم حتى أتقنها جميعها، واستطاع بفضل ذلك أن ينقل فى كتابه القيم المشار إليه أهم ما يتعلق بأسفار الڤيدا وبعقائد الهنود وفلسفتهم وآدابهم وعلومهم وثقافتهم على العموم ، وقسمه ثلاثة أقسام : قسم خاص بالفلك ؛ وقسم خاص بالرياضة ؛ وقسم خاص بالفلسفة وما يتصل بها من عقائد . والقسم الأخير هو أشد أقسام الكتاب علاقة بأسفار الڤيدا وشروحها ، فكان كتابه هذا أول مفتاح لدراسة هذه الأسفار وأول كاشف لأسرارها[٨]

وفى منتصف القرن السابع عشر الميلادى استطاع أحد علماء الفرس وهو داراشيكو Dara - Chékoh أن يحصل على بعض أجزاء من الڤيدا ، واستطاع كذلك ، بفضل اتقانه للغة السنسيكريتية المدونة بها أسفار الڤيدا ، أن يترجم هذه الأجزاء إلى اللغة الفارسية ، وظهرت هذه الترجمة سنة ١٠٦٧ هـ الموافقة لسنة ١٦٥٧ الميلادية . ثم أتيح بعد ذلك فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لكثير من العلماء الأوربيين المشتغلين بدراسة الثقافة الهندية أن يعثروا فى المكتبات الهندية القديمة على نسخ مخطوطة لأسفار الڤيدا ، وأتيح لهم كذلك بفضل دراساتهم اللغوية وتمكنهم من معرفة اللغة المؤلفة بها هذه الأسفار ، بعد أن اهتدوا إلى حل جميع رموزها ، أن

---

(٨) نشر هذا القسم على حدة وحققه وقدم له صديقنا المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود تحت عنوان الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامى . وسنحيل على هذا الكتاب فيما ننقله عن البيرونى .

يترجموها إلى اللغات الأوربية الحديثة . ويرجع أكبر قسط من الفصل فى هذا الصدد إلى عالمين انجليزيين وهما سير وليم جونس Wiliam Jones وكولبروك Colebrook .

– ٢ –

قوانين مانو

تشتمل « قوانين مانو » أو « ماناڤا دهارما ساسترا » Manava - Dharma Sastra (أى كتاب قوانين مانو) على تفصيل للدين البرهمى عقائده وعباداته ومعاملاته ونظمه الاجتماعية بمختلف فروعها (نظم السياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء والحرب والقوانين المدنية وقوانين العقوبات ونظم التربية والأخلاق ... وهلم جرا) ، كما تشتمل على تاريخ الكون ونشأته وخلق الانسان وتقسيم الطبقات .

وينسب هذا السفر لمشرع قديم اسمه « مانو » أو « ماناڤا » . ولا نعلم تاريخه على وجه اليقين . وأرجح ما قيل فى هذا الصدد من آراء أنه عاش حوالى القرن الثالث الميلادى .

وينزل البرهميون هذا السفر منزلة التقديس ، حتى لقد اعتقدوا أن مؤلفه هو أحد الآلهة الستة المنبثقين عن الالاه الخالق (براهما) ، والذين تتابعوا فى حكم العالم .

وهو أهم مرجع للباحثين فى الدين البرهمى ، لأنه قد استوعب جميع نواحى هذا الدين قصصه وعقائده وعباداته وشرائعه ، ولم يغادر أى فرع من هذه الفروع إلا فصله تفصيلا . ويستمد أحكامه من أسفار الڤيدا نفسها ، كما يصرح بذلك فى مقدمته .

وقد ألف فى شعر منظوم ، ويشتمل على ٢٦٨٤ مادة ، تندرج تحت اثنى عشر كتاباً :

الكتاب الأول فى الخلق ويعرض لخق براهما للكون والعالم والانسان وتقسيمه للطبقات .

ويشتمل على ١١٩ مادة ؛

والكتاب الثانى فى الأدعية والصلوات والأخلاق

ويشتمل على ٢٤٩ مادة ؛

والكتاب الثالث فى نظم الأسرة والزواج وما يتصل بذلك

ويشتمل على ٢٨٦ مادة ؛

والكتاب الرابع فى النظم الاقتصادية وشئون العمل والمعاش

ويشتمل على ٢٦٠ مادة ؛

والكتاب الخامس فى شئون الاستغفار والتكفير والتقوى والطهارة وواجبات المرأة

ويشتمل على ١٦٩ مادة ؛

والكتاب السادس فى شئون التصوف والزهد ... وما إلى ذلك

ويشتمل على ٩٧ مادة ؛

والكتاب السابع فى النظم السياسية والحربية وواجبات الملوك والحكام ورجال الجيش

ويشتمل على ٢٢٦ مادة ؛

والكتاب الثامن فى النظم القضائية والشئون المدنية وقانون العقوبات

ويشتمل على ٤٢٠ مادة ؛

والكتاب التاسع تكملة للقوانين المدنية وقانون العقوبات وواجبات طبقة التجار وطبقة الخدم والعبيد

ويشتمل على ٣٣٦ مادة ؛

والكتاب العاشر فى طبقات المجتمع والنظم الخاصة بكل طبقة منها وما يجب مراعاته فى أوقات المجاعة

ويشتمل على ١٣١ مادة ؛

والكتاب الحادى عشر فى قوانين التكفير والاستغفار من الخطايا والذنوب

ويشتمل على ٢٦٥ مادة ؛

والكتاب الثانى عشر فى تناسخ الأرواح وتجولها والسعادة الأخروية
ويشتمل على ١٢٦ مادة ؛

وقد ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الحية . ومن أهم تراجمه ترجمته الفرنسية التى نشرها العلامة لوازلير دولونشان A. Loiseleur-Delongchamps مصحوبة بتعليقات هامة كثيرة ، ومذيلة ببحث قيم عن أسفار الڤيدا التى استمدت منها هذه القوانين .

— ٣ —

العقيدة فى أسفار الدين البرهمى وتطورها

تقوم العقيدة البرهمية فى أسفار الڤيدا وقوانين مانو على الدعائم الثلاث الآتية :

١ — وحدانية الله ووحدة الوجود : تقرر أسفار الدين البرهمى أن الله واحد لا شريك له ، وأنه قد صدرت عنه جميع الكائنات ، وسرت منه روح فى الجماد والنبات والحيوان . فالموجود بحق هو الله وحده ، وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه ، وهذا هو ما يعبر عنه بنظرية وحدة الوجود التى انتقلت إلى التصوف الاسلامى ونظريات رجاله وخاصة ابن عربى والحلاج .

وإلى هذا تشير أسفارهم المقدسة وهى الڤيدا اذ تقول على لسان براهما : « اننى أنا الله نور الشمس ، وضوء القمر ، وبريق اللهب ، ووميض البرق ، وصوت الرياح ، والعرف الطيب ينبعث فى الأرجاء ، والأصل الأزلى لجميع الكائنات ، وحياة كل موجود . ، اننى صلاح الصالح ، أنا الأول والآخر ، أنا السماوات والأرض » . وتقول فى موضع آخر : « ان الله واحد لأنه الجميع (أى جميع الكائنات ، فهى كلها مظاهر منه) ، وهو الله الذى لا إله غيره ، رب الأرباب ، مالك العالمين ، وخالق السماوات والأرضين » .

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه القيم « تحقيق ما للهند من مقولة » : « واعتقاد الهند (يقصد البراهمة) فى الله سبحانه أنه الواحد الأزلى ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر الحكيم ، الحى المحيى ، المدبر المبقى ، الفرد فى

ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيءٌ » . ثم أخذ يورد نصوصا كثيرة من كتبهم تؤيد ما ذكره عن اعتقادهم بواحدانية الله وقدمه وبقائه ومخالفته للحوادث[٩] .

هذا ، وتبدو فكرة التوحيد واضحة كل الوضوح فى شرحين من شروح الڤيدا وهما اليوبانشاد والڤيدانتا . وفى هذا الكتاب الأخير (الڤيدانتا) تتبلور فكرة وحدة الوجود التى يقوم عليها الدين البرهمى وتصل إلى ذروتها ، فيقرر هذا السفر فى عبارة صريحة أن الله والنفس الإنسانية وجميع الكائنات شىء واحد .

٢ - تناسخ الكائنات وتجوال الأرواح (الكارما) . وتقرر العقيدة البرهمية أن أرواح الكائنات التى صدرت عن الموجود بذاته وهو الله متجولة متناسخة ينتقل بعضها إلى مواطن بعض ويتقمص بعضها اجسام بعض وهذا هو ما يعبر عنه بالتناسخ أو تجوال الروح . فهم يعتقدون أن الروح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود ، تنتقل من جسد إلى جسد ، سواء أكان من الانسان أم من الحيوان ، فى طريقها إلى هدفها الأخير (الذى سنبينه فى الدعامة الثالثة) . ويعتقدون أن كل ما يصيب الكائن فى أى مرحلة من مراحل تناسخة انما هو نتيجة لمقدمات وأعمال حدثت فى مرحلة ما من مراحل وجوده . فما يصيب الانسان مثلا من سعادة وآلام إنما يكون جزاء أو نتيجة لأعمال صالحة أو شريرة عملها فى وجوده الحالى ، أو فى وجود سابق حينما كانت روحه متقمصة كائنا آخر . فكل عمل يأتيه الانسان له ثمرته ونتيجته حتما ، وهذه الثمرة لابد أن تحدث فى دور من أدوار الميلاد المتكررة التى تنتقل فيها الروح . فان لم تحدث فى الدور الذى حدث فيه العمل ، فهى لابد حادثة فى دور من الأدوار التالية له . ويعبرون عن هذه الفكرة بكلمة «كارما» .

وإلى هذا يشير البيرونى اذ يقول : «كما أن الشهادة بكلمة الاخلاص ايمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والإسبات علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد فى جملتها» .

---

(٩) البيرونى ، المرجع السابق ص ٣٠ وتوابعها .

ويؤيد هذه القضية بنصوص من كتبهم فيقول : « حقيق علينا ان نورد من كتبهم شيئا من صريح كلامهم فى هذا الباب ... قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال وهما بين الصفين : ان كنت بالقضاء السابق مؤمنا فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معا بموتى ولا ذاهبين ذهابا لا رجوع معه ؛ فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وانما تتردد فى الأبدان على تغاير الانسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة ، التى عقباها موت البدن ثم العود . وقال له : وكيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود ، لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل من بدنها اذا عتق (بمعنى قدم أى أصبح قديما لا يصلح لاحتمال الروح) نحو آخر ليس كذلك ، كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق (أى بلى) ، فما غمك لنفس لا تبيد ؟[10] » .

وأما الطريقة التى يجرى بها التناسخ فسنعرض لها عند كلامنا على اعتقادهم فى الجنة والنار .

ويظهر أن هذه الآراء قد انتقلت إلى بعض الفرق المنتمية للاسلام . فقد ذكر العلامة ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » (جزء أول صفحات ٧٢ —٧٩) أن بعض فلاسفة الاسلام قد ذهبوا إلى القول بتناسخ الأرواح . فذهب فريق منهم « إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى وان لم تكن من نوع الأجساد التى فارقت . وهذا قول أحمد بن حابط وأحمد بن نانوس تلميذه وأبى مسلم الخراسانى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب صرح بذلك فى كتابه الموسوم بالعلم الالاهى ، وهو قول القرامطة . وقال الرازى فى بعض كتبه:لولا أنه لا سبيل إلى تخليص (أى نقل) الأرواح من الأجساد المتصورة بالصور البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصور الانسان إلا بالقتل والذبح لما جاز ذبح شىء من الحيوان ألبتة . ويقولون إن التناسخ إنما هو على سبيل العقات والثواب . قالوا فالفاسق

---

(١٠) البيرونى ، المرجع السابق ص ٥٣ .

المسىء الأعمال تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة فى الأقذار والمسخرة الممتهنة بالذبح .. واحتجت هذه الطائفة المرتسمة بالاسلام أعنى أحمد بن حابط وأحمد بن نانوس بقول الله تعالى : « يايها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » وبقوله : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا » . وذهبت الفرقة الثانية إلى أن منعت من انتقال الأرواح إلى غير أجسادها التى فارقت . وليس من هذه الفرقة أحد يقول بشىء من الشرائع ، وهم من الدهرية » .

٣ – رجوع الأرواح إلى مصدرها الأول وهو الله . تقرر العقيدة البرهمية أن روح كل كائن تعود فى نهاية مطافها إلى مصدرها الأول الذى نشأت منه وهو الله . والإنسان أحد هذه الكائنات ، فيعرض له ما يعرض لها ، وروحه قطرة من نور الله ، انفصلت عن الله إلى أجل محدود ، واتصلت به ، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ وتجوال الروح ، ثم تعود فى النهاية إلى الله متى جاء الأجل ، كالقطرة من الماء العذب ، تصعد بخارا ، وترقى فى السماء ، وتنتقل من جهة إلى جهة ، وقد تتحول إلى قطع من الثلج أو البرد أو غير ذلك ، ثم تسقط على قمم الجبال ، وتجرى فى الأنهار ، ثم ترجع فى نهاية مطافها إلى البحر الذى انفصلت عنه فى أول الأمر ؛ أو كالهواء الحبيس فى قدح مقلوب – حسب تشبيه أسفارهم نفسها – يظل منفصلا عن الهواء الخارجى وان كان منه ، حتى يتحطم القدح ، وحينئذ يزول الفاصل بينهما ويتحدان .

* * *

فالديانة البرهمية كانت فى أصلها – على ما يبدو من نصوص أسفارها – ديانة توحيد ، مشوبة بعقائد وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ورجوع الكائنات إلى الخالق وما إلى ذلك من المعتقدات التى انتقل كثير منها إلى التصوف الاسلامى ونظريات بعض رجاله وإلى بعض فلاسفة المسلمين وبعض الفرق المنتمية للإسلام .

ولكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام ، وحلت محلها عقيدة تثليث ؛ لأنهم زعموا أن براهما كان قبل الوجود فى فضاء لا نهاية له ، فرغب أن يكون كثيرا ،

فخلق العالم بقوة ارادته وبفيض من ذاته (نظرية وحدة الوجود) وسمى نفسه الخالق . ثم انبثق منه الالاه المدمر ، وهو الالاه سيفا Civa الموكل بالخراب والفناء ، فلا يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم . ولو ترك هذا لالاه وشأنه لفنيت السماوات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما الاه ثالث حافظ مجدد وهو الالاه فيشنو Vichnou

وبذلك انمحت عقيدة التوحيد الأصلية فى الدين البرهمى ، واستبدل بها هذا الثالوث . ويتجه البرهميون الآن بمعظم عباداتهم إلى الالاه فيشنو ، وهو الالاه الحافظ المجدد . أما الالاه سيفا فهو الاه مدمر يتقى شره . وأما الالاه براهما وهو أصلها جميعا فيزعمون أنه قد أدى وظيفته وهى الخلق ، وأنه ينعم الآن بالراحة المطلقة الكاملة .

وقد سرت صفة القداسة عندهم مع تقادم العهد إلى بعض الانهار والجمادات وبعض الحيوانات ، وعلى الأخص فصيلة البقر ، التى ينزلونها منزلة كبيرة من القداسة تقرب من درجة العبادة ، ويحرمون ذبحها ، ويعتبرون التعرض لها بأذى من أكبر الجرائم .

وفى ذلك يقول الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو : « ان قدامى الهنود قد علقوا أهمية كبيرة على الزراعة . ومن ثم عظموا كل شئ من شأنه أن ينهض بها . فرأوا الأنهار الكبرى يتوقف على مائها نمو النبات ، فنظروا اليها نظرة اكبار . ورأوا ما يقدم اليهم البقر من مساعدة جليلة فى شئون الحرث والزراعة على العموم ، فعظم شأنه لديهم . ومع تقادم العهد نسى الناس السبب فى تعظيم قدمائهم للأنهار والبقر وأخذت صفة القداسة نسرى اليها ، فاعتبروها بمثابة الآلهة وعبدوها » .

وسرت اليهم كذلك عبادة الأصنام التى ترمز إلى الآلهة أو إلى الملائكة أو إلى الكواكب أو القديسين ، وتفننوا فى صنعها ، ووضعوا لنحتها قواعد ومقاييس مضبوطة تختلف باختلاف ماترمز إليه ، وأعطوا لكل منها اسما خاصا وتقربوا إليها بالصدقات والقرابين[11] .

---

(١١) انظر فى ذلك البيرونى ، المرجع السابق ص ١٠٠ - ١١١ .

وذكر الشهرستانى أن من أهم عقائد البرهميين انكار النبوة . وأنهم يرون استحالتها فى العقول ، فيقولون « ان الذى يأتى به الرسول لا يخلو من أحد أمرين : اما أن يكون معقولا ؛ واما ألا يكون معقولا . فان كان معقولا فقد كفانا العقل التام ادراكه والوصول اليه . فأى حاجة إلى الرسول ؟ » وان لم يكن معقولا ، فلا يكون مقبولا ؛ اذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول فى حريم البهيمية »[١٢] .

* * *

ويعتقد البرهميون فى الجنة النار ، ولكن فى صورة تختلف اختلافا كبيرا عن عقيدة المسلمين . ويشرح البيرونى عقيدة البرهميين فى الجنة والنار فيقول :

« المجمع يسمى « لوك » . والعالم ينقسم قسمة أولية إلى علو وسفل وواسطة : فيسمى العالم الأعلى « سفر لوك » وهو الجنة ؛ والعالم الأسفل « ناكلوك » أى مجمع الحيات وهو جهنم ، ويسمى أيضا « نرلوك » ، وربما سموه « باتال » أى أسفل الأرضين ؛ وأما الأوسط الذى نحن فيه فيسمى « مادلوك » و « مانش لوك » أى مجمع الناس . والأوسط للاكتساب ؛ والأعلى للثواب ؛ والأسفل للعقاب . وفى هذين الأخيرين يستوفى جزاء العمل من استحقها مدة مضروبة بحسب مدة العمل . والكون فى كل واحدة منها للروح مجردة عن البدن . وللقاصر عن السمو إلى الجنة أو الرسوب إلى جهنم « لوك » آخر ، يسمى « ترجكلوك » وهو النبات والحيوان غير الناطق : يتردد الروح فى أشخاصها بالتناسخ إلى أن ينتقل إلى الانس على تدريج من أدون المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة . وكونها فيه على أحد وجهين : اما لقصور مقدار المكافأة عن محلى الثواب والعقاب ؛ واما لرجوعها من جهنم . فعندهم أن العائد إلى الدنيا (من الجنة) متأنس فى أول حالته . والعائد اليها من جهنم متردد

---

(١٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، الجزء الثانى ص ٢٥١ (الطبعة السابقة) .

فى النبات والحيوان إلى أن يبلغ مرتبة الانسان »[١٣] . أى أن أرواح الناس فى حياتهم الأولى تكون فى المنزلة الوسطى وهى منزلة العمل والكسب ، فاذا ماتوا انتقلت أرواح الخيرين منهم إلى الجنة (المنزلة العليا) تستوفى فيها جزاء العمل مدة مضروبة بحسب قدر العمل وكماله ، وانتقلت أرواح الخاطئين منهم إلى جهنم (المنزلة السفلى) تستوفى فيها جزاء عملها كذلك مدة مضروبة بحسب مبلغ جرمها . وبعد استيفاء جزاء عملها فى الجنة أو فى النار ، تنتقل الأرواح الخيرة من الجنة إلى آدميين آخرين فترجع إلى المنزلة الوسطى ، وأما الأرواح الخاطئة فتنتقل من النار إلى الحيوان والنبات . ومنزلة الحيوان والنبات منزلة رابعة غير المنازل الثلاث السابق ذكرها ، تستقر فيها فى بادئ الأمر الأرواح غير الآدمية لأنها قاصرة عن المنزلة الوسطى وعن السمو إلى الجنة وعن الرسوب إلى النار ، وتستقر فيها كذلك أرواح الآدميين العائدة من جهنم . وهاتان الطائفتان من الأرواح المستقرتان فى الحيوان والنبات تتجولان فى أشخاص الحيوان والنبات بالتناسخ إلى أن تنتقلا إلى الانس على تدريج من أدنى المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة ، فتصبحا فى المنزلة الوسطى .. وهكذا دواليك . فالثواب والعقاب عندهم فى الجنة والنار إنما يكونان للروح وحدها مجردة عن البدن ويكونان مؤقتين لأجل محدد لا دائمين .

ويذكر البيرونى أنهم يكثرون من الجهنمات وصفاتها وأسمائها ، ويفردون لكل ذنب أو لكل مجموعة من الذنوب جهنم خاص أو محلا خاصا فى جهنم ، حتى ان عددها قد بلغ فى بعض أسفارهم إلى ثمانية وثمانين ألفا ، ذكر البيرونى منها ثلاث عشر جهنم : « منها ما يسمى « رور » وهى مخصصة للكاذب وشاهد الزور والمعاون لهما والمستهزئ بالناس ؛ ومنها ما يسمى « رودة » وهى مخصصة لسافك الدم بغير حق وغاصب حقوق الناس ، والمغير عليهم وقاتل البقر ؛ ومنها ما يسمى « كنت » وهى مخصصة لقاتل البرهمن (المنتمى إلى الطبقة العليا وهى طبقة رجال الدين) وسارق الذهب ومن يصحبهم والأمراء الذين لا يقومون بواجبهم نحو رعاياهم ومن يزنى بأهل أستاذه ومن يضاجع أم زوجته ؛ ومنها ما يسمى « مها جال » وهى مخصصة لمن

(١٣) البيرونى ، المرجع السابق ص ٥٩ .

يغضى على فاحشة زوجته طمعا فى منفعة ومن يزنى بابنته أو زوجة ابنه أو يبيع ولده أو يبخل على نفسه بما يملك ...»[١٤] .

ويذكر البيرونى مذاهب أخرى للبرهميين فى الجنة والنار . منها ما يراه بعضهم من أن جهنم ليست شيئا آخر غير الانحطاط عن البشرية وتردد روح الخاطئ فى الحيوان والنبات[١٥] .

— ٤ —

العبادات فى أسفار الدين البرهمى

تتجه العبادة فى الدين البرهمى إلى غاية واحدة وهى الفناء فى الله والاندماج فى الكائن الأسمى . ويساعد على الوصول إلى هذه الغاية الانابة إلى الله والرجوع اليه والندم على ما فرط من المعاصى والآثام والورع والتقشف فى الحياة واهمال مطالب الجسم لتصفو الروح التى هى قبس من الخالق . ومن ثم تحث البرهمية — على عكس الديانة الزرادشتية — على الاكثار من الصوم لما يؤدى إليه من اهمال المطالب الحيوانية للجسم واضعاف القوى الجسمية واضعاف تحكمها فى العبد ، بل انها لتفرضه فرضا على جميع الطبقات أو على بعضها فى مناسبات كثيرة .

فمن ذلك أنها تفرض الصوم على طبقة رجال الدين ، الذين يطلق عليهم اسم البرهمنيين كما سيأتى بيان ذلك ، فى أيام الاعتداليين والانقلابيين (أوائل فصول الخريف والربيع والشتاء والصيف) وفى اليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قمرى (مبدأ ظهور الهلال وحينما يصبر بدرا) . وروى فى أسفارهم المقدسة كذلك أنه فى أثناء كسوف الشمس يجب الكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسى . وهذا فيما يتعلق بالطبقات الدنيا . وأما الطبقات العليا (طبقة البرهمنيين رجال الدين وطبقة

---

(١٤) البيرونى ، المرجع السابق ٥٩ — ٦١ : « وهم يكثرون من عدد الجهنمات وصفاتها وأساميها . ويفزدون لكل ذنب منها محلا . وقيل فى « بشن بران » أنها ثمانية وثمانون ألفا » .

(١٥) المرجع السابق ص ٦١ وتوابعها .

الكشتريين رجال الحرب) فلا يقتصر واجبهم على ما تقدم ، بل يحرم عليهم كذلك الانتفاع بشئ من الأطعمة التى تكون بمنازلهم وقت الكسوف ، ويجب عليهم التصدق بها على غير أفراد طبقتهم بعد تحطيم الآنية التى كانت بها . وتوجب قوانين مانو على طبقة السيناتا Sinata (وهم كبار رجال الدين من البرهمنيين) أن يكفوا عن الأكل والشرب والنوم والسفر من غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر كل يوم [١٦] .

وهذا فيما يختص بالصيام المفروض على بعض الطبقات والصيام الذى يؤدى بمناسبة كسوف الشمس . وأما الصيام العام فقد ذكر البيرونى أنه عندهم « تطوع ونوافل ، وليس شئ منه مفروضا » . وذكر له أنواعا كثيرة . منها أن يعين الشخص اليوم المصوم ، ويضمر اسم من يتقرب اليه ويصوم لأجله ، من الله أو أحد الملائكة أو غيرهم ، ثم يتقدم هذا الفاعل ويجعل طعامه فى اليوم الذى قبل يوم الصوم عند الظهيرة ، وينظف الأسنان بالتخليل والسواك ، وينوى صوم الغد ، ويمتنع وقتئذ عن الطعام . فاذا أصبح يوم الصوم استاك ثانية ، واغتسل وأقام فرائض يومه ، وأخذ بيده ماء ورمى به فى جبهاته ، وأظهر اسم من يصوم له بلسانه . وبقى على حاله إلى غد يوم الصوم ، فاذا طلعت الشمس فهو بالخيار فى الافطار ، ان شاءه فى ذلك الوقت ، وان شاء اخره إلى الظهيرة . فهذا النوع يسمى « أوب باس » ... ومنه نوع آخر يسمى « كرجر » وهو أن يطعم فى وقت ما وقت الظهيرة ، وفى اليوم الثانى وقت العتمة ، ولا يأكل فى اليوم الثالث الا ما يدفع اليه غير مطلوب ، ثم يصوم اليوم الرابع . ومنه نوع يسمى « براك » وهو أن يجعل طعامه وقت الظهيرة ثلاثة أيام متوالية ، ثم يحوله إلى وقت العتمة ثلاثة أيام متوالية ، ثم يصوم ثلاثة أيام متتالية لا يفطر فيها ألبته . ومنه نوع يسمى « جندراين » وهو أن يصوم يوم الاستقبال ، ويتناول فى اليوم الذى يتلوه من الطعام قدر مضغة ملء الفم ، وبضعفها فى اليوم الذى بعده ، ويجعلها فى اليوم الثالث ثلاثة أضعافها ، الى أن يبلغ يوم الاجتماع على

---

(١٦) Westermarck op. cit. T. II. P. 296 ، وانظر كذلك كتابنا فى « غرائب النظم والتقليد والعادات » الجزء الأول ٦٧ ، وكتابنا فى « الصوم والأضحية » ص ٢٠ ، ٢١ .

هذا التزايد فيصومه ، ثم يتراجع من المقدار الذى بلغه طعامه بنقصان مضغة مضغة الى أن يفنى عند استقبال بلوغ الاستقبال . ومنه نوع يسمى « ماسواس » وهو أن يصوم بالوصال أيام شهر متوالية لا يفطر فيها بتة »[١٧] . ثم ذكر الأيام التى يستحب فيها الصوم عندهم وهى كلها مرتبطة بمواقيت فلكية ، وخاصة بمنازل القمر . فمن ذلك « اليوم الثامن والحادى عشر من النصف الأبيض من كل شهر ويوم الاستقبال من شرابن (اسم شهر عندهم) ... وفى « أشوجج » (اسم شهر) اذا كان القمر فى السرطان والشمس فى السنبلة .. واليوم الثامن من هذا الشهر وفطره مع طلوع القمر ... واليوم الخامس من بهادرو (اسم شهر) ويصام هذا اليوم باسم الشمس ؛ وفى السادس من « بوش » (اسم شهر) صوم للنساء دون الرجال .. يكون تمام يوم بليلته ..[١٨] » . وأشار إلى بعض طقوس غريبة ترتبط عندهم ببعض أنواع الصيام ، فذكر أنه فى بعض هذه الأنواع « يجتنب الصائم اللحم والسمك والحلوى واقتراب النساء ويجعل أكله مرة كل يوم ويجعل الأرض وطاءه من غير فرش ولا ارتفاع عنها بسرير ..» ، وفى بعض أنواع الصيام « يتلوث الصائم بأخثاء البقر ويفطر بلبنها وبولها وأخثائها ...»[١٩] .

ويشتمل الدين البرهمى – بجانب الصوم – على عبادات أخرى تقسمها أسفارهم ثلاثة أقسام : منها ما يشبه الصوم فى تعلقه بالجسم ؛ ومنها ما يتعلق بالصوت ؛ ومنها ما يتعلق بالقلب .

أما العبادات المتعلقة بالجسم فمن أهمها « الصلاة ، وخدمة الملائكة وعلماء البراهمة ، وتنظيف البدن ، واحترام الحياة الانسانية ، واحترام الأعراض » .

وأما العبادات المتعلقة بالصوت فمن أهمها « قراءة الأوراد والدعوات الدينية

---

(١٧) البيرونى ، المرجع السابق ١٣٠ – ١٣٢ . « ويوم الاجتماع » . و« يوم الاستقبال » اللذان وردا فى عباراته يراد بهما مواقيت فلكية .

(١٨) البيرونى ، المرجع السابق ١٣٣ – ١٣٥ .

(١٩) البيرونى ، المرجع السابق ١٣٤ ، ١٣٥ .

والتسبيح ، ولزوم الصدق ، وملاينة الناس فى الحديث ، وارشادهم ، وأمرهم بالمعروف » .

وأما العبادات المتعلقة بالقلب فمن أهمها « تقويم النية ، وترك التعظم ،ولزوم التأنى ، وجمع الحواس مع انشراح الصدر »[٢٠] .

ومن عباداتهم كذلك تقديم القرابين للآلهة . وتشمل القرابين التى تحث الفيدا على تقديمها للآلهة أنواعا كثيرة منها اللبن والحبوب والسمن واللحوم وعصير الفواكه والنباتات . وفى أثناء تقديم القرابين يرتل الهنود الأناشيد الدينية والأدعية المأثورة فى الفيدا ويؤدون رقصات وحركات تعبدية مصحوبة أحيانا بالموسيقى . والرقص عندهم عنصر أساسى من الشعائر الدينية . وكان يتمثل فى حركات تعبيرية ، ثم تدرج إلى الأسلوب القصصى والرمزى ، يقص الحوادث والوقائع ويرمز إلى مظاهر الحياة . والموسيقى الدينية كانت تؤدى لديهم كذلك مصحوبة بحركات تعبيرية ، ثم تطورت هى وحركاتها إلى الأسلوب القصصى والرمزى كما تطور الرقص الدينى .

وللبرهمية طقوس تعبدية غريبة فى الجنائز . فهم يحرقون جثة الميتث فى كومة من خشب الصندل تحت اشراف الكهنة الذين يدهنون جسم الميت بالشحوم والدهون ويرتلون عليه أناشيد دينية قبل الحرق وفى أثنائه ، ويبقى أفراد الأسرة بجانب منصة الحرق أربعا وعشرين ساعة بعد حرق الجثمان ، وذلك ليجمعوا الرماد المتخلف عن عملية الحرق تمهيدا لالقائه بعد اثنى عشر يوما فى النقطة التى يعتقدون أن نهرى جومنا والجانج يلتقيان فيها بالنهر الأسطورى الذى يعتقدون أنه يجرى فى باطن الأرض ويسمونه « ساراسوتى » . وتقع هذه النقطة فى بلدة الله آباد .

---

(٢٠) البيرونى ، المرجع السابق ٧٥ .

— ٥ —

الشرائع فى أسفار الدين البرهمى

من أهم شرائع الدين البرهمى النظم المتعلقة بالتفرقة العنصرية ، وتقسيم المجتمع إلى طبقات ، ووظائف كل طبقة منها واختصاصاتها ، وانتقال هذه الوظائف والاختصاصات بطريق الوراثة .

وذلك أن أسفار الڤيدا وقوانين مانو لا تعترف بمبدأ المساواة بين الناس فى القيمة الانسانية المشتركة ، بل تقرر التفاضل بينهم بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى . فتزعم أن الالاه براهما قد خلق أربع طبقات من الناس ، وخلق كل طبقة من هذه الطبقات من طبيعة خاصة ومن موضع خاص من جسمه . فخلق طبقة « البرهمنيين » Brahmans من فمه ، وطبقة « الكشتريين » Kachtriyas من ذراعه ، وطبقة « الفيسائيين » Vaisyas من فخذه ، وطبقة « االشودرا » أو المنبوذين Soudras من قدمه . ولما كان أشرف الأعضاء وأطهرها هو ما علا السرة ، وأشرفها وأطهرها جميعا هو الفم ، ويليه فى ذلك الذراع ، ولما كان أحط الأعضاء هو ما كان أسفل السرة ، وأحطها جميعا هو القدم ، لذلك كان أشرف الناس جميعا وأطهرهم بحسب العنصر والنشأة الأولى هم الذين انحدروا من فم براهما وهم « البرهمنيون » ، ويليهم فى الفضل الذين انحدروا من ذراعه وهم « الكشتريون » ، وكان أحط الطبقات الانسانية الذين انحدروا من فخذه وقدمه وهم « الفيسائيون » و« الشودرا » أو المنبوذون ، وأكثرهم رجسا ونجسا هم « الشودرا » المنحدرون من قدم براهما .

وتقسم هذه الأسفار الوظائف الاجتماعية بين هذه الطبقات بحسب منزلة كل طبقة منها وبحسب شرف الوظيفة نفسها وأهميتها . فللبرهمنيين أرقى الوظائف ، وهى الوظائف الدينية . فهم وحدهم الذين يعلمون الناس أسفار « الڤيدا » ويشرفون على

المذابح والضحايا ، وهم وحدهم الذين لهم الحق فى « الاعطاء والمنع والقبول والرفض » . وللكشتريين الوظائف الحربية وحماية الشعب والذود عن حياض البلاد والعمل على استتباب الأمن . وللفيسائيين القيام على تربية الأنعام وفلح الأرض وشئون التجارة . وأما الشودرا أو المنبوذون فلم يعطهم السيد الأعلى الا وظيفة واحدة ، وهى أن يكونوا خدما للطبقات السابق ذكرها . وهم فوق ذلك رجس ونجس ، فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم والا الارتباط بهم بأية رابطة غير رابطة السيد بالمسود[٢١] . وفى أحياء كثيرة من الهند يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنسا ورجسا ، وفى أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص اذا مر به المنبوذ على بعد بضعة أمتار . وديانة المنبوذين غير ديانة بقية الشعب . فهى تنحصر فى عبادة الأرواح . وأعظم الآلهة عندهم يظهر فى شكل كومة من الآجر أو فى هيئة أخرى ساذجة .

وهذه الطبقات وهذه الوظائف طبقات ووظائف وراثية : فأولاد البرهمانى يولدون برهمنيين ويزاولون وظائف أبيهم ؛ وأولاد الكشترى يولدون كشتريين ويزاولون وظائف أبيهم ... وهكذا بقية الطبقات . ولا يصح لفرد من طبقة ما أن ينتسب الى غير طبقته ولا أن يزاول غير الوظائف المخصصة لها .

وقد اجتهد غاندى فى القضاء على هذه الفوارق ورد الاعتبار إلى المنبوذين . ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح ، وبقى نظام الطبقات على ما كان عليه من قبل .

وإلى هذا النظام يشير البيرونى اذ يقول : « وللهند فى أيامنا من ذلك (أى تقسيم الناس الى طبقات) أوفر الحظوظ . حتى ان مخالفتنا اياهم ، وتسويتنا بين الكافة الا بالتقوى ، كان من أعظم الحوائل بينهم وبين الاسلام (أى أن سير المسلمين على مبدأ أن الناس سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى كان من أعظم الحوائل بين الهنود والدخول فى الاسلام لشدة تمسكهم بالتفرقة العنصرية) . وهم يسمون طباقتهم «برن» أى الألوان ، ويسمونها من جهة النسب «جانك» أى المواليد . —

---

(٢١) قوانين مانو الكتاب الأول مادة ٣١ وتوابعها ومادة ٩٣ وتوابعها والكتب السابع والثامن والتاسع والعاشر .

وهذه الطبقات فى أول الأمر أربع . علياها « البراهمة » قد ذكر فى كتبهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس ، وبذلك صاروا عندهم خيرةِ الأنس . والطبقة التى تتلوهم «كشتر» خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدا . ودونهم « بيش » (الفيسائيون) خلقوا من فخذ براهم ، و« شودرا » خلقوا من رجلى براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان »[٢٢] .

ويضيف البيرونى إلى ذلك أنه بجانب هذه الطبقات الأربع توجد طبقتان أخريان تشتمل كل طبقة منهما على عدة فروع : احداهما طبقة الصناع ؛ والأخرى طبقة المشتغلين برذالات الأعمال .

ويقول فى صدد الطبقة الأولى : « ثم أرباب المهن غير هؤلاء (أى غير الطبقات الأربع السابق ذكرها) ... ويسمون « أنتر» هم ثمانية أصناف بالحرف ... وهم القصار والاسكاف واللعاب ونساج الزنابيل والأترسة والسفان وصياد السمك وقناص الوحوش والطيور والحائك . وهؤلاء لا يساكنهم الطبقات الأربع فى بلدة ، وإنما يأوون إلى مساكن تقربها وتكون خارجها ». وذكر ما يفهم منه أنه يلحق بكل مهنة من هذه المهن ما يشبهها من المهن الأخرى التى لا تدخل تحت هذه المهن الثمان ، ما عدا القصار والاسكاف والحائك فإنه لا تنحط إلى حرفتهم ولا تلحق بها أية حرفة أخرى .

ويقول فى صدد الطبقة الثانية : « وأما « هادى » و« دوم » و« جندال » و« بدهتوا » فليسوا معدودين فى شئ ، وإنما يشتغلون برذالات الأعمال ، من تنظيف القرى وخدمتها ، وكلهم جنس واحد ، يميزون بالعمل .. وقد ذكر أنهم يرجعون إلى أب « شودر » وأم « برهمن » خرجوا منها بالسفاح فهم منفيون منحطون »[٢٣] .

وكما تفرق الشريعة البرهمية بين الطبقات تفرقة عنصرية تفرق كذلك بين الرجل

---

(٢٢) البيرونى ، المرجع السابق ٩١ .

(٢٣) البيرونى ، المرجع السابق ٩١ ، ٩٢ .

والمرأة في القيمة الانسانية وفي سائر الحقوق . فتجرد المرأة من أهليتها المدنية وتجعلها تحت سيطرة الرجل في مختلف مراحل حياتها كما تنص على ذلك المادتان ١٤٧ ، ١٤٨ من قوانين مانو إذ تقرران أنه « لا يحق للمرأة في أية مرحلة من مراحل حياتها أن تجرى أي أمر وفق مشيئتها ، حتى لو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها (مادة ١٤٧) . ففي مراحل طفولتها تتبع والدها ، وفي مرحلة شبابها تكون تابعة لزوجها ، فاذا مات زوجها تنتقل الولاية عليها إلى أبنائه ، فان لم يكن له أبناء تنتقل الولاية عليها إلى رجال عشيرته الأقربين ، فان لم يكن له أقرباء انتقلت الولاية عليها إلى عمومتها ، فان لم يكن لها رجال عمومة انتقلت الولاية عليها إلى الحاكم . فليس للمرأة في اية مرحلة من مراحل حياتها حق في الحرية ولا في الاستقلال ولا في التصرف وفق ما تشاء (مادة ١٤٨) » .

ومن أهم ما تعني به شريعتهم كذلك موضوع الدولة . والدولة في نظر الفيدا هي التي يحكمها ملك في بلاد ذات حدود تدعى « راشترا » . واذا لم يكن فيها ملك أو محافظ وجب على الشعب انتخابه من بينهم لمواجهة العدو تحت قيادة منظمة . وعليه أن يقود جيش الدفاع بنفسه . ويتلقى في مقابل خدماته طاعة الرعية والخراج والهدايا والتحف من القبائل وأعيان البلد .

ومن أهم ما تعنى به شريعتهم كذلك النظم المتعلقة بالزواج وشئون الأسرة . وهى تعتبر الزواج واجبا على كل قادر عليه . ومن ثم ينظر البرهميون إلى الأعزب نظرتهم إلى عنصر فاسد ضار ، أو إلى مخلوق عجيب ومسخ غير طبيعي ، ويعتقدون أن من يموت بدون عقب تتخبط روحه كمن يتخبطة الشيطان من المس ، أو كمن وقع تحت عب دين ثقيل لا يستطيع الوفاء به[٢٤] . ولكن نظم الزواج والأسرة في الشريعة البرهمية تختلف اختلافا كبيرا في كثير من الوجوه عن نظائرها في اليهودية والنصرانية والاسلام .

فمن ذلك أنها تعتبر الاستيلاء على المرأة بالقوة وسيلة مشروعة لاتخاذها زوجة في

---

(٢٤) انظر كتابنا في « قصة الزواج والعزوبة في العالم » ٩ ، ١٠ ، وكتاب وسترمارك .
Westermarck, op. cit. II, P. 386.

طبقة الكشتريين أى رجال الحرب . فقد ورد فى المادة الثالثة والثلاثين من الكتاب الثالث من قوانين ما نو أنه « اذا استولى رجل على امرأة بالقوة وسباها من منزل أهلها وهى تبكى وتصرخ فى طلب النجدة وانتصر على من حاولوا مقاومته فقتلهم أو جرحهم ... فان طريقته هذه تسمى « طريقة الجبابرة » Mode de Géant

وتنص المواد الثالثة والعشرون والخامسة والعشرون والسادسة والعشرون من هذه القوانين على أن « طريقة الجبابرة » طريقة مشروعة للزواج فى طبقة الكشتريين (رجال الحرب)(٢٥) .

ومن ذلك أنها تبيح أن يلحق نسب الولد بجده لأمه إذا اشترط ذلك فى العقد . وإلى هذا النظام يشير البيرونى اذ يقول : « وقد يكون النسب من صلب الختن فى بطن الابنة المزفوفة إذا شورط على أن يكون الولد لأبيها . فيكون حينئذ ولد الابنة للجد المشارط دون الأب الزارع »(٢٦) (أى الذى وضع النطفة) . ومن ذلك أنها تبيح للمرأة أن تتصل بزوج أختها إذا كان زوجها هى عقيما لتأتى بأولاد يلحق نسبهم بزوجها من الناحية الشرعية (٢٧) . ومن ذلك أنها تبيح « نكاح الاستبضاع » وهو أن يتصل بالزوجة ، برضا زوجها ، رجل آخر قوى نجيب لتأتى لزوجها بأولاد نجباء ، فيعتبر الزوج هو الأب من الناحية الشرعية ، ويعتبر الرجل الآخر مجرد أداة استخدمت لإنجاب الأولاد . وإلى هذا النظام يشير البيرونى إذا يقول : « وقد يكون النسب من صلب الأجنبى فى بطن الزوجة ، لأن الأرض للزوج ، فيكون أولاد المرأة لزوجها إذا كانت الزراعة برضا منه »(٢٨) .

ويؤخذ من بعض أسفارهم وقصصهم أنه كان يباح فى شريعتهم أن يشترك فى

---

(٢٥) انظر كتابنا فى « الأسرة والمجتمع » الطبعة الثامنة ص ١١٨ .

(٢٦) البيرونى ، المرجع السابق ص ٩٧ ، والختن بفتحتين يطلق أحيانا على زوج الابنة وهو المراد هنا .

(٢٧) الأسرة والمجتمع الطبعة الثامنة ص ٧٢ .

(٢٨) البيرونى ، ٩٧ ، هذا ونكاح الاستبضاع كان جائزا عند شعوب كثيرة منها العرب فى الجاهلية . انظر كتابنا فى « الأسرة والمجتمع ، الطبعة الثامنة صفحتى ٧١ ، ٧٢ .

المرأة الواحدة عدة أزواج وخاصة اذا كانوا اخوة[٢٩] . فقد جاء فى « المهابهاراتا » Mahàbharata (وهى ملحمة شعرية شهيرة عند الهنود تشبه الالياذة والأوديسيا عند قدماء اليونان) أن أرجونا ثالث أبناء الملك باندو الخمسة فاز بدوبادى ، ابنة ملك بانشالا ، بأن أطلق خمسة أسهم داخل حلقة ضيقة ومعلقة فى الهواء[٣٠] . ولكن أمه قالت له ان كل شئ يجب أن يكون مشاعا ، وهكذا اقترن الاخوة الخمسة بالفتاة وعاشوا جميعا فى قصر واحد[٣١] . ويروى البيرونى هذه القصة على وجه آخر يختلف قليلا عن الوجه السابق اذ يقول : « وقد كان لأولاد باندو الأربعة زوجة مشتركة فيما بينهم تقيم عند كل واحد شهرا »[٣٢] . ولا يزال نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة ، وخاصة اذا كانوا اخوة ، متبعا الى الوقت الحاضر فى عدة مناطق من الهند ، وبخاصة لدى القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية . ومن أشهر القبائل التى لا تزال تسير على هذا النظام فى الوقت الحاضر قبائل « جوانسواريس »[٣٣] . ويذكر البيرونى أن كثيرا من هذه الأنواع الغريبة من النكاح قد ورد لديهم فيما بعد الأمر بتحريمها ، وأن هذا دليل على أنهم يجيزون النسخ فى الأحكام[٣٤] . — وأما تعدد الزوجات للزوج الواحد فقد أباحته جميع كتبهم المقدسة ولم يرد أى نص بتحريمه ولا بكراهته .

وتضع كتبهم المقدسة قيودا كثيرة فيما يتعلق بالطبقات التى يحل بينها التزاوج والطبقات التى يحرم أو يكره بينها التزاوج ، فلا يجوز للرجل من طبقة ما أن يتزوج الا من امرأة تنتمى الى طبقة أو طبقات معينة ، وقد تختلف هذه القيود فى الزواج الثانى وما يليه (أى حينما يريد الرجل مثلا أن يجمع بين زوجتين فاكثر) عن قيود الزواج الأول . وفى الكتاب الثالث من « قوانين مانو » تفصيل كبير لهذه القيود .

---

(٢٩) انظر البيرونى ، المرجع السابق ٩٨ ، وكتابنا فى « الأسرة والمجتمع » الطبعة الثامنة ص ٦٨ .

(٣٠) يشبه هذا ما تنسبه الأوديسيا إلى أوليس . انظر كتابنا فى « الأدب اليونانى القديم » . ص ٨٣ .

(٣١) الأسرة والمجتمع الطبعه الثامنة ، صفحتى ٦٨ ، ٦٩ .

(٣٢) البيرونى ، المرجع السابق ٩٨ .

(٣٣) الأسرة والمجتمع الطبعة الثامنة ، صفحتى ٦٧ ، ٦٨ .

(٣٤) البيرونى ، المرجع السابق ٩٨ .

ويحسب تعاليم الڤيدا يرث الابن أباه ، ولا ترثه ابنته الا اذا كانت وحيدته .

وعلى الرغم مما كان للزواج فى نفوس البرهميين من منزلة كبيرة ، فانهم كانوا يرون العزوبة واجبة على كل من يصل الى منزلة القديسين من رجال الدين . وكان يجب لديهم كذلك على البراهما كارين Brahmacarine ، وهو التلميذ فى أدوار دراسته الدينية قبل أن يصل الى مرتبة القسيس ، أن يظل أعزب وألا يقرب النساء حتى يفرغ من دراسته .

وتعترف الڤيدا بحق الملكية الفردية ، وتبيحها فى العقار والمنقول كالذهب والفضة والحلى والأنعام .

ومن غريب ما تذهب اليه الشريعة البرهمية فى شئون المسئولية والجزاء أنها تأخذ بنظام المسئولية الجماعية فى بعض الجرائم وتجيز أن ينتقل الجرم وتبعته إلى غير مقترفه . وقد نصت قوانين مانو على أمور كثيرة من هذا القبيل . فمن ذلك أنها تقرر أن نكاح السفاح أو النكاح المحرم يقع اثمه على جميع الأولاد الذين يجيئون منه كما يقع على الزوجين نفسيهما ، وأنه إذا عقد شخص زواجا لا كفاءة فيه بين الزوجين ، أو أهمل رسما من رسوم الدين ، أو لم يدرس أسفار « الڤيدا » ، أو أهان أحد أفراد البرهمنيين (طبقة رجال الدين) ، فإن جرم هذه الأعمال يقع على المجرم وينتقل منه إلى جميع أفراد أسرته ، وأن شاهد الزور يعاقب بجرمه فى خمسة أو عشرة أو مائة أو ألف من أقربائه تبعا لخطورة شهادته ومبلغ ما يترتب عليها من الاضرار بالغير ، وأن الرجل الخليع exclut de son caste (وهو الذى تتبرأ منه طبقته وتخلعه من ذمتها لعمل ارتكبه) إذا عاشره رجل آخر أو قدم ضحية عنه أو علمه أو صاهره أو شاركه فى ركوب عربته أو فى مقعده أو فى طعامه ... فان هذا الرجل الآخر يصبح هو نفسه خليعا ، وأن من يقتل برهمنيا (أحد رجال الدين) ينتقل جرمه إلى من يؤاكله ، وأن المرأة التى تخون زوجها ينتقل جرمها إلى زوجها نفسه ، وأنه اذا قرب رجل من طبقة راقية امرأة من طبقة الشودرا (المنبوذين) ثم دعى الى مأدبة انتقل اليه ما ارتكبه أصحاب هذه المأدبة من معاص وسيئات ، وأن الحاكم اذا لم يعاقب سارقا محترفا

بالسرقة ينتقل اليه جرمه كاملا ، وأن الملك الذى لا يحمى أفراد شعبه ينتقل اليه سدس خطاياهم جميعا ، والذى يحميهم ينتقل اليه سدس حسناتهم جميعا[٣٥] .

— ٦ —

الأخلاق فى أسفار الدين لبرهمى

تدعو الديانة البرهمية إلى كثير من الفضائل التى يدعو إليها الاسلام ، وتنهى عن كثير مما ينهى عنه من مظاهر الرذائل والفحشاء والمنكر والبغى .

وتقوم أخلاقها الإيجابية على عشر دعائم أساسية هى الوصايا العشر للدين البرهمى ، وهى : مراعاة الكائن الالاهى ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، والقناعة ، والاستقامة ، والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ودراسة الفيدا ، والصبر ، والصدق ، واجتناب الغضب .

ويذكر البيرونى فى صدد هذه الدعائم رواية أخرى لا تختلف كثيرا عن هذه الرواية إذ يقول : « والسيرة الفاضلة وهى التى يفرضها الدين وأصوله ، بعد كثرة الفروع عندهم ، راجعة إلى جوامع عدة هى : ألا يقتل ، ولا يكذب ، ولا يسرق ، ولا يزنى ، ولا يدخر ، ثم يلزم القدس والطهارة ، ويديم الصوم والتقشف ، ويعتصم بعبادة الله تسبيحا وتمجيدا ، ويديم اخطار « أوم » ، التى هى كلمة التكوين والخلق ، على قلبه بدون التكلم به »[٣٦] .

ومن أهم الرذائل التى تخصها أسفارهم بالذكر ، وتحدد مكان مرتكبيها فى جهنم ، الكذب وشهادة الزور وسفك الدم بغير حق والاستهزاء بالناس وغصب حقوقهم والسرقة وخاصة سرقة الذهب وقتل البقرة والزنا وخاصة الزنا بالابنة وزوجة الابن وأم الزوجة واتصال التلميذ بزوجة أستاذه وجماع المرأة فى الأيام المعظمة واتيان البهائم والاغضاء على فاحشة الزوجة طمعا فى منفعة والاحتيال والغدر وعقوق الآباء

---

(٣٥) انظر كتابنا فى المسئولية والجزاء ، الطبعة الثالثة ، ١١٢ ، ١١٣و
Fauconnet: La Responsabilité

(٣٦) البيرونى ، المرجع السابق ٧١ .

والأجداد والشح والبخل على النفس واخفاء المال طمعا فى صلات الأمراء واحراق بيوت الناس وقطع الأشجار وتقصير الأمراء فى واجباتهم نحو رعاياهم[٣٧] .

وقد عنى بتوضيح نظامهم الخلقى والعمل على تهذيبهم وحضهم على التمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل كثير من فلاسفتهم ، ومن أشهرهم «كرشنا» الذى ولد حوالى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد . وقد أثرت عنه حكم ونصائح كثيرة ، منها قوله : «ان الجسد الذى تهبط اليه النفس شىء زائل ، أما النفس التى لا تدركها العين فهى أبدية» ، وقوله : «إذا انحل جسد الشخص بالموت ، فان كانت شهواته متغلبة عليه فى حياته فان روحه ترجع مرة ثانية إلى الأرض ولا يكون لها مكان فى السماء ، وإن كانت الحكمة متغلبة عليه فى حياته فان روحه تطير إلى الطبقات العليا حيث ترى وجه الله وتدرك كماله» .

انتهت طبعته الثالثة فى أوائل سنة ١٤٠٤ هـ
وأواخر سنة ١٩٨٣ م

(٣٧) انظر أواخر الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

فهرس

الموضوع

الصفحة

من مؤلفات الدكتور على عبد الواحد وافى

كتب باللغات الأجنبيـة :

١ — نظرية اجتماعية فى الرق .

٢ — الفرق بين رق الرجل ورق المرأة .

طبعا باللغة الفرنسية بباريس سنة ١٩٣١ وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة باريس .

كتب باللغـة العربيـة :

٣ — علم اللغة (الطبعة الثامنة ، مزيدة ومنقحة) .

٤ — فقه اللغة (الطبعة الثامنة ، مزيدة ومنقحة) .

٥ — نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

٦ — اللغة والمجتمع (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

٧ — علـم الاجتماع (الطبعة الثانية . مزيدة ومنقحة)

٨ — الأسرة والمجتمع (الطبعة السابعة ، مزيدة ومنقحة) .

٩ — المسئولية والجزاء (الطبعة الثالثة ، مزيـدة ومنقحة) .

١٠ — قصة الملكية فى العالم (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

١١ — قصة الزواج والعزوبة فى العـالم .

١٢ — مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى وعلاجها فى ضوء العلم والدين

١٣ ، ١٤ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (جزءان) .

١٥ — المجتمع العربى .

١٦ — الهنود الحمر (سلسلة اقرأ عدد ٨٨ ، الطبعة الثانية) .

١٧ — الطوطمية (سلسلة اقرأ ١٩٤) .

١٨ — الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعى (الطبعة الثانية . مزيدة ومنقحة)

١٩ — ابن خلدون منشىء علـم الاجتماع .

٢٠ ــ عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (ظهر فى سلسلة « أعلام العرب » التى تصدرها وزارة الثقافة) .

٢١ ــ عبقريات ابن خــلدون .

٢٢ ــ ٢٤ ــ « مقدمة ابن خلدون » مع تمهيد وتكملة وتحقيق وشرح وتعليق (ثلاثة أجزاء ، بها نحو ثلاثة آلاف تعليق ، وتمهيد فى نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وظهر فيها الفصول والفقرات التى كانت ساقطة من طبعاتها المتداولة ، وتبلغ حوالى مائة صفحة ، وملحق بها فهرس تحليلى وفهرس أبجدى . ــ الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

٢٥ ــ فصول من « آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى » مع مقدمة وتحقيق وشرح وتعليق .

٢٦ ــ « آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى » مع مقدمة وتحقيق وشرح وتعليق

٢٧ ــ الاقتصاد السياسى (الطبعة السادسة ، مزيدة ومنقحة) .

٢٨ ــ البطالة ووسائل علاجها والتعليم الاقليمى وأثره فى علاج البطــالة (نال جائزة المباراة الأدبية سنة ١٩٣٥) .

٢٩ ــ عوامل التربية (الطبعة الثالثة)

٣٠ ــ فى التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحه) .

٣١ ــ أصول التربية ونظام التعليم (مع آخرين) .

ــ الوراثة والبيئة (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٣٣ ــ اللعب والعمل .

٣٤ ــ مواد الدراسة .

٣٥ ــ حقوق الإنسان فى الإسلام (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة) .

٣٦ ــ المساواة فى الإسلام (سلسلة « اقرأ » عدد ٢٣٥ الطبعة الثامنة ، مزيدة ومنقحة) .

٣٧ ــ الحرية فى الإسلام (سلسلة « اقرأ » عدد ٣٠٤) .

٣٨ ــ بيت الطاعة والطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام (ظهر فى السلسلة التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة بعنوان « مع الإسلام ») .

٣٩ ـ الصوم والأضحية فى الإسلام والشرائع السابقة (ظهر فى السلسلة التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان « دراسات فى الإسلام » ، وترجم إلى اللغة الفرنسية) .

٤٠ ـ حماية الإسلام للأنفس والأعراض .

٤١ ـ المرأة فى الإسلام .

٤٢ ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام ، الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة .

٤٣ ـ اليهودية واليهود .

٤٤ ـ بحوث فى الإسلام والاجتماع .

٤٥ ـ بين الشيعة وأهل السنة .

بحوث باللغات الأجنبية طبعت على حدة :

١ ـ نظرية جديدة فى وأد البنات عند العرب فى الجاهلية (نشر باللغة الفرنسية فى مطبوعات المجمع الدولى لعلم الاجتماع) .

٢ ـ حقوق الإنسان فى الإسلام (قدم باللغتين الفرنسية والانجليزية إلى مؤتمر اليونسكو الخاص بدراسة حقوق الإنسان المنعقد فى أكسفورد سنة ١٩٦٥ ونشر فى مطبوعاته بهاتين اللغتين) .

بحوث باللغة العربية طبعت على حدة وفصول من كتب :

٣ ـ رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، طبعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٦) .

٤ ـ تعليمات تربوية لمدرسى المدارس المتوسطة والثانوية العراقية (طبعته وزارة المعارف العراقية سنة ١٩٣٧)

٥ ـ ميادين الخدمة الاجتماعية ، شغل أوقات الفراغ (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤٠ . وقامت بطبعه « رابطة الإصلاح الاجتماعى ») .

٦ ـ الحرية والأخاء والمساواة فى الإسلام (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤١ وقامت بطبعه على حدة « جماعة التعريف الدولى بالإسلام ») .

٧ – الصوم (فصله من مجلة كلية الآداب عدد مايو ١٩٥٠) .

٨ – النظم الدينية عند قدماء اليونان .

٩ – أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان .

١٠ – الشعر الحماسي عند قدماء اليونان .

١١ – النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان .

١٢ – الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كونت .

ظهرت هذه البحوث الخمسة الأخيرة مطبوعاً كل منها فى فصلة على حدة فى مؤلفات « الجمعية المصرية لعلم الاجتماع » سنتى ١٩٥١ ، ١٩٥٢) .

١٣ – حقوق كل من الزوجين وواجباته فى الأسرة المصرية (ألقى فى مؤتمر لرابطة الإصلاح الاجتماعى ونشرته لجنة المؤتمرات والندوات بالرابطة فى يناير سنة ١٩٥٦) .

١٤ – الاختلاط بين الجنسين (ألقى فى مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى ونشرته لجنة الندوات بالرابطة فى مارس سنة ١٩٥٦) .

١٥ – تطور البيت العربى وأثر المدنية الحديثة فيه (من مطبوعات إدارة الشئون الاجتماعية بجامعة الدول العربية) .

١٦ – نظام الأسرة فى الإسلام (فصل من كتاب « الإسلام اليوم وغداً » نشرته مكتبة عيسى الحلبى سنة ١٩٥٧) .

١٧ – مشكلة مصر هى قلة النسل لا كثرته (من مطبوعات ، إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف سنة ١٩٥٨) .

١٨ – كيف يتكلم الطفل (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد أكتوبر سنة ١٩٥٨) .

١٩ – المدرسة المصرية (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد ديسمبر سنة ١٩٥٨) .

٢٠ ــ ألعاب الطفل (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد فبراير سنة ١٩٥٩) .

٢١ ــ الوراثة والبيئة (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد أبريل سنة ١٩٥٩) .

٢٢ ــ وظائف الأسرة (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد سبتمبر سنة ١٩٥٩) .

٢٣ ــ الإسلام فى المجتمع العربى (محاضرة عامة ألقيت فى قاعة محمد عبده فى مايو ١٩٥٦ وقامت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر بطبعها على حدة سنة ١٩٥٦) .

٢٤ ــ الرد على الشيوعيين العراقيين فى افترائهم على الإسلام فى كراستهم الرمادية (الكتاب رقم ٣٢ من « كتب قومية » صدر فى نوفمبر سنة ١٩٥٩) .

٢٥ ــ علم اللغة (فصل من « السجل الثقافى » لسنة ١٩٦٠ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .

٢٦ ــ علم الاجتماع (فصل من « السجل الثقافى » لسنة ١٩٦١ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .

٢٧ ــ علم الاجتماع (فصل من « السجل الثقافى » لسنة ١٩٦٢ تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .

٢٨ ــ ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع (ألقى فى مهرجان ابن خلدون المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٦٢ . ونشره مع بقية بحوث المهرجان فى كتاب خاص « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » بعنوان « أعمال مهرجان ابن خلدون ») .

٢٩ ــ مقدمة ابن خلدون (فصل من العدد الرابع من المجلد الأول من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « تراث الإنسانية » أبريل سنة ١٩٦٣) .

٣٠ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى (فصل من العدد السابع من المجلد الثانى من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « تراث الإنسانية » يولية ١٩٦٤) .

٣١ ـ الحرية المدنية فى الإسلام (ألقى فى الموسم الثقافى لجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٧ وطبعته الجامعة فى فصلة على حدة) .

٣٢ ـ القرآن وحرية الفكر (ألقى فى مؤتمر أسبوع القرآن الذى عقدته جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م ، وقامت الجامعة بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر ، وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٣ ـ التراث العربى وأثره فى علم الاجتماع (ألقى فى الحلقة التى عقدتها جمعية الأدباء بالقاهرة سنة ١٩٦٨ . وقامت الجمعية بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب بعنوان « التراث العربى ، دراسات » .

٣٤ – التلازم بين انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية . بحث أرسل فى أواخر سنة ١٩٦٨ إلى « المكتب الدائم لتنسيق التعريب » الملحق بجامعة الدول العربية وهو يشتمل على إجابات على إسئلة وجهها المكتب إلى صاحب البحث .

٣٥ ـ الوراثة وقوانينها وآثارها فى الفرد والأسرة والمجتمع (فصلة من العدد الثانى من مجلة جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م) .

٣٦ ، ٣٧ ـ التعليم الإقليمى وأثره فى علاج البطالة ؛ البطالة بين طبقة المشتغلين بالزراعة : أسبابها ووسائل علاجها (بحثان ألقيا فى المؤتمر الذى عقدته جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٩ لدراسة مشكلة البطالة فى السودان ، وطبعا مع بقية أعمال المؤتمر) .

٣٨ ـ الملكية الخاصة فى الإسلام (ألقى فى الموسم الثقافى سنة ١٩٦٩ لجامعة أم درمان الإسلامية وقامت الجامعة بطبعه مع بقية بحوث الموسم وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٩ ـ التكامل الاقتصادى فى الإسلام (بحث قدم إلى مجمع البحوث الإسلامية ، بدعوة خاصة من المجمع ، وألقى فى مؤتمره السادس فى مارس ١٩٧١ . وقام المجمع بطبعه فى كتاب على حدة) .

٤٠ ـ ٤١ ـ المرأة والأسرة فى الإسلام ، الحرية المدنية فى الإسلام . بحثان ألقيا فى « الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامى » المنعقد فى مدينة قسطنطينة بجمهورية الجزائر فى شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وطبعا مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامى » .

٤٢ ـ ٤٤ ـ اللغة العربية فى الوطن العربى . أهميتها وتاريخها . ـ نظام الطلاق فى الإسلام . ـ نظام الاقتصاد فى الإسلام (ثلاثة بحوث أرسلت إلى « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامى » المنعقد فى مدينة وهران بجمهورية الجزائر من ٢٥-٧-١٩٧١ إلى أول أغسطس ١٩٧١ ، وطبعت مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان « محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامى ») .

٤٥ ـ موقف الإسلام من الأديان الأخرى والرد على ما يفتريه بعض مؤرخى الفرنجة وبعض المستشرقين على الإسلام فى هذا الصدد (بحث ألقى فى « الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامى » المنعقد فى مدينة الجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية من ٢٠-٧-٧٢ إلى ١١-٨-٧٢ ، وطبع فى الجزء الثانى صفحات ٣٩٣ ـ ٤٢٨ مع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب من خمسة أجزاء) .

٤٦ ـ واقع التشريع اليوم فى العالم العربى ومدى انحرافه عن روح الشريعة الإسلامية ونصوصها وعن تقاليدنا وعرفنا الخلقى . بحث أرسل إلى « الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامى » المنعقد فى مدينة « تيزى أوزو » بالجمهورية الجزائرية من ١٠ إلى ٧٣/٧/٢٠ .

٤٧ – أثر تطبيق النظام الاقتصادى الإسلامى فى المجتمع . من بحوث « مؤتمر الفقه الإسلامى » المنعقد فى الرياض سنة ١٣٩٦هق١٩٧٦٣م) وطبع مع بقية بحوث المؤتمر.

٤٨ – معجم العلوم الاجتماعية : أصدرته « الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) » . وقدحرر الدكتور على عبد الواحد وافى ٣٤ أربعة وثلاثين مصطلحاً من مصطلحات علم الاجتماع فى هذا المعجم ، وراجع جميع مصطلحات علم الاجتماع التى حررها غيره وتبلغ حوالى ٣٧٠ ثلثمائة وسبعين مصطلحاً ، وأحال المحررون على مؤلفاته فى نحو ١٤٥ مائة وخمسة وأربعين مصطلحاً .

٤٩ – الصيام فى الإسلام والشرائع السابقة (محاضرة من محاضرات « الدروس الحسنية الرمضانية » لسنة ١٣٩٤ هـ . وهى المحاضرات التى جرت عادة جـلالة الملك الحسن الثانى ملك المغرب أن يدعو لإلقائها فى شهر رمضان عـددا من العلماء من المغرب ومن البلاد العربية والإسلامية . وتلقى هذه المحاضرات فى القصر الملـكى أمام جلالة الملك نفسه ، ويدعى لسماعهـا كبار رجال الدولة والجيش والقضاء وأعضاء البعثات الدبلوماسية فى المغرب وعدد كبير من الفقهاء والعلماء وسراة القوم من المغاربة وغيرهم . وقد قامت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى المغرب بطبع محاضرات هـذا الموسم فى مجلد واحد . وتشغل هذه المحاضرة صفحات ٢٦٧ – ٢٨١ من هذا المجلد) .

٥٠ – سماحة الإسلام فى الدعوة إلى الله — مجلة المعهد العالى للدعوة بالرياض

٥١ – نداء المخاطبين فى القرآن — كلية اللغة العربية بالرياض

٥٢ – لا يطل دم فى الإسلام — كلية الشريعة بالرياض

٥٣ – ابن خلدون والأزهر — العيد الألفى للأزهر

الدكتور / على عبد الواحد وافى

عالم إسلامى كبير حصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس واختير عضوا بالمجمع الدولى لعلم الاجتماع ثم وكيلا ورئيسا لقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة، ثم عميدا لكليات الآداب بجامعة الأزهر وأم درمان.

من أوائل أساتذة علم الاجتماع فى الثلاثينيات بكلية الآداب جامعة القاهرة بعد أن كان قاصرا على بعض العلماء الأجانب، وأول من وضع لهذا العلم منهجا شاملا، ونظم فروعه، وخطة تدريسه باللغة العربية لجامعات القاهرة والأزهر والمملكة العربية السعودية وتوج أعماله بتحقيق مقدمة ابن خلدون للعلامة الكبير عبد الرحمن بن خلدون وأضاف إليها الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها وعمل فهارسها بالإضافة إلى هذا التراث الكبير من مؤلفاته فى اللغة العربية وعلم الاجتماع.

- بحوث فى الإسلام والاجتماع
- حقوق الإنسان فى الإسلام
- بين الشيعة وأهل السنة
- اليهودية واليهود
- المرأة فى الإسلام
- حماية الإسلام للأنفس والأعراض
- المساواة فى الإسلام
- ابن خلدون منشئ علم الاجتماع.
- مقدمة ابن خلدون (أجزاء).
- الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام

- غرائب النظم والتقاليد والعادات
- علم الاجتماع
- المجتمع العربى
- عوامل التربية بحوث فى علم الاجتماع التربوى والأخلاقى
- الوراثة والبيئة
- مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى
- الأسرة والمجتمع
- المدينة الفاضلة
- قصة الزواج والعزوبة فى العالم
- قصة الملكية فى العالم
- الاقتصاد السياسى
- المسئولية والجزاء
- علم اللغة
- فقه اللغة
- اللغة والمجتمع
- نشأة اللغة عند الإنسان والطفل
- الأدب اليونانى القديم

